روايات الهلال

شعب وطاغية

اسكندر دوماس الكبير

REWAYAT AL - HILAL
NO. 441 - SEPTEMBER



روايات الهـــلال

REWAYAT AL - HILAL

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٤١ - سبتمبر ١٩٨٥ - ذوالحجة ١٤٠٥
NO. 441 - september

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية ستة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحاد البريد العربى والافريقى والباكستان اثنا عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م ع نقدا اوبحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٧٥ قرشا فى البلاد العربية والخارج من سلسلة روايات الهلال الشهرية بسعر

سوريا ١٤٠٠ ق س لبنان ١٤٠٠ ق ل الاردن ٧٠٠ فلس الكويت ٦٣٠ فلس العراق ١١٠٠ فلس السعودية ٩ ريال تونس ١٤٥٠ مليم الخليج ١٢٠٠ فلس الصومال ١٢ شلن لاهوس ١٢٠ شلن عدن ٤٤٠ شلن لندن ١٥٠ سنتا اثيوبيا ٣٠٠ دراخمه كندا ٥٠ سنت الدولارين ٦٠٠ سنت استراليا ٦٠ سنت السودان ١٧٥ ق سودانى المغرب ١٥ فرنك غزة والضفة ١٥ سنت [illegible] ١٠٠٠ فرنك اليمن الصالية ١٥٠ شلن

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عزالعرب ـ القاهرة .

تليفون ٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط .



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة الفنانة
سميحـــة حسنيـــن

شعب وطاغية

تأليف

اسكندر دوماس الكبير



دار الهلال

ملخص الفرسان الثلاثة

دارتانيان شاب في مقتبل العمر هو سليل أسرة عريقة فقيرة في بعض نواحي جاسكونيا ـ ذلك الاقليم الفرنسي الذى اشتهر أهله بالذكاء وحدة الطبع . وكان ابوه قد حارب في صفوف هنرى الرابع ، ولما شب ولده عن الطوق علمه المبارزة بالسيف حتى برع فيها . ثم رغب الشاب في الهجرة الى باريس لينشد فيها مستقبله ، فزوده أبوه بثلاث هدايا : هى حصان عجوز برتقالي اللون ، وقدر قليل من النقود ، وخطاب توصية منه الى صديقه ومواطنه القديم المسيو دى تريفيل رئيس فرقة فرسان الملك .

وفي طريقه الى باريس تشاجر مع نبيل اسمه الكونت دى روشفور من رجال الكاردينال دى ريشيليو ، ولما هم دارتانيان بمبارزته انقض عليه اتباع هذا النبيل وضربوه . ولما أفاق من إغمائه وجد ان خطاب التوصية قد سرق منه . ومع ذلك ذهب الى المسيو دى تريفيل في باريس فوضعه هذا تحت حمايته . وقد صادف في بيته الفرسان الثلاثة : اتوس ، وأراميس ، وبورتوس ، الذين اشتهروا بشجاعتهم الفائقة وتفوقهم في المبارزة . ولم يكد يهم بمبارزتهم حتى انقض عليهم حرس الكاردينال يريدون القبض عليهم لأن المبارزة محرمة قانونا . وكان هناك تنافس خفي على السلطة بين الملك لويس الثالث عشر وبين وزيره الأول الكاردينال دى ريشيليو . وقد نشأ من هذا التنافس عداء صريح بين فرسان الملك وحراس الكاردينال يستعر أواره من حين الى حين . وعندئذ انضم دارتانيان الى الفرسان الثلاثة ، وبفضل شجاعته وبراعته في المبارزة تغلبوا على حراس الكاردينال ، ومنذ ذلك توطدت الصداقة بينه وبين أولئك الفرسان ، وبدأ اسم دارتانيان يلمع في القصر الملكى .

وتنتقل بنا حوادث الرواية إلى الملكة آن النمسوية الأصل قرينة لويس الثالث عشر ، فان الكاردينال دى ريشيليو يحقد عليها ويكيد لها ، منذ تودد إليها فردته خائبا .. وقد علم من عيونه الذين بثهم حولها ، انها تحب دوق بكنجهام رئيس وزراء ملك الانجليز ، فاستدعاه الى باريس بخطاب مزيف منسوب إليها لكي يوقع به وبها ، وجاء الدوق واستطاع ان يلتقى بالملكة خفية برغم أعين الرقباء . وفي اللقاء طلبت إليه ان يقطع صلته بها وان ينساها . واعطته هدية تذكارية هى علبة بها اثنا عشر زرا ماسيا كان لويس الثالث عشر قد اهداها إليها وقد علم الكاردينال بذلك فاحتال حتى أغرى لويس الثالث عشر بأن يقيم حفلة راقصة بدار البلدية ويطلب الى الملكة حضورها حاملة على ثوبها تلك الأزرار الماسية الاثنى عشر

وكان الكاردينال قد بعث اللادى دى ونتر - المرأة الحسناء المغامرة - الى لندن حيث اتصلت بالدوق بكنجهام . ثم غافلته وهى تراقصه فسرقت زرين من تلك الازرار . وهكذا اراد الكاردينال ان يثبت على الملكة صلتها بالدوق لعجزها عن الظهور فى الحفلة وعليها الأزرار كاملة العدد .

وكان للملكة خادمة مخلصة أمينة هى خياطتها الخاصة مدام بونانسييه الحسناء . وهى التى يسرت لقاءها الخفى بدوق بكنجهام . وكانت تلك الشابة متزوجة من شيخ شحيح يسكن تحت مسكن دارتانيان وقد خلصها الأخير من رجال الكاردينال حين هموا بالقبض عليها فى بينها ومنذ ذلك تبادل وإياها الحب . فلجأت الى دارتانيان وطلبت اليه أن يسافر الى لندن ليقابل دوق بكنجهام ويفضى اليه بالحرج الذى اصبحت فيه الملكة ان ويستعيد منه الأزرار الاثنى عشر . وعرض دارتانيان على اصحابه الفرسان الثلاثة أن يصحبوه فى تلك الرحلة . ولكن كان أعوان الكاردينال قد دبروا لهم من يعوقهم فى الطريق . فترك دارتانيان كلا منهم مشغولا بمبارزته . وواصل الرحلة مع خادمه بلانشيه حتى وصلا الى لندن .

ولما وجد دوق بكنجهام ان الأزرار الماسية قد نقصت زرين امر بعمل بديل منهما بأسرع وقت . وهكذا عاد الشاب دارتانيان بالأزرار الماسية كاملة العدد وسلمها الى حبيبته مدام بونانسييه . فأعطتها هذه الى الملكة . فظهرت بها فى الحفلة . وفشلت محاولة الكاردينال للانتقام منها .

على أن اعوان الكاردينال لم يلبثوا حتى اختطفوا مدام دى بونانسييه بمعاونة زوجها الشيخ الذى نقم عليها حبها لدارتانيان وأغراه عطاء الكاردينال أيضا . فكاد دارتانيان يجن من الحزن عليها . وعاد يبحث عن اصدقائه الفرسان الثلاثة الذين كان قد خلفهم فى طريقه الى لندن . ليساعدوه فى البحث عنها

* * *

غادر دارتانيان باريس للبحث عن صديقته مدام بونانسييه خياطة الملكة بعد ان اختطفها اعوان الكاردينال ريشيليو انتقاما منها لافسادها خطتهم لفضح علاقة الملكة بدوق بكنجهام . ولكن دارتانيان لم يعثر على اثر لصديقته . برغم المساعدات التى قدمها له زملاؤه - اتوس واراميس . وبورتوس . ثم حدث أن تعرف الى اللادى دى ونتر فأعجب بها برغم اعتقاده انها من اعوان الكاردينال . وفى خلال زياراته المتعددة لها أغرمت به وصيفتها الحسناء كيتى . وما لبث قليلا حتى كاشفته بحبها له . وبأن اللادى لاتحبه بل تحب الكونت دى وارد . وتغرى هذا بقتله انتقاما منه لأنه لم يقتل اللورد دى ونتر فى مبارزته له . فحرم ابنها بذلك من ميراث كبير !

واستطاع دارتانيان بمساعدة كيتي ان يستولى على خطابات اللادى الى الكونت ، وان يرد عليها هو منتحلا شخصية الكونت ، ثم يقابلها باسم هذا فى حلوة بمعرفتها المظلمة ويحصل منها على خاتمتين فيما بعد انه كان لزميله اتوس ومنحه لامرأة احبها فيما مضى ثم قابلها بعد ذلك باسمه الحقيقي وصرح لها بحقيقة ماحدث . فكادت تجن من الغيظ وقامت بينهما معركة انتهت بوقوفه على سر خطير هو وجود وشم يمثل زهرة الزنبق على كتفها دلالة على الحكم عليها فى إحدى الجرائم ، وكادت تقتله بالخنجر لولا مسارعته الى مغادرة غرفتها

وسافر دارتانيان بعد ذلك مع زملائه الفرسان الى مدينة لاروشيل ، ضمن الجيش الذى أرسله الكاردينال لحصارها والاستيلاء عليها . وفى الوقت نفسه كان دوق بكنجهام قد استولى على جزيرة « ريه » الفرنسية بأسطوله البريطاني . فنشبت الحرب بين فرنسا وانجلترا ، واصيب الانجليز بخسائر فادحة اضطرتهم الى اخلاء الجزيرة ، فتفرغ الفرنسيون لحصار لاروشيل . وعهد الكاردينال ريشيليو الى اللادى دى ونتر فى التسلل الى لندن لتقابل دوق بكنجهام وتنذره بأن شرف الملكة التى يحبها بل حياتها ايضا سيكونان فى خطر ان لم يعدل عن تنفيذ الخطط الحربية التى أعدها لغزو فرنسا ، كما تعهد الكاردينال للادى باطلاق يدها فى الانتقام من دارتانيان وصديقته مدام بونانسييه التى كانت قد زج بها فى السجن ثم نقلت منه بسعى الملكة الى دير منعزل .

وفى اثناء الحصار تعرض الفرسان الثلاثة وزميلهم دارتانيان لاخطار عدة كادت تودى بحياتهم بتدبير اللادى دى ونتر ، ثم اتفقوا على ارسال خطاب الى اللورد دى ونتر كشفوا فيه عن شخصيتها الموسومة بالاجرام وزيف ادعائها الانتساب الى أخيه بدافع الطمع فى ميراثه ، كما ارسلوا خطابا الى الملكة ضمنوه ان هناك مؤامرة لاغتيال دوق بكنجهام . فكانت النتيجة ان قبض على اللادى عند وصولها الى انجلترا بأمر اللورد دى ونتر حيث زج بها فى سجن إحدى القلاع هناك . ولكنها استطاعت الفرار من سجنها بواسطة ضابط شاب ، كما أغرت هذا الضابط نفسه باغتيال دوق بكنجهام فى الوقت الذى ابحرت فيه هى الى بور تسموث لتعود الى فرنسا من هناك . وقد تمكن الضابط الشاب من اغتيال الدوق بينما واصلت اللادى رحلتها حتى وصلت الى « بيتون » بفرنسا حيث كانت مدام بونانسييه فى دير هذه البلدة . فقابلتها هناك بوصفها صديقة لدارتانيان بعث بها لانقاذها ، ثم قتلتها بالسم وغادرت الدير هاربة فى الوقت الذى شعرت فيه بوصول دارتانيان وزملائه الى الدير فلم يدركوا المسكينة إلا جثة هامدة ، ولكنهم تمكنوا من القبض على اللادى حيث اقتصوا منها باعدامها ضربا بالسيف وألقوا جثتها فى النهر .

شخصيات الرواية

مازاران : وزير فرنسا الكردينال ، وزوج الملكة الوالدة بعقد سرى .

الملكة آن :الملكة الوالدة ، أم لويس الرابع عشر الطفل .

دارتانيان : ملازم الفرسان بالقصر الملكى ، شجاع جدا .

بورتوس : من الاعيان ، عملاق ، قوى البنية ، طيب القلب ، محب للمظاهر ، بطيء الفهم .

أتوس : الكونت دى لافير ، سليل أسرة نبيلة ، مثال الأرستقراطية والنزاهة والأنفة .

راؤول : ربيبه وابنه بالتبنى . فيكونت براجيلون ، وسيم وشجاع ونبيل .

أراميس : شيفالييه ديربلاى .. دخل سلك الرهبنة ، ولكنه شجاع ماكر ، مؤمن بالمبادىء التحررية المعارضة لسلطان القصر .

الدوق أورليان : عم الملك لويس الرابع عشر وعميد الأسرة المالكة الفرنسية .

الدوقة دى لونجفيل : سيدة حسناء كانت عشيقة لأراميس وهو فى الدير .

موردانت : انجليزى أمه فرنسية ، قتلها الفرسان الأربعة منذ عشرين سنة ، وهو يبحث عنهم ليقتلهم انتقاما .

الملكة هنرييت : عمة الملك ، وملكة انجلترا ، وزوجة شارل الاول .

شارل الاول : ملك انجلترا الذى ثار عليه البرلمان بقيادة كرمويل وحوكم واعدم .

جرسلو : ضابط انجليزى عهدت اليه حراسة الملك الأسير .

الكردينال مازاران

فى حجرة فسيحة من قصر الكردينال ـ الذى تغير اسمه فيما بعد وصار القصر الملكي « باليه رويال » ـ جلس رجل معتمدا بوجهه على راحتيه ، ومن خلفه مدفاة كبيرة تتوهج فيها النيران ، وامامه مائدة مثقلة بالأوراق الكثيرة .

وإن من يرى مافى تلك الحجرة من فرش وزخارف حمراء ، ويحس ذلك السكون المطبق الذى يحيط بها ، حرى أن يحسب نفسه فى حضرة وزير فرنسا العظيم الكردينال ريشيليو . ولكن ليس الأمر كذلك واسفاه ، فما هذا الجو ، وما هذا الرجل إلا ظل الكردينال ، وما شبحه إلا خليفته مازاران ، ذلك الايطالى البخيل الذى يكرهه الشعب الفرنسى ، وإنه في هذه اللحظة شاعر بما يكتنفه من كراهية ، لولا حظوته لدى الملكة الوصية على العرش حتى لقد عقدت زواجها منه سرا واستوزرته ، فجمع في عداء النبلاء ، ثم زاد على ذلك بتحدى كبار رجال القضاء والاعتداء على سلطاتهم . أما الشعب فقد أثقل كاهله بالضرائب الباهظة .

وقد جرت هذه السياسة الحمقاء التى جرى عليها مازاران أسوأ النتائج فى موقف طبقات الأمة من العرش ، وهرع التجار متذمرين ذات يوم من يناير الى دوق اورليان عم الملك الغلام واستصرخوه لالغاء ضريبة جديدة غير مشروعة فرضت عليهم . وبعد أربعة أيام كانت الملكة الوصية على العرش فى طريقها الى الصلاة فى كنيسة نوتردام فتبعتها جموع النساء صائحات فى طلب العدل ، فشمخت الملكة الوصية بأنفها ، وتحصنت بخيلائها ، ومضت فى طريقها كأنها لاتحس لهن وجودا . وفى عصر ذلك اليوم اجتمع مجلس الوزراء وقرر وجوب المبادرة بتعزيز هيئة العرش ، ولهذا رؤى دعوة البرلمان للاجتماع فى صباح اليوم التالى

وفى مساء ذلك اليوم الذى بدأنا الكلام بتصويره ، خف الملك الذى لم يجاوز العاشرة من عمره ـ متعللا بالتوجه الى كنيسة نوتردام لصلاة الشكر لابلاله من الحصبة ـ فاتخذ لنفسه موكبا من الحرس السويسرى والمشاة والفرسان ، وقد رتب هؤلاء جميعا على المنافذ المحيطة بالقصر ثم دخل قاعة البرلمان وأملى بنفسه لاتأييد الضرائب الأخيرة فحسب ، بل ستة قوانين أخرى تتنافس فيما بينها أيها أشد وطأة وادعى للخراب والافلاس الشعبى . فاذا بالمستشار بروسل ينهض فى جراة وشجاعة ويعلن الاحتجاج على تسخير الملك الطفل فى الضغط على حرية أعضاء البرلمان .

وخرج الملك المظفر من البرلمان الى القصر فلم ترتفع من الجموع هتفة واحدة لتهنئته بالشفاء ، بل قوبل بوجوم اجماعي لاشك في دلالته ، ثم ارتفعت فجأة هتافات مدوية :

– ليسقط مازاران ! ليحيى بروسل !

لهذا صدرت الأوامر الى رجال الحرس السويسرى وحرس الملك ان يظهروا الحزم ويطوفوا بالشوارع فى داوريات ..

ومابدأت هذه الداوريات العدائية حتى اتجه سر تجار باريس الى الباليه رويال واعلن انه ما لم تقف هذه المظاهرات العسكرية المثيرة ، فستكون باريس على بكرة ابيها شاكية السلاح دفاعا عن حرية اهلها ..

وشرع أصحاب الشأن يتداولون في هذا الانذار ، وإذا بضابط من ضباط الحرس يدخل القصر ممزق الثياب ، يسيل دمه على وجهه ، فان الجماهير قد استثارتها رؤية رجال الحرس المسلحين ، فقرعوا النواقيس ، واقاموا المتاريس . وقد تمكن ذلك الضابط من القبض على واحد من أفراد الشعب الثائرين وامر جنوده بشنقه حتى الموت فى أعلى شجرة فى الطريق . وهم الجنود بتنفيذ ذلك الأمر لولا أن خرج عليهم جمع كثيف من سوقة باريس فرجموا الجنود بوابل من الحجارة وانهالوا عليهم بالعصى الغليظة ، حتى انقذوا أسيرهم فنجا بحياته . واختفى في بيت وتحصن ببابه ، فدهمه الجنود ، غير أنهم لم يعثروا لفريستهم على أثر . فرجع الضابط وجنوده الى القصر ليرفع تقريره عن الحادث الى مقام الملكة ، وقد طاردهم الثوار حتى مزقوا ثيابهم وأثخنوهم بالجراح .

وبادر الكردينال مازاران الى اذاعة بيان على الشعب فحواه أن الطوابير لم يكن القصد منها إلا اداء مراسم الاحتفال ، ثم بادر ايضا بعد ذلك بسحب الجنود من الشوارع ، حتى إذا كان المساء لم يكن لهم أثر إلا فى المواقع المحيطة بالقصر .

هذا هو الموقف فى اللحظة التى فاجأنا فيها الكردينال غارقا فى حجرة مكتبه فى الهموم والأفكار . وفجأة رفع رأسه وقطب حاجبيه كمن اعتزم أمرا وحدق فى المزولة التى تبين الوقت فتبين أن الساعة تقارب العاشرة ، فتناول صفارة أمامه ونفخ فيها مرتين ، فانفرجت الستائر عن باب خفى انفتح وبرز منه رجل فى بزة سوداء هو خادمه « برفوان » فقال له الكردينال دون أن يلتفت اليه :

– من من ضباط حرس الفرسان هنا ؟

– الملازم دارتانيان .

– إيتنى بزى حرس الفرسان وساعدنى على ارتدائه ..

وماهى إلا لحظة حتى كان الكاردينال قد لبس ذلك الزى ، فدعا اليه دارتانيان ، فاذا رجل يشارف الأربعين من عمره ، ربعة القوام ، متين التكوين ، حاد النظرات ، له لحية سوداء وشعر اشهب دب اليه المشيب ، وتلوح عليه امارات الذكاء ، فرمقه الكردينال بنظرة فاحصة لم يطرف تحت وقعها ، وقال :

- ستصحبني ياسيدى فى زيارتى لمواضع الجنود حول القصر ، فهل تحسب فى الامر خطرا ؟ فالشعب فيما يقولون متمرد .

- ان زى حرس الفرسان له من الهيبة والاحترام ما يحول دون وقوع أى حادث ، وحتى إذا لم يكن الامر كذلك ، ففى وسعى إذا كان معى ثلاثة فرسان ان اركن مئات من الرعاع الى الفرار .

- إذن هيا بنا ولنصحب معنا ثمانية على سبيل الاحتياط .

وما انقضت عشر دقائق حتى كانت الكوكبة قد خرجت من باب سرى الى الشوارع المقفرة ، التى يعكر صمتها طلقات البنادق المتقطعة من بعيد ، فمروا للتفتيش باكثر من موقع ، حتى وصلوا الى موقع يشرف عليه ضابط مسن ، اسمه « جيتو » اختلى به « مازاران » وراح يسأله عن معلوماته بوصفه من اقدم رجال البلاط عن « دارتانيان » ومدى الاعتماد عليه ، فأجابه قائلا

- إذا اردت الشجاعة ، فهو جندى متمرس بالحرب ، صعب المراس ، متفان فى اداء واجبه .

- ليست الشجاعة كافية ، فخبرنى عن مهارته وسعة حيلته .

- ليس لى بهذا علم ، وانما علمه عند السيد دى روشفور ، فهو الذى خبر دسائس البلاط فى عهد ريشيليو ، وعنده ولاشك الخبر اليقين عن حقيقة الخدمات التى اداها دارتانيان للكردينال ولاتنس ان الكردينال كان سخيا .

فشكره مازاران وانصرف وقد فهم التعريض المقصود من تذكيره بكرم الكردينال ريشيليو ، فلما لحق بدارتانيان تناول ورقة وقلما فكتب كلمات ، ثم اعطاه إياها قائلا :

- احمل هذا الأمر الى سجن الباستيل ، وإيتنى بالشخص الذى سيسلمونه اليك فى عربة مقفلة عليها حراسة مشددة جدا ، واحذر ان يفر السجين من بين يديك

* * *

وصل دارتانيان الى الباستيل فى منتصف الساعة التاسعة ، فما ان علم مدير السجن انه موفد من قبل مازاران حتى بادر الى استقباله بكل حفاوة ، ودعاه الى تناول العشاء معه ، ولكن دارتانيان اعتذر عن ذلك وأشار الى كلمة « عاجل جدا »

المكتوبة على المظروف ، فقام المدير من فوره وكلف اركان حربه بانزال السجين رقم ٢٥٦ .

وشعر دارتانيان برجفة تعتريه لسماع صوت المفاتيح الضخمة ، وتشبث بركاب جواده وهو يتطلع الى الأسوار الضخمة والقضبان الحديدية المخيفة . ثم رن صوت ناقوس ، فتركه المدير قائلا :

- إنهم يدعونني لتوقيع أمر خروج السجين . فالى اللقاء .

وبعد لحظة قصيرة ظهر السجين على باب السجن ، فما ان رآه دارتانيان حتى استولت عليه دهشة عظيمة ، أما السجين فاسرع بالصعود الى المركبة المقفلة دون أن يبدو عليه انه عرف دارتانيان ، فصعد دارتانيان الى جواره زيادة في الاحتياط ، وأمر زملاءه وجنوده أن يكونوا على حذر وهم محيطون بالمركبة ، وأمر السائق بالاسراع الى الباليه رويال جهد مايستطيع .

وما أن تحركت المركبة حتى انتهز دارتانيان فرصة الظلام السائد فيها وارتمى على عنق السجين ، وهكذا تعارف الصديقان القديمان ، وأخذ دارتانيان يسأل روشفور ، الذى كان قد ظنه ميتا وهو دفين في الباستيل لايعرف له خبر ، أخذ يسأله عن السبب في سجنه هذه المدة الطويلة ، فاجابه

- اتريد الحقيقة ؟

- طبعا .

- اعلم إذن أنني لاأعرف السبب .

- اتلتزم معى انا جانب الحذر يارشفور ؟

- ان السبب الرسمي الذى برروا به سجنى هو اننى سارق من قطاع الطريق الذين يسطون على المارة تحت جنح الليل .

- انت محق إذن ، فمستحيل أن يكون هذا هو السبب الحقيقى فى اعتقالك . ولعلك ستعرف بعد قليل حقيقة ذلك السبب .

- لقد ذكرتني ماأوشكت فرحة اللقاء أن تنسينيه ، فالى أين انت ذاهب بى الآن ؟

- الى الكردينال مازاران .

- وماذا يريد مني ؟

- لاأدرى ، مادمت لم اعلم حين حضرت الى السجن اننى مكلف باحضارك أنت بالذات .

- مستحيل أن تجهل ذلك وانت ذو الحظوة !

- انا ذو الحظوة ؟ كلا ياعزيزى الكونت . فاننى ابعد عن الحظوة مما كنت حين التقينا فى « منج » منذ اثنتين وعشرين سنة واأسفاه !

- ولكنك كلفت بهذا الأمر ؟
- لأنني كنت موجودا بالمصادفة المحضة في نوبة الحراسة بقاعة الانتظار ، فكلفني الكردينال بهذه المهمة كما يكلف اى انسان آخر . ولازلت الى اليوم كما كنت منذ عشرين سنة تقريبا ملازما فى حرس الفرسان .
- احمد ربك انك لم تصب بمكروه ، فتلك وحدها نعمة جزيلة .
- ولعلك ياعزيزى الكونت تذكرنى إذا عاد اليك سلطانك .
- اجل وعهد آل روشفور . ولى عليك مثل ذلك .
- اتفقنا ، وهاك يدى .
- وبهذه المناسبة ، كيف حال أصدقائك ؟
- أى أصدقاء ؟
- اتوس ، وبورتوس ، واراميس . هل نسيتهم ؟ كيف هم ؟
- لاأدرى !
- أحقا ؟
- حقا ! وكيف حال بلانشيه تابعك القديم ياكونت ؟
- لقد اتخذ محلا لبيع الحلوى في شارع اللونبار .
واوقف دارتانيان العربة ، فعجب روشفور وسأله عن السبب فقال :
- لقد اوشكنا ان نصل ، ولااحب ان يرانى احد خارجا من عربتك ، لانى أريد الا يعرفوا أن بيننا أى تعارف .
- معك حق ..
وركب دارتانيان جواده وتقدم كوكبه الفرسان المحيطة بالعربة ، وما مرت خمس دقائق حتى وصلوا الى فناء الباليه رويال . فقاد دارتانيان أسيره صاعدا به السلم الكبير ومخترقا قاعة الانتظار ، فلما علم مازاران بوصولهما قال لحاجبه :
- ادخل السيد دي روشفور ، واطلب الي السيد دارتانيان ان ينتظر ، فاني لم افرغ منه بعد .
ووقع هذا الكلام وقوع القطر على ارض قفر حين بلغ مسامع دارتانيان ، فقد مضت مدة طويلة لم يشعر فيها أن أحدا بحاجة اليه .
ودخل روشفور على مازاران ، واقفل دونهما الباب ، فوجد روشفور أن الكردينال يفحصه بنظراته . ويظهر انه رأى كيف نالت سنوات السجن الخمس من هذا الشيخ الذى كان أقرب المقربين الى ريشيليو ، فوقع فى وهمه أنه لايصلح لشيء .
وبعد لحظة صمت قصيرة تناول مازاران خطابا مفتوحا فقدمه الى روشفور وسأله :

- لقد عثرت بهذا الخطاب الذي تقدمت به حنالنا إطلاق سراحك . فهل انت نزيل السجن ياكونت ؟
فانتفض روشفور لهذا السؤال ، وقال
- ظننتك ياصاحب النيافة خير من يعلم هذا الأمر .
- انا ؟ مطلقا ! ففي الباستيل عدد كبير من الناس لاادرى حقيقة ذنبهم ، وهم فيه من أيام الكردينال ريشيليو ، واجهل معظم اسمائهم . فاعذرني إذا جهلت موضوعك .
- ولكن موضوعى له صفة خاصة ياصاحب النيافة ، فقد قبض على بأمر من نيافتكم شخصياً ونقلت ايضا بأمر نيافتكم من سجن شاتيليه إلى الباستيل .
- لقد تذكرت الآن . الست قد رفضت في زمن مضى ان تقوم برحلة معينة إلى بروكسل بأمر الملكة ؟
- آه ! هذا إذن هو السبب الخفي ؟ لقد كلت راسى في التنقيب عنه هذه السنوات الخمس فما عثرت له على اثر .
- انى لم اقل لك إن هذا هو السبب في اعتقالك . ولكني سألتك فقط إذا كنت قد رفضت تلك الرحلة لأجل الملكة ، وقمت بها من اجل السيد دى ريشيليو ؟
- وبالضبط لأننى كنت في خدمة الكردينال ريشيليو ، لم يسعنى ان اقوم بخدمة الملكة !
- ان الملكة لم تفهم هذه التأويل ، وظنتك متعمداً تحديها ، فاسرتها لك حتى مات الكردينال .
- وما دمت قد حبست خطأ ...
- طبعاً طبعاً . كل هذا يمكن تسويته ولاسيما انك ذو دراية بأمور معينة . فانا - او بالأصح الملكة - في حاجة إلى اصدقائك المخلصين الذين خدموا إلى جانب الكردينال ريشيليو .
- ولكن الكردينال ريشيليو كان يعرف كيف يصطنع الأتباع المخلصين ، فقد كان كريماً .
- ولن تكون الملكة أقل كرما من الكردينال . فاين هؤلاء الأصدقاء ياسيدى الكونت ؟
- ان احدهم ببابك في هذه الساعة ياصاحب النيافة .
- من هو ؟
- السيد دارتانيان
فأحسن مازاران تمثيل الدهشة الشديدة وصاح باستنكار :
- هذا الفسقونى ؟

- ان هذا الفسقوني كما تسميه ياصاحب النياقة استطاع ان ينقذ ملكة وان يبين لريشيليو انه ليس إلا طفلا في السياسة واللباقة والحذق والكياسة .
- حدثني بشيء من ذلك ياسيدي العزيز .
- ذلك عسير ياصاحب النيافة .
- إذن سيحدثني هو بطرف من ذلك التاريخ .
- وهذا ايضا اشك فيه ياصاحب النيافة فالسر ليس سره ، بل كما قلت لك سر ملكة عظيمة .
- وهل قام بهذه الأعمال المجيدة منفرداً ؟
- بل كان معه أصدقاء ثلاثة . وكان الاربعة كأنهم رجل واحد . لهم راس واحد وقلب واحد .
- لقد أثرت فضولي فهلا اشبعته ؟
- سأقص عليك حكاية كحكايات الاساطير . كانت في زمن مضى ملكة عظيمة على عرش دولة من اعظم الدول . وكان الوزير يكرهها كثيرا . وجاء إلى بلاطها يوما سفير شجاع غني انيق . افتتنت به جميع النساء ، واحبته الملكة فأهدته قلادة ثمينة لانظير لها من جواهر التاج . كان زوجها الملك قد أهداها اليها . فأوعز الوزير إلى الملك ان يطلب إلى الملكة التزين بتلك القلادة في حفلة راقصة كان في النية إقامتها بعد أيام . وكان السفير المعشوق قد رحل بالقلادة إلى بلاده البعيدة عبر البحر . فأيقنت الملكة بالهلاك وافتضاح امرها . بيد أن اربعة رجال بواسل استطاعوا انقاذها . فرحلوا لاستعادة القلادة . وعلم الوزير نبأ سفرهم ، فرصد لهم في طريقهم نفراً من رجاله ليحولوا دون وصلهم إلى غايتهم ، فسقط ثلاثة منهم جرحى . وأفلت رابعهم فعبر بعد ان قتل من أراد اعتراضه . واسترد القلادة وعاد بها إلى الملكة فتزينت بها في اليوم الموعود ، وردت كيد الوزير إلى نحره . فما قولك ياصاحب النيافة ؟
- ياله من عمل مجيد !
- واني اعرف على غراره عشرات من هذه الاعمال .
- وهل كان دارتانيان من هؤلاء الأربعة ؟
- لقد كان قائد العملية .
- ومن الثلاثة الآخرون ؟
- اسمح لي ياصاحب النيافة ان اترك مهمة ذكر اسمائهم للسيد دارتانيان فلست اعرف إلا اسماءهم المستعارة .
- اتحاذرني ؟ اعلم اني بحاجة اليهم واليك .
- لنبدأ بي أنا ، مادمت قد أحضرتني من سجني فماذا تريد ان تصنع بي ، وفيم تريد ان تستخدمني ؟

ـ ستكون موضع الثقة . فتذهب الى فانسين حيث سجن السيد دى بوفور ، فتتولى حراسته والتحفظ عليه .
ـ هذا مستحيل ياصاحب النيافة ، فهو من أصدقائى ، او بالحرى انا من أصدقائه . فهل نسيت أنه هو الذى ضمننى لدى الملكة ؟
ـ وبعبارة أوضح ، أنت من حزب بوفور
ـ ليس لى حزب . ولكن أرجوك أن تستخدمنى فى غير ذلك الأمر ، ولو كلفنى ذلك التجوال والسفر المستمر .
ـ أتحسبك لاتزال فى ميعة الشباب ؟ انك فى سن تحتاج فيها الى الراحة قبل كل شىء .
وصفق مازاران فدخل حاجبه ، فكتب سطرين على ورقة وامره بتسليمها لبعض الخدم ، ثم أومأ رأسه الى روشفور بالسلام إيذانا بانتهاء الزيارة ، فانحنى روشفور باحترام وقال :
ـ أرى انهم عائدون بى الى الباستيل ؟
ـ يالك من ذكى !
واقتيد روشفور من الباب السرى ، فلم يمر بقاعة الانتظار التى فيها دارتانيان ، ووجد العربة التى احضرته من السجن فى انتظاره ، فركبها وقد أزمع فى نفسه أمرا .

خاتم الملكة

بقي مازاران في الحجرة وحيدا مع حاجبه ، وظل صامتا يفكر لحظة ، ثم أمر حاجبه أن ينير له الطريق لانه يريد الذهاب لدى الملكة . فاضاء الحاجب « برنوان » شمعدانا وتقدمه عن طريق ممر سرى يوصل بين مكتب مازاران وجناح الملكة . فلما وصل الى باب مخدعها تكفلت الوصيفة باعلان الملكة بحضوره ، وكانت الملكة في مصلاتها مع ابنها الملك الغلام لويس الرابع عشر . فلما سمع الملك الغلام الوصيفة تعلن مقدم الوزير ، تجهم وجهه وسأل أمه :

– لماذا يحضر هكذا بغير موعد سابق ؟

فاحمر وجه الملكة قليلا وقالت :

– ينبغي في مثل الأوقات العصيبة التى نجتازها ان يكون الوزير الأول على اتصال دائم بالملكة ، بدون أن يثير حضوره الفضول في دوائر البلاط .

وفي هذه اللحظة دخل مازاران ، فنهض الملك الصبي وتناول كتابه فذهب الى المنضدة ووضعه فوقها ، ثم ظل واقفا الى جوارها ، كي يضطر الوزير الى أن يظل واقفا ، ولم يرد على تحية الوزير الا بايماءة يسيرة .

وحاولت الملكة ان تقرأ على وجه الوزير سبب هذه الزيارة ، وهو الذى تعود الا يزورها في مخدعها إلا بعد ان يأوى جميع أهل القصر الى فراشهم ، واشار الوزير للملكة من طرف خفى ، فقالت للوصيفة

– لقد حان وقت نوم الملك .

فخرج الملك دون ان يحيى الوزير ، واغفل متعمدا أن يقبل والدته . وراحت الملكة تعتذر للوزير عن هذه الجفوة الظاهرة ، مؤكدة له تقديرها وولاءها ، ثم سألته عما هناك ، فابتسم ابتسامة كالحة وقال

– يظهر اننا سنضطر عما قريب الى الافتراق . اللهم إلا اذا بلغ بتعلقك بى أن ان تتبعيني الى ايطاليا .

– اتمزح ياسيدى ؟ !

– لست مازحا واأسفاه ! الست انت التى ابتسمت منذ بضعة أيام للدوق اورليان عم الملك حين قال لك : « ان صاحبك مازاران هو حجر العثرة في سبيل الوئام ، فأبعديه يستقم كل شيء » ؟

– وماذا كان بوسعى ان اصنع إلا الابتسام ؟ ولكنك تعرف انني في اعماق نفسي عدوة لأعدائك . فكم من شريف مثل بوفور اعتقلته لانه جاهرك العداء .

- لايكفي ان يكون اعداءك . بل يجب أيضاً ان يكون اصدقاؤك اصدقائي .
- ومن أين لي الأصدقاء وأسفاه ؟
- فتشي في أعماق ذاكرتك عمن خدموك وقت الشدة ، ونصروك على ريشيليو ، الا تذكرين دارتانيان ؟

فاوجست الملكة ان يكون دارتانيان قد باح بالسر ، فقالت .

- أذكر هذا الاسم . فهو ضابط في حرس الفرسان .
- أهذا كل شيء ؟
- يبدو لي انك تستجوبني .
- ان الوقت عصيب ياصاحبة الجلالة . ولست اطلب شيئاً سوى ان تعينيني باصدقائك القدماء لانقاذ للموقف .
- لقد ظننت ان الخطر قد انتهي باعتقال بوفور
- كلا فهناك الأمير كونديه .
- قاهر روكروي وبطل الحروب المظفر ؟ !
- مهلا مهلا . وهناك بعد الامير كونديه الدوق أورليان .
- عم الملك وعميد الأسرة المالكة ورأس النبلاء ؟!
- كلا ! بل المتآمر الخائن . ولست أكلف جلالتك التدخل بل يكفي ان تخبريني بأسماء الشجعان الاربعة الذين اعادوا إليك قلادتك التي كانت في حوزة دوق باكنجهام .

... فلو ان عفريتاً شق الأرض وبرز فجأة في فضاء الحجرة لما كان له الوقع الصاعق الذي كان لهذه العبارة في نفس الملكة ، ولكنها كتمت شعورها وقالت :

- لقد نسيتهم ولم أكافيء دارتانيان الذي ذكرته الآن إلا بتقبيل يدي وبهذا الخاتم الماسي الذي تراه في يدي ، فقد باعه فيما اظن في لحظة ضيق مالي . وعلمت أن ذلك الضيق كان سببه حاجته إلى إيفاد رسول يحذر الدوق باكنجهام من مؤامرة لاغتياله ، فاشتريته من المشتري ، وارجو منك الآن أن تعيده اليه . وأوصيك باستخدامه ، فهو رجل مخلص وقادر . هل تريد شيئاً آخر ؟
- كلا ياسيدتي
- إذن اتركني فاني بحاجة الى الوحدة والراحة .
- الا تأذنين ان أعود فيما بعد ؟
- غداً . فاني الليلة متعبة

فتناول مازاران يدها فقبلها برشاقة ثم انصرف .

* * *

عاد الكاردينال مازاران كما ذهب عن طريق الممر السري ، فلما صار في حجرة مكتبه فتح الباب المفضي إلى حجرة الانتظار فوجد دارتانيان قد استولى

غلبه النعاس فوق مقعد هناك ، فأيقظه متلطفاً معه ثم صحبه إلى حجرة المكتب ، وتلفت دارتانيان فلم يجد لروشفور اثراً ، لم يجرؤ أن يسأل عن خبره . وخاطبه مازاران قائلا :

ـ لقد كان رأيى فيك على الدوام انك رجل شهم باسل .

فقال دارتانيان فى نفسه :

ـ ولكنى اراك ياصحبى قد انظرتنى طويلا قبل ان تكاشفنى بهذا الراى الجميل ولكن ذلك الخاطر الساخر لم يحل بينه وبين اظهار الامتنان مما قاله الكردينال الماكر الذى استطرد قائلا :

ـ فقد حان الوقت للانتفاع بمواهبك ومزاياك .

فلمعت عينا المحارب القديم سروراً ، وقال

ـ مر ياصاحب النيافة تجدنى طوع امر نيافتك .

ـ لقد اتممت فى عهد الملك السابق أعمالا عظيمة ...

ـ انه لتطلف عظيم من نيافتكم ان تذكروا مساهمتى فى حروب ذلك العصر ووقائعه الحامية الوطيس .

ـ لست اعنى بلاءك فى الحرب ، فهو على خطره اقل قيمة من اعمال اخرى ادل على الشجاعة .

ـ لست أفهم ماذا يعنى صاحب النيافة .

ـ اعنى المغامرة ، انت فاهم طبعاً اى مغامرة اقصد .

ـ كلا للأسف

ـ يالك من كتوم . وذلك خير . لقد اردت مغامرة الملكة التى اشتركت فيها مع اصدقائك الثلاثة .

وسبق إلى ظن دارتانيان أن هذا فخ منصوب له لاستدراجه إلى إفشاء السر ، فاعتصم بالصمت فى اصرار ، واستطرد الكردينال .

ـ امستعد أنت ان تخدمنى بمثل ماخدمت الملكة ؟

ـ الملكة ياصاحب النيافة ؟ ماذا تعنى ؟

ـ الم تفهم اننى بحاجة اليك وإلى زملائك الثلاثة ؟

ـ اى زملاء ثلاثة ياصاحب النيافة ؟

ـ زملاء الزمن الخالى .

ـ فى الزمن الخالى ياصاحب النيافة لم يكن لى أصدقاء ثلاثة . بل خمسون . ففى سن العشرين يحسب المرء كل انسان صديقا .

ـ ان الكتمان مزية جميلة باحضرة الضابط . اما اليوم فلا حرج عليك من التصريح فالملكة نفسها تحلك من يمينك . وآية ذلك انها رخصت لى اريك هذا

الخاتم الماسي ولاشك انك تعرفه جيداً .
- صدقت ياصاحب النيافة ، فهذا خاتم الملكة .
- اذن ، فلا تكتمني شيئا ، فقد دعاك لخدمتي داعي الثراء العريض .
- لبيك ، فما احوجني لما تقول ، وقد اغفلت شأني زمانا طويلا .
- لن يستغرق اصلاح شأنك اكثر من اسبوع باذن الله ولكن أين أصحابك الثلاثة ؟
- لا أدري ياصاحب النيافة ، فقد افترقنا منذ سنوات وترك ثلاثتهم الخدمة العاملة .
- وكيف تهتدى اليهم ؟
- ذلك شأني ، وسأبحث عنهم حيث يوجدون !
- هذا شأنك فعلا ، فما شروطك ؟
- المال ياصاحب النيافة ، فذلك البحث يحتاج إلى نفقات .
- ياللشيطان ! الا حديث للناس غير النقود ولكن ثق اننا سنكفيك هذا الجانب من الموضوع . والمهم ان أربعتكم تكونون فى خدمتي . لقد اتفقنا على ذلك .
- إذا وافق أصدقائي ...
- وإذا لم يوافقوا ، هل لي ان أعتمد عليك ؟
- لم يسبق لي ان ابليت منفرداً بالعمل دونهم .
- اذهب إذن وفتش عنهم .
- وماذا أقول لهم كي يتبعوني بغير تردد ؟
- قل لهم انني أطلب اليهم أن يخدموني بالاخلاص نفسه الذى خدموا به الملكة .
- ياصاحب النيافة ، إذا وثق المرء بنفر من الناس ، فلا اقل من ان يطلعهم على نواياه اكثر مما تفعل نيافتكم .
- سنحيطكم بالموضوع فى الوقت المناسب ، اما الآن فاذهب وفتش عن أصحابك وهاتهم لخدمتي .
- ربما لم يكونوا فى باريس ، فأرحل إلى الأقاليم للبحث عنهم ، وأنا رجل فقير وللسفر نفقات باهظة .
- لا أريد ان يبدو عليك البذخ فى سفرك .
- مهما التزمت التقشف ، فلن يحتمل مرتبي المتجمد منذ ثلاثة اشهر نفقات الرحلة
- خذ إذن هذا الكيس لنفقات السفر .
وتلقف دارتانيان الكيس فوضعه فى جيبه بسرور ، واستمر الكردينال يقول

ـ ولا تنس أن تكتب لى كل يوم بأنباء خطواتك . وبهذه المناسبة ما اسم أصدقائك الثلاثة ؟

ـ الكونت دى لافير ، ولقبه الحبى أتوس ، والشيفاليه دى فالون واسمه الحبى بورتوس ، والأب دربليه . واسمه اراميس .

فابتسم الكردينال ، وودع دارتانيان بكلمات رقيقة ، فخرج دارتانيان بعد أن حصل على اجازة رسمية بخط الوزير ، ثم وقف فى فناء القصر تحت مصباح واخرج الكيس من جيبه ففتحه لينظر مافيه ، فاذا نقود فضية ، فاغتاظ ، وتذكر ايام ريشيليو التى كانت المعاملة فيها بالذهب .

وفى الوقت نفسه كان مازاران يفرك يديه مسروراً ، لأنه احتفظ لنفسه بالخاتم الماسى الثمين الذى أعطته اياه الملكة ليوصله إلى دارتانيان ، وقام فخبأ الخاتم فى بعض خزائنه . وأوى إلى فراشه ، فى الوقت الذى اتجه فيه دارتانيان إلى المنزة الصغيرة الذى يقيم فيه ، كى يريح جسمه ويستعد لمشاق السفر .

دارتانيان في الاربعين

لقد مرت بدارتانيان في العشرين سنة الأخيرة فرص كثيرة لم يقصر في انتهازها ، ولكن الظروف هي الى خانته . وقد اكتسب من أصدقائه الثلاثة بالمعاشرة معظم مزاياهم ، فأعطاه آتوس شيئاً من ابهته ، كما أعطاه بورتوس شيئاً من حميته وتوقد قريحته ، أما أراميس فكان قدوته في الأناقة والقيافة . والحق ان دارتانيان كان من ذوي الطبائع الطيبة السهلة الانطباع بالمعاشرة . فلو ان أصحابه الثلاثة ظلوا بجانبه لكان حرياً ان يغدو رجلا ممتازاً . ولكنهم غادروه ليسلك كل منهم طريقا مستقلا في الحياة . اما آتوس فانصرف إلى ضيعته الصغيرة التي ورثها بالقرب من « بلوا » . واما بورتوس تزوج سيدة ذات حسب ولقب . واما اراميس فترك الدنيا وانخرط في سلك الرهبان .

ولما كان صاحبنا دارتانيان ليس ذا نسب عال فيسنده نسبه ويشفع له في تقلد المناصب ، وهو ليس كذلك من ذوي الثراء فيدفعه ثراؤه في مدارج الرقي ، لهذا ظل كما كان منذ عشرين سنة ملازماً في حرس الفرسان ، والمرتبات قليلا ما تدفع بانتظام ، فما اكثر ما كان يستدين ولا يستطيع الوفاء بالدين ، لذلك قد استقر منذ سنوات في فندق العنزة الصغيرة ، وهو فندق نظيف متواضع تديره سيدة هولندية هجرها زوجها بعد أن سرق حليها ، ووجد عندها ما يناسبه من فراش متواضع وغذاء جيد في حدود الفقر .

وها هو دارتانيان يحمل كيس النقود الذي منحه إياه مازاران متجهاً إلى الفندق ، وإذا به يرى في الشارع زحاماً ولغطاً ، ولا سيما حول فندقه ، فقال في نفسه :

ـ ألعل فندق العنزة الصغيرة قد شبت فيه النيران ؟

فلما اقترب وجد الزحام غير مجتمع امام فندقه المحبوب ، بل أمام المنزل المجاور ، ورأى للناس ضجة كبيرة ، وفي أيديهم المشاعل ، وتبين على ضوء تلك المشاعل أردية الجند . فسأل عن جلية الأمر فقيل له ان رجلا من الاهالي قد هاجم على رأس عشرين من انصاره عربة مقفلة يحرسها جنود الكردينال ، واستطاع رجال الحرس أن يردوا الهجوم فتفرق المعتدون .واما رئيسهم فاختفى في هذا البيت ، وهم الآن بصدد تفتيشه .

وصعد دارتانيان حاملا شمعته إلى غرفته في الطابق الرابع ، وكان اول همه حين دخل الغرفة ان يضع الكيس في درج مكتبه العتيق ، ثم جيء له بعشائه

فصرف الخادم وجلس ليأكل . وبعد أن أكل بشهية استلقى على الفراش ليستغرق في النوم على عادته ، فهو ليس ممن يؤمنون أن هدوء الليل يساعد على أعمال الفكر . بل الليل عنده راحة ونعاس ، حتى إذا بدت تباشير الصبح قفز من فراشه في نشاط وراح يتمشى في الغرفة مستحثاً ذاكرته الكبيرة على استقصاء عناوين أصدقائه الثلاثة ، ولكن راحت جهوده في هذا السبيل عبثاً ، فاشتد غيظه من نفسه لأنه لا يدرى ما الوسيلة للبحث عن مجال اقامتهم .

وفى هذه اللحظة سمع صوت زجاج يتحطم فى نافذة غرفته ، فأسرع الى مكتبه من حجرة الحمام فاذا رجل يدخل من النافذة ، فحسبه لصا جاء يسطو على كيسه ، فهجم عليه وسيفه في يده ، فصاح الرجل يستعطفه

- لاتقتلني بحق السماء ياسيدى قبل ان تسمع مقالتي ، فلست لصا . بل أنا على العكس مواطن شريف وتاجر مستور واسمى .. ولكن رباه ! انت وربى السيد دارتانيان !

- وانت بلانشيه ! ولكن ماذا حدا بك ان تقفز على أسطح المنازل فى الفجر ، وفى شهر يناير أيها الرجل الشريف ؟

- قل لى ياسيدى عن مدى علاقتك بالسيد دى روشفور

- على أحسن مايرام . بل هو الآن من أعز أصدقائى منذ الأمس . ولكن ما الصلة بين روشفور ودخولك بهذا الشكل الى حجرتى ؟

- المسألة انني هاجمت العربة العائدة به الى الباستيل وانقذته فتمكن من الفرار فى أثناء اجتيازه للشارع أمام دكانى ، فقد أطل من العربة واستغاث معلنا اسمه ، ولولا أنه تصادف مرور داورية انضمت للحراس لما استطاعوا تفريقنا . وقد اضطررت للهرب فى البيت المجاور حيث تطوعت سيدة عجوز فى الطابق الخامس لاخفائى بين حشايا الفراش ، ثم فكرت فى الخروج عند الفجر فأوقعنى حسن الحظ بين يديك .

- لاتخش شيئا واجلس وسنتناول الآن طعام الافطار ثم ننظر فى تأمينك ، لأنك لو وقعت فى يد الحكومة لكان جزاؤك الشنق فى غير رحمة ولاشفقة .

واكل الاثنان بشهية عظيمة ولاسيما بلانشيه . فلما انتهى الأكل راى دارتانيان الفرصة مناسبة لسؤال بلانشيه عن عناوين أصدقائه ، فاذا به لايدرى عن هذا الأمر شيئا ، ولما راى اكتئاب دارتانيان لذلك الجهل قال له :

- ولكنى اعرف اين بازان خادم احدهم ، فهو الآن من خدام كنيسة النوتردام دى بارى ، وهو لاشك يعرف عنوان سيده .

وتناول دارتانيان معطفه وسيفه ، ثم سلم بلانشيه الى صاحبة الفندق الهولندية واوصاها ان تزعم انه أخوها الذى حضر لزيارتها من امستردام ، مستغلا اجادة بلانشيه للغة الهولندية ، ثم سار هو نحو كنيسة النوتردام دى بارى .

صعد دارتانيان درج الكنيسة . ثم خاطب خادما كان يقوم بعملية الكنس ، فسأله عن بازان فقال له انه يقوم بخدمة القداس في هذه اللحظة بمقصورة العذراء . فرح دارتانيان كثيرا بذلك التوفيق ، ثقة منه بأن المفاوضات مع بازان ستكون أسهل مايمكن . ودخل مقصورة العذراء فركع أمام الهيكل مباشرة حتى لاتغيب فريسته عن نظره . وكان هذا القداس من النوع القصير الذي ينتهي بعد دقائق . وطاف الكاهن على المصلين ليباركهم بوضع الصليب فوق رؤوسهم ، ومن خلفه بازان وقد تعلقت عيناه بالسماء . فلما صار قبالة دارتانيان جذبه من كمه فنظر اليه ثم انتفض كأنه ثعبانا ساما ، وابدى لدارتانيان جفوة لأنه غير راغب في اى شيء يعكر سلامه الراهن ويذكره بحياته القديمة . وحاول دارتانيان ان يتألف قلبه بادعاء التقوى والورع ، وأنه يبحث عن سيده أراميس الذي دخل الرهبنة ليجعله مرشده الأمين في طريق الخلاص . بيد أن بازان رفض ان يصدق هذا الزعم وصارحه بأنه إنما يسعى لاعادة مولاه الى عالم الدنيويات بآثامه ومطامعه ، واضاف الى ذلك أنه يجهل مقر سيده القديم كل الجهل . ثم ابتعد عنه بشكل يوحي بالتصميم والعزم .

وظل دارتانيان راكعا لم يفق من ذهوله من هذا الاخفاق . وإذا بأحدهم يمس كتفه بأصبعه فالتفت نحوه . فاذا به أمام الدوق روشفور . وعرف الدوق منه أن الذي أنقذه في الظلام هو بلانشيه . ثم سأله دارتانيان عن سر حضوره الى الكنيسة فقال :

– جئت لأقدم فروض الشكر لك على نجاتي .

– ثم ماذا ايضا . فلا اظن أن هذا هو السبب الوحيد في حضورك الى الكنيسة ؟

– ثم لأتلقى أوامر نائب المطران . والاتفاق معه على مايمكن عمله لازعاج مازاران وإغاظته . وربما خرجت من باريس للنزهة والاستجمام في أنحاء الريف .

– وأنا كذلك أنوى الارتحال الى الارياف ، بحثا عن اصدقائي الثلاثة . فانى اجهل عناوينهم ولاادرى كيف اهتدى اليهم .

– اصبر ثمانية أيام وسيكون في مقدورى أن ادلك عليهم .

– ثمانية ايام ؟ هذا كثير . فلا بد لي من الاهتداء اليهم في بحر ثلاثة ايام ابتداء من اليوم .

– هذا قليل . سيما ان فرنسا واسعة الأرجاء مترامية الأطراف .

– وداعا إذن . وارجوك أن تبلغ مازاران انه سيأتيه من الانباء بعد قليل مايدل على انني لم ابلغ من العمر عتيا .

وانصرف روشفور ، ثم تسلل دارتانيان خارجا . فكمن عند الناصية حتى يتعقب بازان حين خروجه من الكنيسة . وان هي إلا خمس دقائق حتى رأى بازان

خارجا يتلفت حوله ، ولكنه لم ير دارتانيان لانه كان مختبئا فى باب بيت ، ومشى بازان ودارتانيان يتبعه الى أن دخل بيتا برىء المظهر ، فدخل دارتانيان مقصفا مواجها للبيت وطلب اعداد شراب معين يستغرق تحضيره نصف ساعة ، وبهذا اتيحت له الفرصة أن يرقب البيت دون أن يثير الشبهات ولفت نظره فى المقصف غلام فى نحو الثانية عشرة تبدو عليه مخايل الذكاء والحيوية ، وتذكر دارتانيان انه رآه قبل عشرين دقيقة فى ملابس المرتلين بالكنيسة وراح دارتانيان يجاذبه الحديث حتى عرف منه انه يقوم من السادسة الى التاسعة صباحا يعمل المرتل فى مجموعة الشمامسة . ومن التاسعة الى نصف الليل يعمل خادما فى هذه الحانة . وفى هذه اللحظة شوهد بعضهم يقود جوادا الى باب بيت بازان وقد ألجم واسرج ، ثم خرج بازان من البيت ، فصاح الغلام :

- ها هو العريف على أهبة السفر .

فسأله دارتانيان إذا كان يعرف غاية العريف من رحلته هذه . فأجابه الشماس إنه لايدرى ، فأخرج له دارتانيان نصف ريال وعده به إذا استطاع تسقط الحقيقة ، فطار لب الشماس فرحا ، وانطلق فلم يغب إلا خمس دقائق ثم عاد الى دارتانيان متهلل الوجه ، ولكنه ظاهر الحذر فقال .

- لقد عرفت المطلوب .

- اين هو ذاهب ؟

- ارنى نصف الريال أولا . ثم دعنى انظر هل هو صحيح أم زائف ، ثم بعد ذلك اسلمك البضاعة .

وتناول الغلام القطعة الفضية وقال لصاحب الحان :

- اعطنا فكة للزبون يامعلم .

فلما راى المعلم يصرف له نصف الريال بغير تردد قال :

- لقد ذهب الى نوازى .

- وكيف عرفت ؟

- لم يكن الامر عسيرا ، فانى اعرف الحصان واعلم انه ملك للجزار الذى يؤجره لبازان بين الحين والحين . وأدركت ان القصاب لايؤجر جواده من دون أن يعرف هذه الرحلة . فسألت القصاب صاحب الحصان فقال لى أنه تعود السفر الى نوازى مرتين أو ثلاثا كل اسبوع .

- وهل فى نوازى دير للرهبان ؟

- دير كبير لليسوعيين .

فشكر دارتانيان الغلام وقيد اسمه وعنوان الحان فى مفكرته ثم انصرف الى فندقه مسرعا .

استقر عزم دارتانيان على الا يصل الى نوازى والشمس فى افق السماء خشية ان ينكشف أمره فانتوى ان يتخذ الليل له ستارا . ومعنى هذا أن امامه فسحة من الوقت طويلة قبل الرحيل ، فنوازى لاتبعد عن باريس الا بمقدار اربعة فراسخ على أكثر تقدير . لهذا انصرف بكليته الى الاهتمام بتناول وجبة غذاء دسمة وافرة ، ثم بدل ثيابه حتى لايفضحه زيه الرسمى . ثم تخير اطول واصلب سيف من سيوفه الثلاثة . حتى إذا كانت الساعة الثانية بعد الظهر أسرج جوادين وخرج من بوابة فبيت يتبعه بلانشيه في هيئة الخدم . ومرا على هذه الصورة برجال الحكومة الذين يملأون الشارع

فلما صارا على بعد فرسخ ونصف من باريس تبين دارتانيان انه تعجل الرحلة لهفة منه على العثور بصديقه فنزل بخان على الطريق ليستريح ويريح الجوادين . فوجد الخان مزدحما بجماعة يبدو على وجوهم أنهم من شرار الأوغاد ، وخطر له أنهم ماإجتمعوا على هذه الصورة إلا القيام بهجمة ليلية في بقعة مجاورة .

وفيما كان يحتسى قدح النبيذ سمع من ربة الخان اسما معينا لفت نظره ، هو اسم الدوقة لونجفيل فهذه السيدة من كبريات العقائل فى المملكة ، ومن أجمل نساء البلاط وهى شقيقة الأمير كونديه . ويشاع أن لها صلة بالأمير مارسياك، الابن الأكبر للدوق روشفو كول الشيخ ..

وفي هذه اللحظة مال بلانشيه على أذن سيده وقال له إنه لاحظ أثناء انزوائه في الاسطبل المظلم ان رجلا ملتفا بمعطف فضفاض دخل الاسطبل ومعه رجلان من هذه العصابة ، فلم يبصروه لأنه كان فى أشد اركان الاسطبل ظلاما ، واذا أحد الرجلين يقول لذى المعطف :

ـ إنه إما أن يكون في نوازى أو يصلها في هذه الليلة ، فقد رأيت خادمه فأجابه ذو المعطف :

ـ أمتأكد أنت ؟

ـ أجل ياسمو الأمير . فبماذا تأمر إذا وجدناه هناك ؟ فهو ليس رجل سهل المنال وربما عمد الى سيفه .

ـ تعمدون إذن الى سيوفكم ، وإن كنت أرى لو أصبتموه حيا . وهل معكم حبال لتقيدوه بها وكمامة لتسدوا فمه ؟

ـ لدينا ذلك كله .

ـ على بركة الله . وسأكون هناك لتوجيهكم .

ولما انتهى بلانشيه من رواية هذا الحوار قال إن الرجال الثلاثة خرجوا على اثر ذلك من الاسطبل ، فقال دارتانيان لبلانشيه .

ـ ومن يعنون بهذا الحديث ؟

ـ أواثق أنت أننا لسنا المقصودين به ؟ ان فى الحديث قرائن تنم على خلاف ذلك . فأنا الخادم . وأنت الفارس المخشى بأسه .
ـ على رسلك ياصاح ، فقد مضى الزمن الذى كان الأمراء فيه يتربصون بى ويعنيهم شأنى ويدبرون للايقاع بى . فاهدأ بالا .
وعل اثر هذا استأنف دارتانيان وبلانشيه ركوبهما . فلما قطعا فرسخا اخر اقترب بلانشيه من دارتانيان وقال له
ـ الا يرى سيدى فى هذه الناحية اشباحا تتسلل متزملة بالظلام ؟ اصغ ! يخيل الى انى اسمع وقع حوافر خيل
ـ يخيل الى فعلا أننى أرى اشباحا . اما وقع حوافر الخيل فكيف نسمعه والأرض مشبعة بماء المطر ؟ وى ! هذا صهيل الخيل ولكن ماشأننا بهذا ؟ انهم رفقة في سرى مثل سرانا فاكفف .
واستأنفوا سيرهم حتى بلغوا مشارف نوازى ، فرأوا بناء كبيرا فخما عرف فيه دارتانيان قصر الدوق لونجفيل . وقال بلانشيه :
ـ اني أعرف موقع الدير ، فهو فى الطرف الآخر من المدينة .
ـ أسرع أنت الى هناك ريثما أعيد إحكام السرج ثم عد الى بخبر الدير وهل ترى فى نوافذه نورا .
وبعد خمس دقائق كان بلانشيه قد عاد ، فقال لدارتانيان :
ـ هناك نافذة واحدة مضيئة فى الجهة التى تطل على الحقول .
واسرعا الى هناك . فاذا تلك النافذة الوحيدة وقد انطفأت أنوارها ، ثم سمعا لغطا ، وأقبلت سريتان من الفرسان ، عدة كل منهما عشرة فسدتا الطريق وقطعتا خط الرجعة على دارتانيان وبلانشيه ، فامتشق دارتانيان حسامه وكمن وراء جواده ، وقلده بلانشيه ، أما الأعداء فجردوا سيوفهم وتصايحوا
ـ ها هو ذا . لقد أدركناه .
فخاطبهم صوت عال أمر قائلا :
ـ لاتقتلوه .
ـ كلا ياصاحب السمو . اطمئن !
وحينئذ بدا لدارتانيان أنه قد آن له أن يشترك فى الحديث بصوت عال وبلهجة غسقونية قح :
ـ ماذا تريدون أيها السادة ؟ مامرادكم ؟
ـ فتصايح الجنود فى صوت واحد :
ـ ستعرف مرادنا عما قليل .
فصاح بهم الصوت الآمر

- كفوا عنه . ليس هذا صوته .
وصاح دارتانيان :
- اترى أهل نوازى بهم سعار ؟ حذار إذن أن تقتربوا منى ، فأول من يدنو منى سيخترقه سيفى ، وإن لى لسيفا طويلا .
واقترب منه قائدهم ذو الصوت الآمر ، فسأله فى استعلاء .

- ماذا تصنع هنا ؟
- وانت ، ماذا تصنع هنا ؟
- تأدب وإلا ادبناك ! فلئن رغبنا عن إعلان شخصنا إلا اننا نحرص على احترامنا كما ينبغى لمقامنا ومكانتنا .
- انت لاتريد أن تكشف عن شخصك لانك تقود عصابة تسطو على الناس فى جوف الليل . أما أنا فلا يحول بينى وبين إعلان اسمى مثل ذلك السبب .
- اقصر . مااسمك ؟
- سأقول لك اسمى لا لانك طلبته ، ولكن لتعرف أين تجدنى ياصاحب السمو او صاحب السيادة أو صاحب المجد او صاحب أى نعت تحب ان يناديك الناس به ، فاذا عرفت اين أكون سهل عليك أن تطلب لقائى لقاء الاكفاء فى اى زمان ومكان . هل تعرف السيد دارتانيان الملازم فى حرس فرسان الملك ؟
- أانت السيد دارتانيان ؟
- اجل ، ولااخالك إلا تعلم ان لدارتانيان قبضة من فولاذ وحساما كأنه لعاب المنون !
- لقد جئت إذن للدفاع عنه ؟
- عنه ؟ عن من ؟
- من تبحث عنه .
- يبدو لى أننى حين دخلت نوازى القيت بنفسى فى بحر الالغاز وتيه المعميات والاحاجى .
- تكلم . هل انت تنتظره هنا تحت النوافذ ؟
- انى لاانتظر احدا ولااعتزم الدفاع عن أحد سوى نفسى .
- هذا جميل . تفضل إذن من هنا واترك لنا هذا المكان !
- اترك هذا المكان ؟ ليس هذا يسيرا ، ولاسيما اننى اكاد اسقط إعياء ، وكذلك جوادى ، اللهم إلا إذا كنت تنوى ان تدعونى للعشاء والمأوى فى مكان قريب .
- يالك من وغد !
- صن لسانك يصنك ، والا رددت بذاءتك فى حلقك ملكا كنت او اميرا او مركيزا

او ماشئت .

فالتفت الرجل لرجاله وقال :

ـ هذا كلام لايصدر إلا عن غسقوني متهور ، فالرجل ليس ضالتنا المنشودة ، وقد ضاعت ليلتنا في غير طائل ، فهيا بنا ننصرف .

وانصرفوا فعلا تاركين دارتانيان وبلانشيه حيث هما تحت نوافذ الدير ، وقال دارتانيان :

ـ هل انت ايها الغبي أننا لم نكن المقصودين ، ومايعنيني الآن قبل كل شيء هو دخول هذا الدير ، فهيا نركب الى جهة الباب لنقرعه وليكن مايكون ، فلن ياكلونا على كل حال .

وركبا جواديهما وهما أن يسيرا ، وإذا بثقل يسقط على عجيزة جواد بلانشيه حتى كاد يقع على الأرض ، وصاح بلانشيه :

ـ لقد اردف رجل نفسه ورائي ياسيدى ! .

والتفت دارتانيان فرأى مصداق ذلك فامتشق حسامه وهم أن يهجم على ذلك الفضولي وهو يصخب بالسباب ، فقال الغريب

ـ رويدك ياعزيزى دارتانيان ، هذا انا اراميس ، اسرعا بربكما الى أقصى المدينة

فلما بلغا الطرف الآخر من البلدة دار بلانشيه الى اليسار كما أمره أراميس ، ثم وقف تحت نافذة مضيئة ، فنزل أراميس الى الارض وصفق بيديه ثلاثا ، ففتحت النافذة وتدلى منها سلم من الحبال ، فقال أراميس لدارتانيان :

ـ إذا اذنت بالصعود ياصديقي اسعدني ذلك كثيرا .

ـ وهل هذه هي وسيلة الدخول الوحيدة الى بيتك ؟

ـ متى تجاوزت الساعة التاسعة مساء لم يكن من ذلك بد ، فلوائح الدير غاية في الصرامة .

ـ إذن تقدمني حتى اصعد على هداك .

وصعد اراميس على سلم الحبال ، ووراءه دارتانيان ، فصاح بلانشيه

ـ قد يصلح هذا لسيدى أراميس ولك ، وربما لي انا ايضا ولكن هذان الجوادان كيف نصعد بهما على سلم الحبال ؟

فقال أراميس مشيرا الى مظلة للبهائم في الرحبة المقابلة :

ـ امضي بهما الى هناك وستجد علفا كثيرا وماء ، ثم اربط الجوادين وعد فصفق ثلاثا فندلي اليك الطعام .

ثم جذب اراميس الحبل واغلق النافذة ، وراح دارتانيان يفحص الحجرة بنظره ، فاذا اثاث في غاية البساطة ولكنه مريح ويفي بالغرض ، فقال له اراميس :

- انها حجرة متواضعة - حجرة راهب ياعزيزى - ولكن عم تبحث وراء الأثاث ؟
- عن الشخص الذى دلى لك سلم الحبال .
- إنه بازان ، فهو شاب ماهر ولبيب ، إذا رأى معى ضيوفا انسحب لكى لايقيد حريتى اجلس ياصديقى لنتحدث ، وسنتعشى معا طبعا - ام لديك مانع ؟
- كلا على الاطلاق - بل إنى أقبل الدعوة بكل سرور ، فلا اكتمك ان السفر قد فتق شهيتى .
- ولكننا فى الدير لاننال إلا طعام الزهادة ، وحضورك لم يكن متوقعا - ولكن سنرى ماذا يستطيع بازان أن يفعل - يابازان
وانفتح الباب واطل منه بازان ، فما أن وقع نظره على دارتانيان حتى اطلق صيحة فزع وارتياع فقال له دارتانيان .
- ياصديقى بازان ، لقد سرنى كثيرا أن المس مدى تقدمك فى الكذب بثبات وجراة منذ دخلت فى سلك الكهنوت ، ولاسيما إذا كان الكذب فى ساحة الكنيسة المقدسة .
- لقد تعلمت ياسيدى من الآباء اليسوعيين انه لابأس من الكذب إذا كان ذلك فى سبيل غاية طيبة .
وتدخل أراميس فى المناقشة قائلا
- حسنا يابازان - إن دارتانيان يكاد يموت جوعا - وانا كذلك ، فأعد لنا خير عشاء فى وسعك ، وتحر على الخصوص أن تأتينا بكمية طيبة من النبيذ الجيد .
فتنهد بازان وانحنى ثم خرج وتركهما - فقال دارتانيان
- قل لى ياعزيزى أراميس ، أين كنت بحق الشيطان حين قفزت على الحصان وراء بلانشيه ؟
- لقد هبطت كما رايت من السماء .
- لايبدو عليك انك كنت هناك ياصديقى - بل أننى اشم فى الامر رائحة امرأة - فذلك اشبه بك من السماء .
- انت كالعهد بك مهذار - ظن ماشئت ولكن إياك أن تعتقد أن الدوقة لونجفيل هى التى شغفتنى .
- إن هذا صعب ولاسيما أننى اعلم انك كنت الصديق الحميم لعدوتها الدوقة شيفريز مدة طويلة .
- اين ذهب هذا الحيوان بازان ؟ نحن جائعان كالذئاب .
وفى هذه اللحظة فتح الباب ودخل بازان بما احضره من الطعام والشراب ، وصفق بلانشيه تحت النافذة فدلى اليه بازان رغيفا ودجاجة محمرة وزجاجة من النبيذ ، ثم اقفل بازان النافذة وانسحب من الغرفة ، فأقبل دارتانيان على المائدة الحافلة بأفخر اطايب الطعام وهو يعجب من امر صاحبه الذى لايشبه فى شىء

ـلائق الرهبان ومعيشتهم . فلما فرغا قال أراميس :
- لقد علمت من بازان أنك كنت تبحث عني
- ساقول لك لماذا . ولكن قل لي أولا ، اتهتم بالسياسة ؟
فمرت سحابة خاطفة بجبين أراميس واجاب بالسلب .
- وهل لم تخطر ببالك ياعزيزى أراميس أيامنا الخالية ؟
- بلى ! وكم أتحسر عليها .
- وعلام التحسر ؟ إن هذه الأيام يسير ان تعود سيرتها الأولى . وقد كلفت ..مع زملائي ، وقد بدات بك ، لأنك قلب مجموعتنا النابض .
فانحنى اراميس شكرا وتأدبا وقال
- اتريد ان تعيدنى الى هموم السياسة وتخرجنى من معيشتى الراضية المستقرة ؟ كفانا ياصديقى ما لمسناه من جحود السادة القواد والزعماء .
- الحق معك . ولكن لعل أولئك الجاحدين ندموا على جحودهم .
- والله يغفر للتائبين . ولعل الوقت الحاضر مناسب لعودتنا الى حلبة السياسة . فقد سمعت ان مازان غير مطمئن الى سير الأمور ، وانه يسعى الى توطيد نفوذه .
- لقد اصبت ياأراميس . فالكردينال هو الذى كلفني ...
- ولكنى علمت ايضا ان مازاران ليس رجلا موهوبا للقيادة والسياسة . وإنما كل راس ماله انه حظى الملكة . فهو ظل لها ، وهى سنده الوحيد
- وهى سند غير هين ياعزيزى اراميس .
- ولكن لاتنس ان الملك ليس معه ، بل عليه .
- انه غلام قاصر .
- غلام سيبلغ رشده بعد اربع سنين .
- لنا الساعة التى نحن فيها .
- وحتى فى الساعة التى نحن فيها ضده قوى كثيرة . فالبرلمان ضده ، والشعب ضده ، والنبلاء ضده ، وامراء الجيش ضده ايضا ، وانى اشفق عليك ايها الصديق من مغبة ربط مستقبلك بذلك الأجنبى المكروه .
- انا ؟
- الم تتحدث الي انك موفد من قبله ؟ .
- انا تحدثت عن ذلك ؟ لقد كنت إذن مخطئا فى التعبير . وكل ماهناك اننى قلت بنفسى ان تعقد الأمور فى حلبة السياسة قد يكون فرصة مواتية لنا لكى نصل الى شيء . ولكنى حريص طبعا على تعرف اتجاهات الريح . وان نكون مع الفريق الرابح .

ـ ذلك أمر صعب ، فمن يدرى من الرابح فى بحر السياسة ومن الفريق ، وانى أوثر الا اورط نفسى فى تلك التيارات والمزالق .
ـ الحق معك ياأراميس . فأنت على عادتك فيلسوف حكيم راجح العقل . ولست أدرى أى شيطان ركبنى فزين لى المطامع . وقد عزمت على أن أقتدى بك فى إيثار السلامة وصح عزمى على التوجه لزيارة صديقنا بورتوس كى اتلهى بالصيد فى أراضيه . فلقد سبق له أن دعاني لذلك . وأنت تعرف طبعا أن لصديقنا بورتوس أرضا ؟
ـ طبعا . ضياع وغابات وسهول ووديان ، وله حقوق إقطاعية كانت محل خلاف بينه وبين أسقف نويون .
فقال دارتانيان فى نفسه :
ـ عال ! ها نحن قد عرفنا انه يقيم فى نواحى بيكارديه .
ثم قال بصوت عال .
ـ واعتقد انه استرد اسمه القديم (دى فالون)
ـ وأضاف اليه لقب (دى براسييه) ، وهى ضيعة فى مرتبة البارونية .
ـ إذن سأرى صديقي بورتوس وقد أضحى بارونا .
ـ طبعا . وسيعجبك حاله . وستعجبك على الخصوص البارونة الحسناء .
وانفجر الاثنان ضاحكين . ثم استأذن دارتانيان فى الانصراف فقال اراميس :
ـ لااستطيع احتجازك ، لاننى لاأدرى أين تنام عندى !
ـ لاعليك ، فالمسافة الى باريس قصيرة .
واصر اراميس على ان يودع دارتانيان بنفسه . فتقلد سيفه واستدعى بازان ، وكلفه أن يأتى بسلم الحديقة الخشبى ، فوضعه بازان في مكان سلم الحبال ، فقال دارتانيان معلقا على ذلك :
ـ ياله من سلم متين مأمون لاتخشى امراة ان تصعده .
فحدق فيه اراميس كأنما يريد ان يستشف ماوراء هذا التعليق من مغزى ، ولكن دارتانيان كان السذاجة بعينها ، ثم نزل الصديقان وبقى بازان في الحجرة ، واتجه الصديقان الى المظلة التى ينام تحتها بلانشيه . فإذا به واقفا والجوادان فى يده ، فركب الصديقان وسار خلفهما بلانشيه لأن اراميس اصر على توديع صاحبه الى ان يخرج من حدود القرية وهناك تعانقا ، وعاد اراميس راجلا ، اما دارتانيان وبلانشيه فألهبا جواديهما وأسرعا فى طريق باريس . ولكن ما ان ابتعدا مائتى خطوة حتى وقف دارتانيان وترجل عن جواده وألقى بعنانه الى بلانشيه ، وتمنطق بغدارتيه . فصاح بلانشيه :

- ماذا جرى ياسيدى ؟
- جرى انه مهما كان أراميس ماكرا ، فلن يستطيع تغفلى ، فانتظر هنا ولاتتحرك ثم أسرع دارتانيان يخترق الحقول ملتفا حول القرية ، فكان قد لاحظ أن بين قصر لونجفيل ودير اليسوعيين أرضا فضاء سورها من القش والأعشاب ، فأسرع بالكمون بين حشائش هذا السور . وماهي إلا لحظة حتى سمع وقع خطوات خافتة تقترب ، وصوت همس ، ثم وقفت الخطوات عند أول السور ، وظهر بعد ذلك رجلان ، فدهش دارتانيان لذلك . بيد أن دهشته لم تطل إذ سرعان ماتكلم الرجلان فإذا لأحدهما صوت ناعم ، صوت امرأة متنكرة فى ثياب رجل ، وإذا الصوت الآخر صوت صديقه أراميس يقسم لها قائلا :
- ثقى يامولاتي الأميرة أن حرصي على سمعتك أعظم من حرصي على حياتي ، ولهذا التزم جانب الحذر .
- ولكنني ياعزيزتي رينيه اطمئنك بأن حادث الليلة لن يتكرر ، فقد اكتشفت سردابا بين قصرى وحجرتك فى الدير يمر تحت الشارع .
وفى هذه اللحظة أطار الهواء قبعة السيدة فأنار القمر وجهها ، واستطاع دارتانيان أن يعرف فيها الدوقة دى لونجفيل ، ذات العينين الزرقاوين الواسعتين ، والشعر الذهبى ، والجمال الذى يتحدث به كل أبناء زمانها .
وتناولت قبعتها ، وانصرف الشبحان ، وتسلل دارتانيان عائدا الى جواده وخادمه اللذين ينتظرانه فى طريق باريس .

لقب بارون

استقر عزم دارتانيان وتابعه الذى تعلق به على السفر الى بيكارديه لمقابلة بورتوس . وقد وافق بلانشيه على أن يصحبه ولو الى اقاصى الأرض . ولكن بشرط أن يخرجا من باريس تحت جنح الظلام ، لأن بلانشيه كان لايزال خائفا من مطاردة رجال الحكومة له بعد قيامه بتخليص دي روشفور من عربة السجن ، وقد اجابه دارتانيان الى طلبه ، فلم يبدأ فى مبارحة باريس إلا فى نحو الساعة الثامنة مساء .

فما وصلا عند منتصف الليل الي قرية حتي نزلا بخانها ، ثم استأنفا ركوبهما فى الصباح الباكر ، فوصلا في نحو الساعة التاسعة صباحا الى « نانتى » فنزلا هناك لتناول الافطار ، وقد صارا فى صميم مقاطعة بيكارديه . وكان رب الخان رجلا طيب القلب صريحا ، وكان بلانشيه من أهالى الاقليم وان كان قد هاجر منه منذ زمن طويل ، لهذا أنس صاحب الخان اليه ولم يبخل عليه بكل مالديه من المعلومات . فعرف منه أن ضيعة « براسييه » لاتبعد إلا بضعة فراسخ عن مدينة عينها له ، فاتجه دارتانيان مع بلانشيه الى تلك المدينة ، ونزلا فى فندقها المسمى « الدلفين الذهبى » وكانت المعلومات المستقاة من ذلك الفندق تبعث على الرضى . فقد اتضح أن ضيعة « براسييه » لاتبعد فعلا عن هذه المدينة إلا بمقدار أربعة فراسخ . ولكنهما علما أيضا أن البارون بورتوس لايقيم فى الوقت الحاضر بضيعة « براسييه » بعد أن ضاق بطول الخلاف بينه وبين اسقف « نويون » بخصوص ضيعة « بييرفون » المتاخمة لأرضه ، وانتهى به الأمر أخيرا الى فض الاشكال بشراء تلك الضيعة ، واضاف اسمها الى اسمه بحيث صار ينادى في الوقت الحاضر « السيد بورتوس دي فالون دي براسييه دي بييرفون » وهو يفضل الآن الاقامة في ضيعته الجديدة ، وهناك ينبغى أن ينشده دارتانيان .

وكان لابد من الانتظار الى اليوم التالى ، لأن الجوادين كانا متعبين بعد الرحلة الشاقة من باريس ، فلما كان الصباح ركبا فى الساعة الثامنة ليخترقا الغابة المسماة غابة « كونبيينى » ، ثم يتجهان بعد اختراقهما الى اليمين .

فما أن اخترقا الغابة حتى تراءت لدارتانيان ابراج حصن اقطاعى هائل لقصور كبار الأمراء ولما بلغا نهاية الطريق ، ابصرا تحتهما واديا رائعا فيه بحيرة جميلة تتناثر حولها بيوت صغيرة لطيفة ، وتشرف عليها جميعا قلعة جميلة ينتهى عندها الطريق . فأدرك دارتانيان أن صديقه بورتوس يقيم فى تلك القلعة .

وبعد عشر دقائق وجد دارتانيان نفسه على راس ممر مستقيم تحف بجانبيه اشجار السنديان ، ويفضي ذلك الممر الى سور من الحديد المذهب . والتقى فى وسط ذلك الطريق بسيد عليه حلة خضراء مذهبة ، تضاهى ذلك السور المذهب ، ومن تحته جواد ضخم الجثة ، غالى الثمن من خيول النزهة ، ويحف بجانبيه وصيفان تملأ النقوش الذهبية كل موضع فى حلتيهما ، وبين يديه جمهور من الفلاحين تقوست ظهورهم اظهارا للولاء . وخطر لدارتانيان أن هذا هو صاحبه القديم بورتوس فى مجده الطريف . فأسرع يهمز جواده ليطير به اليه . فاذا به يتبينُ فيه خادم بورتوس القديم السمين ، نقيض بازان فى الجسم والسجايا ، الملقب بـ « موسكيتن » وتهلل وجه الرجل وهو يخف للقاء صديق سيده دارتانيان . وانزله الوصيفان عن حصانه ، لأن جسمه الضخم لايسمح له بالركوب والنزول بنفسه . وما رأى الخدم والفلاحون ترحيب « موسكيتن » حتى اتجهوا باحترامهم الى تلك الشمس الطالعة ، وصاح موسكيتن :

- ما اشد فرح مولاى سيد فالون وبراسييه وبيرفون بحضور سيدى الكونت دارتانيان .

- يالموسكيتن الطيب القلب ! سيدك هنا إذن ؟

- إنك ياسيدى تقف في حدود أراضيه

وهجم بلانشيه على موسكيتن يعانقه ويحاول عبثا ان يضم ذراعيه حول خاصرته . وبعد ان انتهى ذلك العناق قال موسكيتن لدارتانيان :

- والآن ياسيدى اسمح لى ان أغادرك ، فانني لاأرضى أن يسمع مولاى بقدومك من فم احد سواى .

- يا لذلك الصديق العزيز . انه إذن لم ينس صاحبه القديم !

- ينساك ياسيدى ؟ مامن يوم انقضى إلا ونحن ننتظر ان نسمع أنك قد عينت مارشالا لفرنسا خلفا للسيد دى « جاسيون » أو فى مكان السيد دى « باسونيير » فانك لست أقل بسالة ومقدرة فى الحروب من أيهما .

فافترت شفتا دارتانيان عن ابتسامة حزينة ، وصاح « موسكيتن » فى الوصيفين :

- ابقيا ايها الصعلوكان هنا بين يدى سيدى الكونت دارتانيان ، واياكما أن تقصرا في تقديم الاحترامات والانحناءات له طول الوقت ريثما اخطر مولاى .

ثم تعاون الوصيفان على رفع موسكيتن الى صهوه جواده الضخم ثم أسرع يعدو فوق الحشائش نحو القصر .

اخترق دارتانيان السور الحديدى المذهب فالقى نفسه فى مواجهة القصر ، فما ان ترجل عن جواده حتى رأى على الدرج الكبير عملاقا ضخما دق لمرآه

قلبه . فقد كان ذلك العملاق الذى تدل قامته وطلعته على الشجاعة والطيبة هو صديق الزمان الخالى بورتوس . فأسرع يعدو نحوه فاتحا ذراعيه . وصاح بورتوس بصوته الأجش وهو يعصر صديقه بين ذراعيه :

– ما أسعدني برؤياك ياعزيزى دارتانيان . هل انت لم تنسنى ؟

– انساك ياعزيزى دى فالون ؟ وهل يستطيع المرء أن ينسى اجمل ايام شبابه واعز أصدقائه الذين جمعهم به الخطر المشترك ؟

فجعل بورتوس يسوى شاربه الضخم ويفتله على ذكر تلك الايام وقال

– طبعا طبعا . لقد فعلنا الافاعيل وسببنا المتاعب الجسام للكردينال المسكين . فمرحبا بك ياصديقى كي تدخل العزاء والسرور على قلبى . وغدا نصطاد الأرانب البرية فى السهل ، وإن لى لسهلا جميلا ، أو نصطاد الأيائل فى بعض غاباتي ، وإن لى لغابات رائعة ، وان كلاب صيدي من جميع الانواع ليس لها نظير فى المنطقة كلها .

ثم ندت عنه آله عميقة لم تغب عن دارتانيان فقال فى نفسه :

– اترى هذا الرجل الوجيه قد أخطأته السعادة ؟

ولكنه أجاب صديقه بصوت مرتفع .

– احب قبل هذا وذاك أن تقدمنى الى قرينتك مدام دى فالون .

فتنهد بورتوس مرة أخرى فى حسرة وقال

– لقد فقدت مدام دى فالون منذ سنتين . وها انت ترانى لا أزال متألما من هول الصدمة . وقد تركت قصرى فى ضيعة فالون للاقامة فى قصرى بضيعة براسيير حبا فى التغيير والابتعاد عن المكان الذى سعدنا فيه معا . وقد أدى ذلك الى شرائى هذا القصر .

– أنت إذن غنى وأعزب ؟

– أجل واأسفاه . فأنا أرمل ودخلي اربعون ألف جنيه . هيه ! هيا بنا نتغذى !

فدخلا القصر فاذا نقوش وطنافس مذهبة فى كل مكان من الأرض الى السقف ، والاثاث أيضا كان مذهبا . وكانت المائدة معدة فجلس الصديقان اليها ، وراح بورتوس يتنهد بين كل لقمة واخرى . ودارتانيان يحصى التنهدات ، واخيرا قال :

– يبدو لى ياصديقى انك مهموم !

– لااكتمك ياصديقى اننى لست سعيدا .

– أنت يابورتوس غير سعيد . ولك القصور والضياع . والسهول ، والغابات والقلاع ؟

– وماقيمة هذا كله وأنا فيه وحيد فريد . وليت الأمر اقتصر على هذا ياعزيزى دارتانيان ، فمن حولى أثرياء محدثون ، أقل منى فى كل شيء ، ومنهم من يزعم

ان نسبه يرتفع الى شرلمان . آه ياصديقى لو أننى كنت ..
- بارونا ؟ أليس كذلك ؟
- آه ياصديقى لوكنت برونا !
- اطمئن ياصديقى فهذا اللقب هو ماجئت احمله اليك !
فقفز بورتوس من مقعده قفزة ارتجت لها القاعة الكبيرة ، وتدحرج لشدتها اكثر من قارورة من قوارير النبيذ . ونهض الصديقان للتمشى فى الحديقة الكبيرة ، ضمانا لحسن الخلوة اثناء الحديث ، وهناك فاتحه دارتانيان فى أنه ليس عليه للحصول على ذلك اللقب إلا أن يعود الى بعض سيرته الأولى ايام الصعلكة والمغامرات . فصاح بورتوس :
- هى الحرب اذن ؟
- إى وربى !
- وضد من ؟
- إننى موفد ياصديقى من قبل نيافة الكردينال مازاران .
- ومن الذى حدث نيافته عنى ؟
- إنه دى روشفور . الا تذكره ؟
- اجل ، فقد كان من اعتى الخصوم وانبلهم . وماذا قلت للكردينال حين كلفك الاتصال بى ؟
- اشترطت لك شروطا . اهمها طبعا براءة البارونية .
- وهل لم تفكر فى صديقينا الآخرين ؟
- بلى ! وقد قابلت أراميس
- وما مطالبه ؟ الأسقفية ؟
- إن اراميس ياصديقى قد اشرب الرهبنة حتى زهد فى كل شىء ولم افلح فى إقناعه بالاهتمام بالدنيويات .
- واخسارتاه . لقد كان دائما رجل تأمل . وأتوس ؟
- لم اره بعد . وسأتوجه اليه بعد مغادرتك . اتدرى اين اجده ؟
- بالقرب من « بلوا » فى ضيعة صغيرة ورثها لاادرى ممن .
- وماسم هذه الضيعة ؟
- كنتية براجيلون . فهو الآن كونت دى لافير وكونت براجيلون . ولكنها قطعة ارض صغيرة .
- وهل انجب اولادا ؟
- لقد سمعت لأنه تبنى غلاما يشبهه كل الشبه .
- سأذهب من غد لزيارته ، فاذا انضم الينا كان خيرا ، وإلا اكتفينا باتحادنا الثنائى ، فنحن بمقام اثنى عشر رجلا .

ـ تماما ، ولكن أربعتنا بمقام ستة وثلاثين . وهل تدوم هذه المهمة العسكرية طويلا ؟

ـ ربما دامت ثلاثة أعوام أو أربعة ،وربما احتدم القتال .

ـ على بركة الله . فان يدى تأكلنى شوقا الى امتشاق الحسام .

ثم نادى تابعه السمين وكلفه بتجهيز عدة الحرب من الدروع ، وتطمير الخيل ، وصقل السيوف ، فوجم وكيل الدائرة ـ فهذه هى وظيفة الخادم القديم فى العز الجديد ـ ولكنه لم يلبث أن رضخ على مضض لارادة سيده ، وهو يشعر ان الانسان كافرا بالنعمة يدخله الله الجنة فيخرج منها بمحض رغبته .

ولما حان أن يفترق الصديقان ، سأل بورتوس دارتانيان عن التعليمات فقال له :

ـ ستستغرق رحلتى الى « بلوا » ثلاثة ايام ،وأقيم هناك يوما . وتستغرق رحلتى من هناك الى باريس ثلاثة أيام او اربعة . فيحسن أن ترحل من هنا بعد أسبوع فى عدتك وعتادك ، وتنزل فى فندق العنزة الصغيرة بشارع « تيكتن » وهناك تنتظر اوبتى .

ـ وهو كذلك .

* * *

وودع دارتانيان صديقه بعد ذلك وركب مع تابعه بلانشيه الى بلوا . ولكنه لم ينس فى منتصف الطريق أن يكتب الى الكردينال تقريرا مختصرا عن قبول بورتوس للخدمة ، وانه فى طريقه الى آتوس فى قصر براجيلون من ضواحى مدينة بلوا .

قصر براجيلون

وصل دارتانيان وبلانشيه بعد ثلاثة ايام الى ضواحى « بلوا » وهناك رأيا حطابا يسوق عربة محملة بالأخشاب المقطوعة من الغابة فسألاه عن الكونت دى براجيلون . فقال لهما الرجل ان الغابة التى يحتطب منها ملك للكونت ، وانه فى طريقه الأن الى قصره ، ثم اشار الى طريق مستقيم يفضى الى القصر ونصحهما بالتزامه بدلا من ان يتبعا عربته البطيئة التى تجرها الثيران . واخيرا وصلا الى قصر متواضع . فجذب بلانشيه حبل جرس الباب ، ففتح لهما وصيف أشيب الشعر معتدل القامة ، فأدخلهما . وذهب ليبلغ سيده بمقدم الضيف .

وكان لقاء حارا بين الصديقين ، تبادلا فيه العناق ، ثم جذب آتوس يد دارتانيان ودخل به قاعة خاصة بالضيوف ، فنهض الجميع لتحيته ، وقدمه آتوس اليهم خير تقديم ، ثم جلس دارتانيان بينهم فاستأنفوا الحديث الذى انقطع بقدومه ، وادهشه ان يرى ان صديقه آتوس لم تنل منه السن فى تلك المدة الطويلة ، بل ان نظراته اصبحت اصفى ، بالنسبة للراحة وانتظام المعيشة فى هذه السنوات .

ولم يلبث الضيوف أن ادركوا ان وجودهم غير مرغوب فيه فاستأذنوا فى الانصراف ، بيد انه سمعت فى صحن الدار جلبة ، ونباح الكلاب ، فقال نفر من الضيوف فى صوت واحد :

ـ هذا هو راؤول قد عاد .

والتفت دارتانيان التفاتة الية فاذا غلام فى نحو الخامسة عشرة ، بسيط الهندام ولكن فى ذوق حسن . ولاحظ دارتانيان الشبه الشديد بين هذا الغلام وبين صديقه الذى احتفى بالغلام وهش له ، ولكنه رأى فى وجهه شحوبا فقال له فى لهفة :

ـ ماذا بك ياراؤول ؟ فانى أراك مكفهر اللون .

ـ ذلك ياسيدى أن مكروها وقع لجارتنا الصغيرة الآنسة لافاليير .

فارتفعت فى القاعة أصوات كثيرة تستفسره فقال :

ـ لقد كانت تتنزه مع مربيتها مارسلين فى الغابة حيث يعمل الحطابون فى قطع الاشجار ، حين مررت على صهوة جوادى فرأتنى وقفزت من فوق كومة من الاخشاب لتسرع الى فالتوى قدمها .

ـ وأمها ؟ هل علمت بالخبر ؟

ـ انها ياسيدى فى بلوا لدى دوقة أورليان . وكان همى أن نقدم الاسعافات

الأولية للطفلة المسكينة ، واخشى الا تكون كافية .
- اذهب حالا الى بلوا واخبر امها . ولكن أين لويز نفسها ؟
- لقد اتيت بها الى هنا ووضعت امراة شارلو قدمها في ماء بارد .
وبعد انتهاء هذه المناقشة انصرف الضيوف ماعدا دون باربيه العجوز الذى دخل ليرى لويز . وكانت تبكى ولكنها مارات راؤول حتى لاحت الابتسامة فى عينيها فى الحال . وعرض الدوق العجوز أن يأخذها فى عربته الى امها . فوافق أتوس على أن يصحبها راؤول ثم يعود .
وحمل الفتى الطفلة بين ذراعيه فوضعها فى العربة وانطلقا . وسار دارتانيان مع أتوس يتمشيان فى الحديقة انتظارا لتجهيز العشاء ، وقد لاحظ اتوس ان ضيفه وصديقه القديم متعجب مما يرى ، فراح يمازحه ويتذكران معا أيامهما الخالية . الى ان سأله :
- وهذا الشاب ، اهو من أقربائك ؟
- انه ياصديقى يتيم تركته امه فى حضانة قسيس فتبنيته وربيته . واعتقد انه يحبنى كما لو كنت أباه . وهو شديد العرفان لجميلى مع اننى فى الواقع انا المدين له بمتعتى الوحيدة فى الحياة ، فهو نور سعادتى والسبب فى النضرة التى تراها على وجهى .

* * *

وبعد العشاء بقليل وصل راؤول ، فقدمه أتوس لدارتانيان ، فقال الفتى :
- كثيرا ماحدثنى سيدى الكونت دى فالون عنك ياسيدى بوصفك مثلا من أعظم امثلة الشجاعة والخلق الكريم .
فتأثر دارتانيان كثيرا لفرط ادبه ، وقال :
- الحق ياعزيزى الشاب ان كل مايعزوه الى من الفضائل إنما مرده الى الكونت ، فقد كان أستاذى فى مكارم الأخلاق ، وهنيئا لك انه صار استاذك انت ايضا .
ثم سأل الكونت راؤول عن صحة الفتاة فقال إن الطبيب لايستطيع ان يجزم بشيء حتى الآن . ولكنه يعتقد ان المسألة سليمة العواقب .
وأثناء السهرة راح دارتانيان يقص على راؤول طرفا من مواقف البسالة التى وقفها أتوس فى الزمان الخالى ، الى ان نبه أتوس راؤول الى ان الضيف متعب من وعثاء السفر وينبغى ان يترك لينام .
اوى دارتانيان إلى فراشه ، لا لهفة على النوم ، بل تلهفاً إلى الخلوة بنفسه كى يطلق لأفكاره العنان ويتأمل ويسترجع كل ماشاهده وسمعه ذلك النهار . فمن هو ذلك الشاب الذى يقول أتوس انه تبناه ، والذى يشبه شبهاً عظيما ؟ وكيف يوفق

بين اعتكاف صاحبه في الريف وتقشفه في مسكنه ولباسه وطعامه وشرابه ـ فقد كانت المائدة بسيطة غاية البساطة ـ وبين اتصاله بالناس وتزاوره معهم ، حتى لقد اجتمع ذلك اليوم في صالونه منهم خلق كثير ؟

وقد دله كل ذلك على أن صاحبه رجل لا يفرض عليه العزلة إلا ضيق موارده ، وان نفسه تنازعه مع ذلك إلى الظهور . وذلك دليل على يقظة مطامعه ، وأن الثراء والجاه هما نقطة الضعف التي يمكن أن يساس منها . فلما اطمأن إلى ذلك الرأى استسلم للنوم ، ولكنه استيقظ عند السحر على عادته في البكور . فقفز من فراشه وفتح النوافذ وقد بدأت أشعة الفجر تلقى لونها الذهبي الباهت على كل شيء ، وخيل إليه أن شخصاً ما يمشي في صحن الدار محاذراً أن تنم عنه أصوات خطواته . فحدق دارتانيان في ذلك الشبح . فعرف في قامته وشعره الغزير راؤول

وفتح الشاب باب الاسطبل فخرج منه جواد أشهب . هو الجواد الذى كان يمتطيه في اليوم السابق فأسرجه والجمه في مهارة وسرعة أعجب بهما دارتانيان . ثم انطلق فوقه كالسهم في الطريق المفضى إلى بلوا . وظل دارتانيان مطلا من النافذة . حتى إذا سمع أصواتاً في القصر تنم عن اليقظة مشط شعره وسوى شاربيه ونزل إلى الحديقة . فاذا آتوس منحن فوق الأرض كمن يبحث عن درهم ضائع . فحياه ثم سأله مستغربا عم يبحث . فقال له :

ـ إنى أبحث عن ازهار صغيرة كانت هنا بالأمس . ويبدو أن البستاني الاحمق داسها بقدمه . كلا بل حوافر جواد فيظهر انه فعل ذلك عند عودته بالجواد . من المسقاة . كلا . فهذه علامات جديدة ليست منذ أمس . فمن ياترى الذى خرج راكبا في هذه الساعة المبكرة ؟ أم ترى افلت جواد من الأسطبل ؟

ـ ان مواضع الحوافر منتظمة انتظاما لايدل على الهرب ، بل على أن راكباً ماهراً كان فوق صهوة الجواد .

ـ اين راؤول ؟ إنه لا يستيقظ مبكرا على الدوام .

فابتسم دارتانيان ابتسامة ذات مغزى ووضع سبابته على فمه ، ففهم اتوس المقصود ، وابتسم بحنان وقال :

ـ لابد انه ذهب إلى بلوا للاطمئنان على الصغيرة المسكينة لما أصاب قدمها أمس ، فهو مفتون بها .

ـ بهذه الطفلة التي لا تعدو السابعة ؟

ـ ان الحب في هذه السن له شئون غريبة . وأنا احسبه اتجه ذلك الاتجاه لأنه لايجد مايشغله . لهذا فكرت في ابعاده عن هنا ، فما رايك في ارساله إلى باريس ؟

ـ استحسن أن يلتحق بالجيش . أم لا يروقك أن يحيا الفتى حياة مغامراتنا

الاولى ؟ الا تشتاق إليها انت ؟
ـ اهو عرض تعرضه أم مجرد كلام عابر ؟
ـ بل عرض صريح واضح .
ـ معن وضد من ؟ الا فاعلم انني لا ارى قضية تستحق أن يخدمها تستحق أن يخدمها مثلي اللهم إلا قضية الملك . والملك بالذات ، لا الملكة او مازاران تحت ستار الملك . فباسم أيهما تتكلم ؟
ـ ياله من رد مفحم . ولكن اعذرني ياصديقي ، فظروفي غير ظروفك ، فأنت مثلا ميسور المعاش وكذلك بورتوس من كبار الاثرياء ، وأراميس أيضاً مطمئن إلى حياته ، اما انا فمازلت ملازماً فقيراً . وقد جئتك التمس النصح لتحسين حالي ، ولاسيما اني ارى انني لاأستطيع بدونكم شيئا مذكورا .
ـ وهل وافقك بورتوس على الانضمام لك فى طلب المجد ؟
ـ اجل وثمن ذلك براءة البارونية .

وفى هذه اللحظة دخل راؤول بادى الحزن ، فالطفلة لم تنم طول الليل من شدة الألم ، والطبيب تساوره الشكوك والمخاوف أن تظل الفتاة عرجاء طول حياتها ويحز فى نفس راؤول أن ذلك كان بسببه .

وبعد الافطار ورد خطابان قراهما آتوس بعناية شديدة . وقد تبين دارتانيان فى احدهما خط أراميس الراهب ، والآخر بخط امرأة . وفى هذه اللحظة دخل الخادم شارلو برسالة لدارتانيان حملها رسول خاص ، وكانت دعوة من مازاران كى يعود فوراً إلى باريس . فقال :
ـ إني راحل ياصديقي ، فهل انت مصمم الا تأتى معى ؟
ـ إذا ذهبت إلى باريس فسيسرني أن اراك .

ثم تعانق الصديقان ورحل دارتانيان وبلانشيه . وما أن غابا عن الأنظار حتى قال آتوس لراؤول :
ـ استعد فنحن راحلان الليلة إلى باريس . فاذهب وودع لويز وأمها وعد قبل الساعة السابعة .

فرار من السجن

وهذه هي الحوادث التي تسببت في استدعاء دارتانيان إلى باريس بصفة عاجلة . ففي ذات ليلة بينما كان مازاران على عادته في طريقه الى جناح الملكة الخاص ، مر من أمام قاعات الحرس فسمع من داخلها كلاما بصوت مسموع فمشى متسللا كالذئب دون أن يسمع لخطواته صوت وأخذ يتسمع ، فإذا مناقشة حامية بين الجنود ، على الوجه التالي .

ـ أن العراف « كويزل » قد تنبأ بهذا ، فمن المؤكد انه سيحدث حتما ، فانى وان كنت لاأعرفه شخصيا ، الا انني سمعت أنه ليس منجما فحسب ، وإنما هو ساحر عظيم أيضا .

ـ حذار ياصديقى ان تقول لاحد هذا الكلام فانك بهذا تضره ولاتنفعه .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه قد يقدم الى المحاكمة بتهمة السحر . ثم هل تعتقد أن الهرب من القضاء والقدر ممكن ؟ اذا كان مكتوبا للدوق دى بوفور أن ينجو من الاعتقال فكل احتياطات الكردينال لن تجدى في منعه .

فانتفض مازاران عندما سمع هذا ، فهو ايطالي ، والطليان شديدو الاعتقاد في التنجيم ، ففتح الباب ودخل القاعة وقال :

ـ ماذا كنتم تقولون ايها السادة ؟ هل الدوق بوفور هرب ؟

ـ كلا ياصاحب النيافة . بل كنا نقول انه لابد سيهرب .

ـ ومن الذى تنبأ بهذا ؟

ـ منجم يدعى كويزل أكد أنه كانت الحراسة على الدوق دى بوفور شديدة فانه سيستطيع الهرب قبل عيد العنصرة .

فطأطأ مازاران رأسه وانصرف مهموما لأن ذلك العراف كان مشهورا بالتنبؤات الصادقة . فهو الذى تنبأ فيما مضى بأن الملكة ستنجب ولداً ذكراً ، وأن « كولينى » سيموت مقتولا بسيف الدوق دى جيز . وبدلا من أن يتم طريقه إلى مخدع الملكة ، عاد الى مكتبه وامر باستدعاء القوة المكلفة بحراسة سجن فنسين حيث الدوق دى بوفور ـ ومهمة حراسة الدوق هى المهمة التى كان مازاران قد عرضها على دى روشفور فرفضها .

وفى الساعة السابعة صباحا كان رئيس الحرس « لاراميه » قد جاء ، فلما دخل عليه قال له الكردينال :

ـ اتدرى ياسيدى ماذا يقال هنا ؟

- كلا ياصاحب النيافة .
- يقولون ان الدوق دى بوفور إذا لم يكن قد هرب فعلا فهو لابد سيهرب قبل عيد العنصرة .

فقهقه الضابط ضاحكا لأنه ظنها نكتة من جانب الكردينال .

- يظهر أن صاحب النيافة لايعرف مدى الترتيبات والاحتياطات المتخذة فى فنسين . فالحيطان يبلغ سمكها سبعة أقدام ، والنوافذ لها قضبان متعارضة ، كل قضيب منها في سمك الذراع ، والدوق محوط على الدوام بثمانية حراس ، أربعة منهم فى حجرته لايفارقونه ابدا ، واربعة آخرون فى حجرة الانتظار الملحقة بها .
- ولكنه يخرج من الحجرة ويلعب التنس .
- ياصاحب النيافة ، هذه العاب مسموح بها للسجناء الأشراف . وعلى كل حال ففى الامكان إذا اردتم أن تحرمه منها .
- ومع من يلعب ؟
- مع ضابط الحرس او معى أنا ، او مع غيره من السجناء .
- وهل لايقترب من الأسوار أثناء اللعب ؟
- ان نيافتكم لاتعرفون هذه الأسوار . فارتفاعها ستون قدما ، ولا أظن الدوق قد ضاق بحياته إلى حد القفز من هذا الارتفاع فتدق عنقه . يضاف إلى هذا أن حاكم السجن هو السيد دى شافينى ، وهو ليس من المشهورين بصداقته للدوق بوفور
- هذا صحيح ، ولكن السيد دى شافينى يتغيب احيانا .
- إذا تغيب هو فلابد أن أكون انا موجودا .
- وإذا حدث أن غبتما معا ؟
- فى هذه الحالة يحل محلى شاب طموح إلى الترقى ، وانا أضمن حسن حراسته . ومنذ عين هذا الشاب - أى منذ ثلاثة اسابيع - ولا مأخذ لى عليه إلا أنه يتغالى فى التشديد على السجين .
- وماأسم هذا الشاب ؟
- جريمو ...
- وماذا كانت صناعته قبل أن تستخدمه ؟
- كان يقيم فى الريف ، ويظهر انه ارتكب ماجعل إقامته هناك خطرا على حياته ، فمن مصلحته أن يحتمى بخدمه الملك لينجو من العقاب .
- ومن الذى اوصاك بهذا الرجل ؟
- وكيل دائرة الدوق دى جرامون .
- فهو إذن اهل للثقة فى رايك ؟

ـ كما تثق فى شخصى تماما ياصاحب النيافة .
ـ اذن أكرمه وأجزل له العطاء كى يتفانى فى الخدمة والحراسة .

وراح الكردينال يلقى عليه أسئلة كثيرة خاصة بأحوال السجين وعلم من جوابه أن جريمو حارس لانظير له ، حتى لقد تمنى ان يكون عشرة من أمثاله ليكفوه مؤونة جميع الأمراء المسجونين .

ومع هذا رأى من الاحتياط أن يستدعى دارتانيان فورا كى يضاعف به الحراسة على الدوق . فهذا الدوق حفيد هنرى الرابع ، وهو مثل جده بسالة واعتزازاً بنفسه وعنادا ، ولكنه محدود الثقافة . وكانت له المكانة الأولى فى البلاط فى عهد لويس الثالث عشر ، حتى حل محله مازاران ، ومنذ هذه اللحظة بدأت عداوتهما الشديدة .

فمن هو جريمو ؟

إنه خادم أتوس القديم ، أى صنو بازان وبلانشيه وموسكيتن . ولم يجد دارتانيان له أثراً عند زيارته لأتوس . فسأله عنه فقال إنه أقرضه لبعض جيرانه مؤقتا ... وهانحن نجده متخفيا فى زى حرس الملك ، سجانا للدوق دى بوفور ، زعيم المعارضة ، والذى تأتمر المعارضة لتهريبه من سجنه المنيع ...

وقد تقمص جريمو شخصية السجان القاسى على خير وجه ، فقد تقدم الى حاكم السجن بوجه عابس ، تظله جبهته الضيقة ، ونظرته التى تنم على السخط ، وفمه المطبق الذى لايعرف الكلام إلا فى النزر اليسير . فاذا ماحدثه الحاكم عشرين كلمة أجابة بكلمتين . فاكتسب لديه ثقة فى صلاحيته للعمل ، وكانت الوصية الأولى اليه الا يدع السجين وحيداً بأى حال ، وأن ينزع من يده كل آلة حادة أو مدببة ، وأن يمنعه من التخاطب بالاشارة من خلال النافذة مع اى إنسان خارج السجن ، وأن يحول دون اشتباكه فى الحديث اكثر مما يجب مع حراسه .

وبهذه التعليمات المشددة دخل جريمو على الدوق دى بوفور ، فاستطاع أن يكتسب نفوره وكراهيته من اول لحظة ، وذلك بالطريقة الخشنة المتعنتة التى ادى بها واجباته وفى ذات مرة ، وقد خلت الحجرة إلا منهما ، طفح الكيل وثارت ثائرة الدوق ، فصاح بجريمو محنقا :

ـ يالك من عتل ! لأحطمن عظامك ، إذ يبدو انه لا سبيل إلى الخلاص منك إلا ان أخنقك بيدى ، وانى فاعل ذلك من ساعتى هذه فخير البر عاجله !

وهجم على جريمو وقد تشنجت أصابعه كي يخنقه . وكانت له أصابع كأنها كلابات من حديد . فالدوق من أشهر أهل زمانه بالقوة البدنية ، فاذا بجريمو يخرج من طيات ثيابه رقعة ذات غلاف فاخر ويقدمها الى الدوق دون ان ينبس

ببنت شفة . فتراخت يدا الدوق ، وتناول الرقعة وهو فى أشد حالات الدهشة ، وفضها وقرأها عدة مرات لأنه لم يكن يصدق عينيه . وجاء فيها تزكية لجريمو ، وكيف انه وصيف أحد رجال العصبة ، وأن ساعة الخلاص قد دنت ، وكان التوقيع « مارى دى مون بازون » .

فلما خفت دهشة الدوق وأدرك مغزى الرسالة ، مد يده إلى جريمو فتناولها جريمو وطبع عليها قبلة احترام ، فوصيف آتوس كان قد تعلم على سيده أداب العلية وسأله الدوق عما ينبغى أن يفعل ، فقال :

ـ الساعة الآن الحادية عشرة قبل الظهر . فما على مولاى إلا ان يطلب فى الساعة الثانية ان يلعب التنس مع قائد الحرس « لاراميه » (وهو نفسه الذى رأيناه فى الفصل السابق بين يدى مازاران لتشديد الحراسة) . ثم تقذف كرتين أو ثلاثة خارج الأسوار . ثم يقترب مولاى من الأسوار ويصرخ فى رجل يعمل فى الخندق أن يقذفها الى داخل السجن ثانية . ولكنى اطلب من مولاى وعداً قاطعاً قبل كل شىء .

ـ وماذاك ؟

ـ أن يدعنى مولاى حين نشرع فى الهرب أسبقه باستمرار وأمشى أمامه لأنه إذا امسك مولاى فأقصى ما يتعرض له أن يعاد إلى السجن . أما إذا لحقوا بى أنا فهى المشنقة ولامراء !

ـ هذا حق ، وأعدك بتنفيذ هذا الشرط وعد الشريف الحر .

ـ وشرط آخر ، أن يستمر مولاى على إظهار الكراهية والبغض لى .

وفى هذه اللحظة دق الباب ، فأخفى الدوق الرقعة فى جيبه وانطرح على الفراش ، وفتح جريمو الباب ، فاذا لاراميه عائدا من لدى الكردينال .

وفى الساعة الثانية طلب الدوق أن يلاعبه لاراميه التنس . فاستمهله لاراميه نصف ساعة ، لأن بطنه تشكو الجوع . فعرض عليه الدوق أن يستحضر له غذاء من طعامه الخاص ، فاعتذر قائلا :

ـ إن امام السجن صانع حلوى من أهالى باريس ، يقال إن الأطباء نصحوا له بجو الريف ففتح محله هذا منذ أسبوع ، وقد رأيت فى مواجهة حانوته أشياء يامولاى يتحلب لها اللعاب ، وقد نادانى والتمس منى أن أجعله متعهد السجن ، وكى يبرهن لى على حسن صنعته ، أرانى فطيرة فاخرة وزجاجة نبيذ برغندى فاخر جعلها لى ، وقد وعدته أن أتناولها عنده بعد نصف ساعة ، فلا تحرمنى من هذه الفرصة النادرة .

★ ★ ★

وماانقضت نصف الساعة حتى عاد لاراميه وعلى وجه آيات السعادة واضحة ، شأن من اكتظت بطنه بالطعام وانتشى بالشراب . وفى هذه الحالة

سيدات لعبة التنس بينه وبين الدوق . فلم يكن أسهل على الدوق من تنفيذ تعليمات جريمو بالقاء الكرات فى الخندق ، الامر الذى ابتهج له جريمو كثيراً لأن كل كرة تقع فى الخندق تسجل له كسباً مقداره خمسة عشر بنطاً . وظل الدوق يقذف بالكرات فى الخندق حتى قل عددها جداً وصارت استعادتها ضرورة حتمية لاستمرار اللعب . وحينئذ توجه الدوق إلى الاستحكامات فوجد رجلا يعمل فى قاع الخندق وعمقه ستون قدماً ، فصاح به ان اقذف لنا الكرات . وقذف الرجل الكرات وراح يتلقفها الحراس ، ولكن واحدة منها وقعت عند قدمى الدوق فالتقطها ووضعها فى جيبه .

وبعد ان انتهى اللعب اوى الدوق إلى غرفته وأعلن عن رغبته فى النوم ، وخلع ملابسه ، ولكنه تمكن من اخفاء الكرة بين الوسائد ، واخذ لاراميه الملابس بحجة تنظيفها من التراب ، والواقع انه اراد أن يضمن عدم خروج الدوق من الغرفة .

وما ان اقفل عليه باب الغرفة حتى مزق بأسنانه الغلاف الخارجى للكرة ، فوجد بداخله الكلمات الآتية :

- ان أصدقاءك يامولاى ساهرون وقد اقتربت ساعة الخلاص فاطلب بعد غد أن يأتوك من محل الحلوى المقام امام السجن بفطيرة فاخرة ، فليس صاحب هذا الحانوت إلا طاهيك القديم « نورامون » ولاتفتح الفطيرة إلا حين تكون وحيداً . واتعشم أن ترضى عما ستجده بداخلها ، وأن ترضى عن المخلص لسموك الكونت دى روشفور .

واحرق الدوق الرسالة ، وكاد يحرق الكرة أيضاً ، لولا أنه تذكر انها تفيده فى إرسال الرد . ورأى لاراميه اللهب من زجاج الباب ففتح الباب ودخل ، فاقنعه الدوق انه يشعر بالبرد ولذلك فكر فى إشعال المدفأة ، ثم أردف :

- وهذه وسيلة الدفء الوحيدة التى يستطيعها من لا يأكلون الفطائر الدسمة مع النبيذ البرغندى .

- هذا أمر سهل يامولاى ، فقد وعدت الرجل أن اجعل نزلاء السجن الأشراف من زبائنه ، وهو قد اكرمنى وسيكرمنى لهذا الغرض ، فمر نأتك بالفطائر فى أى وقت تشاء .

- اليس بعد غد عيداً ؟

- بلى ! عيد العنصرة .

- فهل لك إذن فى إعطائى درساً خصوصيا بعد غد ؟

- فى اى مادة يامولاى ؟

- فى مادة الشراهة !

- بكل سرور يامولاى .

ـ واحب ان يكون الدرس على انفراد حتى نأخذ راحتنا فى الأكل أنا وانت فتصرف الحراس ، واترك لك حرية التصرف فى الانواع والكميات ، على أن تكون الفطيرة من بينها .

وفكر لاراميه قليلا فلم يجد بأسا فى الموضوع ، لانه هو الذى سيشرف على إعداد الاصناف وسيضمن ان تكون خالية من اى مخدر ، ولكنه اخذ بالأحوط اشترط أن يخدمهما على المائدة جريمو . فقبل الدوق ولكن تصنع التبرم بهذا العمل الذى يقتل الشهية فقال لاراميه :

ـ سأوصيه ان يقف وراء مولاى حتى لايرى خلقته .

وماخرج لاراميه وخلى فى الغرفة جريمو والدوق ، حتى أخرج جريمو قلماً وورقة واملى على الدوق الخطاب التالى :

ـ كل شيء على مايرام لغد مساء . كونوا على استعداد فى السابعة والنصف . أعدوا جوادين سريعين للركوب . سنهبط من النافذة الأولى فى العنبر .

ثم اخذ جريمو الورقة وخاطها حول كرة التنس وكلفه ان يقذفها فى الخندق أثناء اللعب ، ثم أخبر الدوق أن الفطيرة سيكون حشوها خنجران وحبل ذو عقد . وكمامة تعذيب للسيد لاراميه .



حوالى هذا الوقت الذى تقام فيه الاستعدادات لهرب الدوق من السجن ، كان فارسان يتبعهما خادم يدخلان باريس من ناحية حى سان مارسل . وكان هذان الفارسان هما اتوس (الكونت دى لافير) والفيكونت دى براجيلون (راؤول) وكانت تبدو على آتوس أمارات الطمأنينة . فلما وصل الفارسان الى فندق الثعلب الأخضر أودعا جواديهما الاسطبل بعد ان اشرفا على أكلهما وراحتهما ، ثم طلبا بعد ذلك حجرتين لاقامتهما ، وحينئذ قال أتوس لراؤول

ـ اعتن بزينتك لأننى سأقدمك الى بعض الناس بعد نصف ساعة .

وفعلا توجه آتوس وراؤول الى قصر الدوقة دى شيفريز سليلة امراء « لوين » . فقدم آتوس راؤول إليها ، وطلب وساطتها لالحاقه بالجيش فوعدت الدوقة بالتوسط لدى الأمير مارسياك والدوقة لونجفيل لتوصية قائد الجيش العام الامير كونديه به خيراً .

وفى المساء توجه آتوس وراؤول الى الأب « سكارون » الذى يمنعه المرض من مغادرة كرسيه المتحرك ، فوجدوا عنده خلاصة أهل الفكر والأدب ، ونائب المطران « جوندى » وأراميس أيضاً والدوقة دى شيفريز . التى اعطت راؤول خطاب التوصية الى الامير كونديه وفى ركن من الصالون اختلى آتوس بأراميس ونائب المطران جوندى واستغرقا فى مناقشة حامية ولكن بصوت خافت . وبعد

قليل من الليل استأذن أتوس فى الانصراف ، وقال لراؤول :
- نم هذه الليلة مااستطعت فهى آخر لياليك فى الحياة المدنية ، فانك راحل منذ غد الى ميدان القتال لتنخرط فى جيش الامير كونديه .

وما انبثق النهار حتى كان اتوس قد استيقظ وارتدى ملابسه وقد بدت على محياه امارات الأرق ، فإنه لم يغمض له جفن تلك الليلة ، لقلقه بسبب رحيل راؤول . وشرع يعد له معدات السفر ، فلما فرغ منها وقد ارتفعت الشمس فى كبد السماء ، فتح باب حجرته فوجده غارقا فى النوم ، فانحنى فوقه وقبل جبهته ، فاستيقظ الفتى واظهر الخجل لتأخره فى النوم ، وما هى إلا عشر دقائق حتى كان قد ارتدى ملابسه ، واراد يعد حقائبه فأدهشه ان يجدها قد أعدت ، فتناول إفطاره بسرعة ، وركب مع خادمه الخاص اوليفان ، وركب معهما الكونت ليودعهما جزءاً من الطريق .

وسار الرجل والغلام صامتين ، وراؤول يحس باقتراب ساعة الوداع ويشفق منها الى أن وصلا الى باب المدينة المسمى باب سان دينيس ، وكان يحرسه جنديان ، فقال احدهما بصوت مرتفع
- يبدو أن هذا شاب اخر فى طريقه للالتحاق بالجيش .
فقال له أتوس فى دهشة :
- ومن أدراك ؟
- شكله العام ، وسنه فهذا ثانى شاب يمر من هنا لهذا الغرض .
- احقا ؟
- اجل وقد مر الشاب الاول فى موكب وزينة تنبىء عن حسب حسيب .
فصاح راؤول مبتهجاً
- مرحي مرحي ! سيكون هذا الشاب خير رفيق فى الطريق ، ولكن واأسفاه ان يجعلنى انسى الرفيق الذى فارقته .
فقال آتوس
- لاأعتقد أنك ستدركه ياراؤول ، فستنتظر هنا قليلا لأننى أريد أن اتحدث إليك بعض الوقت .

وراح الاثنان يسيران ببطء مخترقين الحارات الضيقة المكتظة بالناس لمناسبة قرب عيد العنصرة ، إلى أن وصلا الى كنيسة كبيرة تتلى فيها الصلاة ، فقال أتوس حينئذ
- لنترجل هنا ولنترك الخيل بين يدى اوليفان .

وتناول اتوس سيفاً ودخل مع راؤول الكنيسة ، فركع امام الهيكل ، ثم تقدم منه اتوس وقال له :

ـ هذا هو سيفك أيها الشاب . وقد كان هذا السيف لأبى وكان أبى شريفاً شهماً كريماً . ثم حملته انا . فإذا كانت يدك لاتزال غضة لدنة لاتقوى على حمله حق حمله ، فان امامك فسحة من الوقت تتعلم فيهامتى ينبغى أن تجرده فلا ترده الى قرابه حتى تقوم له بحقه ، وما حقه إلا ان تنصر به حقاً ، وتمحق به باطلا ، وتنتصر به لضعيف ، وتقهر به طاغياً جباراً .

ـ أعدك ياسيدى ان اكون عند هذا الشرط .

ثم جرد السيف من غمده وقبل صفحته فى احترام عميق ، فأنهضه أتوس وعانقه وقبله . وكان هذا وداعهما .



كان لاراميه سجانا بالسليقة ، امينا فى أداء عمله ، ولم تكن فيه إلا نقطة ضعف واحدة ، وتلك هى شراهته وحبه المفرط لأطايب الطعام والشراب . فما أن فتح له الدوق كيسه وخوله حرية التصرف فى إعداد طعام العيد حتى راح يتفنن ، وطلب إلى صانع الحلوى أن يعد فطيرة ضخمة ، وقال له إنها للدوق دى بوفور كى يجود فى صنعها ولايهتم بالتكاليف فغير غريب إذن أن نجد لاراميه منذ صباح العيد الباكر منهمكا فى تفاصيل المأدبة ، وان ينتظر الساعة السادسة باللهفة والقلق اللذين ينتظرها بهما الدوق نفسه . ولما زار عند الظهر صانع الحلوى أراه فطيرة كالبرج فجرى الريق فى فم لاراميه ودخل على الدوق وهو يفرك راحتيه .

وتصادف لحسن الحظ أن كان الحاكم قد تغيب فى يوم العيد اعتماداً على همة لاراميه .وقضى الدوق الصباح فى لعب التنس مع لاراميه . وحرص جريمو على الجلوس فوق السور زيادة فى الحراسة ، وجعل رجليه إلى خارج السجن ، فكان ذلك علامة على ان هذا هو الموضع الذى سيربط فيه سلم الحبال . ولما بدأت المباراة بانتصار الدوق ، أظهر الدوق سروره بأن نفخ كل حارس جنيهين على سبيل العيدية كى يشربوا نخب صحته ، ثم انصرف لاراميه بعد ذلك إلى الاشراف على المعدات النهائية للعشاء المنتظر .

واخيرا حانت الساعة السادسة ، فاذا كل شىء حاضر جاهز ، وان كان العشاء لن يبدأ قبل السابعة . وكانت الفطيرة الهائلة الشهية موضوعة على الخوان ، ومن حولها ألوان الطعام . وقد بدا على الجميع التلهف والعجلة : الحراس كى يشربوا ، ولاراميه كى يأكل ، ودى بوفور كى يهرب . أما جريمو فكان الشخص الوحيد الذى لم يظهر على وجهه شىء فكأنه تمثال من الصخر ، حتى لقد كان الدوق يختلط عليه الأمر احيانا وهو ينظر إليه فيشك فى حقيقة الخطة ويعتقد ان الأمر كان حلما .

وصرف لاراميه الحراس كى يشربوا نخب صحة الامير ، فلما انصرفوا أغلق الباب ووضع المفاتيح فى جيبه ، واشار إلى المائدة كمن يقول :

- تحت أمر مولاى .

ونظر الأمير الى جريمو ، ونظر جريمو إلى المزولة ، وكانت تدل على أن الساعة لم تجاوز السادسة إلا بخمس عشرة دقيقة على الأكثر ، وكان الموعد ، أو ساعة الصفر بالتعبير العسكرى هى السابعة تمام ، فلابد إذن من الانتظار ثلاثة أرباع الساعة فتعلل الأمير لتضييع ربع ساعة أخرى بأنه يقرأ فصلا ممتعا يجب أن يتمه أولا . فراح لاراميه يتشاغل بفتح زجاجات النبيذ وتشمم الفطيرة ، تحايلا منه على تصبير عصافير بطنه الضاوية . فلما صارت الساعة السادسة والنصف قام الدوق وجلس إلى المائدة مشيراً الى لاراميه أن يجلس أمامه ، فلم يضيع لاراميه وقتاً فى المبادرة إلى إجابة دعوة الأمير . فابتسم الأمير وقال :

- بحق الشيطان يالاراميه ، لو قال لى قائل إن فى فرنسا كلها من هو أسعد منك فى هذه اللحظة لما صدقته .

- أرجو من الله أن يديم على هذه السعادة بدوام صحبة الأمير .

- يالها من أمنية طيبة أيها الرجل . أهذا جزائى منك ؟

- وماذا يريد مولاى من الحرية ؟ انك لو خرجت من هنا ، من هذا المعتقل الهين اللين ، فستقع فى بحر السياسة ، وتختصم مع أصحاب النفوذ فى البلاط فى الوقت الحاضر ، وتدخل الباستيل الفظيع ، ونار سجننا أهون ألف مرة من جنة الباستيل .

- صدقت ...

وراح الدوق يدير المناقشة على هذا النحو وهو يرقب عقارب المزولة ، حرصا منه على الموعد ، ثم قال أخيراً :

- أنت ترى إذن ياصديقى لاراميه انه من نكران الجميل أن أفكر أحيانا فى الهرب ؟ ولكنى أصارحك أن هذه الفكرة تراودنى بين الفينة والفينة . وفى ذهنى أربعون وسيلة للفرار من هذا السجن .

فراح لاراميه يصب لنفسه كأسا من النبيذ ثم رفعه فى مواجهة الشمس وراح يحدق فيه مستمتعا باحدى عينيه كما يحدق الواله فى محبوبته الحسناء ، وهو يقول فى لهجة من يفهم الدعابة ويقدرها :

- هلا حدثتنى يامولاى بوسيلة من هذه الوسائل الأربعين ؟

ورمق الدوق المزولة فوجدها تشير إلى السابعة إلا عشر دقائق . وفى هذه اللحظة حمل جريمو الفطيرة فوضعها أمام الأمير ، فتناول الأمير سكينة - وسلاحها من الفضة الخالصة كتعليمات السجن حتى لاتوضع بين يديه أسلحة حديدية قد تفيده فى الهرب - وهم أن يرفع الغطاء ، ولكن لاراميه خشى الا تجدى تلك السكين فى قطع الفطيرة فتفسدها ، فقدم إلى الدوق سكينه الفولاذية ، فقال

له الدوق وهو يتناولها :
- شكراً يالاراميه .
- ولكنك لم تحدثني يامولاى عن الوسيلة ؟
- اتريد تلك التى اعتبرها من بين الأربعين وسيلة أولاها بالاعتبار ؟
- طبعاً ...
فأخذ الأمير يحفر الفطيرة بيده وباليد الأخرى يرسم دائرة فيها بالسكين وهو يقول :
- قبل كل شيء يلزم أن يكون سجانى شابا شنهما مثل السيد الهمام لاراميه .
- جميل ! لديك يامولاى هذا السجان . وبعد ؟
- وبعد ذلك اغبط نفسى عليه !
فأحنى لاراميه رأسه تحية وشكرا . واستطرد الامير :
- ثم أعمل على أن يزكى بعض أصدقائى مساعداً له مخلصاً يساعدنى على إعداد العدة للهرب .
- خيال بديع .
- اليس كذلك ؟ ويحسن ان يكون ذلك المساعد وصيفاً سابقاً لنبيل من اعداء مازاران الخنزير الايطالى .
- من فضلك يامولاى دع الكلام فى السياسة .
- فمتى حصلت على ذلك الشخص أمكننى ان اتصل بأصدقائى عن طريقه فى الخارج ، وايضا عن طريق كرات التنس ! فألقى مثلا بالكرات إلى الخندق ، ويكون بعض اعوانى كامناً فيه فيرسل إلى الرسائل فى كرات التنس .
- يالها من فكرة ! لقد نبهتنى يامولاى وسآخذ حذرى من هذه الناحية
- ليس هذا فى ذاته شيئاً . بل يجب ايضا ان أبعث فى بعض كرات التنس برسائل كى يكون أصدقائى فى ساعة معينة كامنين ومعهم الخيل فى الجهة الأخرى من الخندق .
- ولكن يلزمك يامولاى جناحان للطيران من فوق السور إلى اسفل الخندق ، فالمسافة ستون قدما بالتمام والكمال .
- لدى وسيلة أخرى لاتقل عن الاجنحة .
- وماهى ؟
- لدى سلم من الحبال .
- هاها هاى ! ولكن سلم الحبال ، ولاتنس يامولاى ، لايمكن ارساله مثل الخطاب حول كرة التنس .
- ولكن يمكن ارساله فى شيء اخر .

- شيء آخر . هاها . شيء آخر مثل ماذا ؟
- فى فطيرة مثلا ، فلنفرض أن رئيس طهاتى نوارمون افتتح محلا للحلوى أمام السجن ، واستطاع الاستحواذ على لب لاراميه الجشع الشره بفضل مهارته الفائقة فى صنع الفطائر ، والبقية انت تعرفها ياسيد لاراميه ، والآن مثلا الساعة السابعة إلا بضع دقائق ، وهى ساعة الصفر لبدء عملية الهرب ، أرفع غطاء الفطيرة فأجد خنجرين . صه لاتتحرك وإلا غرست الخنجر فى كرشك البديع التكوين .

وقرن الدوق القول بالعمل فوضع سن الخنجر امام بطنه وسلم الخنجر الآخر إلى جريمو ، الذى اخرج من الفطيرة سلم الحبال دون أن ينبس ببنت شفه أو تتحرك فى وجهه عضلة واحدة . وصرخ لاراميه وهو يكاد يبكى قائلا :
- ارحمنى يامولاى ! أيهون عليك أن تقتلنى ؟
- كلا . مالم تعترض هربى .
- وإذا تركتك تهرب خربوا بيتى .
- سأدفع اليك مرتب وظيفتك طول حياتك .
- أأنت مصمم نهائيا يامولاى ؟ اذن تفضل بتقييد يدى ورجلى من خلاف وتكميم فمى جيدا حتى لااتهم بالتواطؤ معك .

وكان له ماأراد ، ثم اخذ الدوق المفاتيح وتقدمه جريمو كما وعده إلى ملعب التنس حيث ربط سلم الحبال ، وهبط عليه جريمو كشرطه أولا ، حتى إذا بلغ ثلاثة أرباع المسافة سقط فى الخندق ، فندت عن الدوق صرخة خوفا عليه ، اما جريمو فلم ينبس ، وأخرجه من الخندق الرجال المنتظرون بالخيل ، ثم أشاروا إلى الدوق كى يهبط ، فهبط ووجد أن الحبل ينتهى على ارتفاع خمسة عشر قدما من قاع الخندق ، بيد انهم طمأنوه إلى أن قاع الخندق مغطى بالحشائش الطرية . واستطاع الدوق أن يهبط سالما بفضل مهارته وقوته البدنية ، وقفز المسافة الباقية قفزة موفقة فلم يصب بسوء ، ثم تسلق جدار الخندق ، حيث وجد فى انتظاره الكونت دى روشفور ومعه سيدان لايعرفهما .

وكان جريمو قد اغمى عليه فربطوه فوق جواد ، وقال الدوق :
- أريد أن أشكركما ايها السادة ، ولكن ليس هذا وقته ، اما الآن فلا ينبغى أن نضيع لحظة واحدة .

وامتطى صهوة جواد ولكز بطنه بمهمازيه ، وصاح بأعلى صوته :
- من احبنى فليتبعنى !

وانطلقت الجياد تسابق الريح ، والدوق يملأ صدره من الهواء الطلق ، هواء الحرية التى كاد يقنط منها بعد سجن طال خمس سنوات .

جـــاء في ميعـــاده

وصل دارتانيان وتابعه بلانشيه إلى باريس ، واتجها إلى فندق العنزة الصغيرة حيث كان دارتانيان يتوقع أن يجد بورتوس فى انتظاره . وقد وجده هناك بالفعل ، فقابله بورتوس بالشكوى من سوء المقام في هذا الفندق المتواضع ، ومن وخامة الجو فى ذلك الحى . اما موسكيتن تابع بورتوس فكان شديد التذمر من سوء الطهو وقلة كمية الطعام ، فطيب دارتانيان خاطرهما وطلب الى بورتوس أن يركب معه لمقابلة الكردينال مازاران . وركب دارتانيان جواداً من جياد بورتوس الأصيلة فوصلا الى الباليه رويال في الساعة السابعة والربع وكانت الشوارع غاصة بالناس لأن اليوم كان عيد العنصرة . فراحت الجماهير تتطلع الى الفارسين باستغراب ، لأن أحدهما كان فاخر الثياب (وذلك هو بورتوس) والآخر كانت عليه كمية هائلة من غبار السفر الطويل .

فلما وصلا إلى قاعة الانتظار قابله زملاوه ضباط حرس الفرسان الذين كانوا يتولون الحراسة فى هذه الساعة بكل ترحاب . وكلف دارتانيان الحاجب بابلاغ نيافة الكردينال مازاران نبأ وصوله ، والتفت إلى صاحبه بورتوس الوجيه الضخم فوجده يعانى اضطراباً ظاهراً لرهبته الفطرية من الحكام وتهيبه لقاءهم مع ما بلغه من ثراء ومكانة ، فابتسم دارتانيان واقترب من اذن صاحبه وقال له هامساً :

ـ تشجع ياصديقى العزيز ، ولا تدع للحياء عليك سبيلا . فليس الكردينال الذى ستقابله هو كردينال الزمان الخالى ريشيليو ذا النظرة الثاقبة وعينى الصقر فليس هذا الذى يشغل مكانه الآن إلا غراب لاترهب له نظرة ولا يخاف له مخلب وأنى أحذرك أيها الصديق من الوقوف زنهار او الافراط فى الانحناء عند التحية ، والا استخف هذا الايطالى اللئيم بك ولم يحسن معاملتك .

وظهر الحاجب في هذه اللحظة يدعوهما للدخول ، فوجدا مازاران جالساً إلى مكتبه منهمكا فى شطب اكبر عدد ممكن من الاسماء من قائمة المعاشات والهبات الخيرية . وقد لمح دخول دارتانيان وبورتوس بطرف عينه بيد أنه تصنع عدم الاهتمام ، برغم غلبة السرور عليه وقال :

ـ أهذا أنت ياحضرة الملازم ؟ لقد أسرعت بالعودة ، وخيراً صنعت ، فمرحباً بك .

ـ شكراً ياصاحب النيافة وها أنذا رهن اشارتك ، وكذلك السيد دى غالون ، من أصدقائى القدماء ، وكان متنكراً فيما مضى تحت اسم بورتوس صيانة لاسم العائلة .

ـ أراه فارساً رائعاً .
ـ انه أحسن ضارب بالسيف فى المملكة ياصاحب النيافة .
فراح بورتوس ينحنى للكردينال تارة ولدارتانيان تارة اخرى شكراً على هذا الثناء . استطرد مازاران يقول :
ـ وأين صديقاك الآخران ؟
ـ لقد عوقهما عائق ، وسينضمان إلينا فيما بعد .
ـ وهل سمحت ظروف السيد بقبول العمل معنا فوراً ؟
ـ اجل ياصاحب النيافة ، وتطوعاً منه بدون مقابل ، لأن السيد دى براسييه دى فالون دى بيرفون واسع الثراء .
ـ اثرى هو حقاً ؟
فقال بورتوس بصوته العميق العريض
ـ خمسون الف جنيه سنوياً !
فكانت هذه أول كلمة قالها فى المقابلة . واستطرد مازاران يقول:
ـ وانت ياسيد دارتانيان ، الا تخدمنا تطوعاً ايضاً ؟
ـ انى رجل مخلص ، ولكنى افضل أن تكون للاخلاص نتيجة ما .
ـ وصاحبك ماذا يفضل أن تكون نتيجة اخلاصه ؟
ـ ان ضياعه الثلاث من أوسع مايمكن ، وأى واحدة فيها جديرة بأن ترقى إلى رتبة البارونية .
ـ أهذا كل ماهناك ؟ هذا امر يسير . وانت ماذا تريد ؟
ـ لقد مضت عشرون سنة منذ عيننى الكردينال الراحل ملازماً ..!
ـ والكردينال الحالى سيرقيك يوزباشيا . هذا أيضا ممكن . والآن اريد ان اكلمك فى سبب استدعائى اياك على عجل ، فاننى فى الواقع احتاج إليك بسرعة فى أمر صار يقلقنى كثيراً ...
وسمعت فى هذه اللحظة ضجة عالية ، وفتح باب المكتب ودخل منه رجل مغطى بالتراب وهو يصيح :
ـ أين الكردينال ؟
ـ ماذا جرى ياسيدى حتى تدخل هنا كأنك فى السوق ؟
ـ رويدك ياصاحب النيافة .. اريد مخاطبتك فى خلوة . فأنا ضابط الحرس فى ليمان فنسين .
فتنحى بورتوس ودارتانيان ، وهمس الضابط لمازاران بالخبر :
ـ لقد هرب الدوق دى بوفور من قلعة فنسين !
فصرخ مازاران واصفر وجهه وتهاوى على المقعد متخاذلا ، وقال :

- واين كان المحافظ ؟ واين كان لاراميه ؟
- كان المحافظ مسافراً . اما لاراميه فقد وجدناه في غرفة الدوق مقيداً . مكمم الفم . والى جواره خنجرا .
- والشاب مساعد لاراميه ؟
- انه أس البلاء . فقد كان من اعوان الدوق .
وصرخ مازاران صرخة اخرى دخل على اثرها دارتانيان وبورتوس . فلما عرفا المسألة قال دارتانيان للكردينال
- أراك تضيع وقتاً ثميناً . والاولى ان تأمر بمطاردة الهارب . فاقرب خط حدود يبعد ستين فرسخاً . واللحاق به ممكن .
- ومن الذى يطارده ويلحق به ؟
- اناطبعاً .
- وتعتقد انك تستطيع القبض عليه ؟
- ولم لا ؟
- إنه مسلح وحوله عصبة من اعوانه .
- لو امرتموني نيافتكم بالقبض على الشيطان نفسه لقبضت عليه من قرنيه وجئتكم به .
وقال بورتوس بحماس :
- وانا كذلك !
- هذا عظيم . ولكن الدوق لن يستسلم إلا بعد معركة حامية .
- وليس احب إلينا من المعارك فقد اشتقنا إليها منذ زمان طويل !
- خذا إذن معكما من تشاءان من رجال الحرس وأسرعا فى أعقابه وفقكما الله .
- اهذا امر صريح ياصاحب النيافة ؟
- اجل . وهذا هو توقيعى .
وتناول ورقة خط عليها سطراً ومهره بامضائه . وأعطاه لدارتانيان ولم ينس أن يقول لبورتوس :
- تذكر ياسيد دى فالون انك ستنال براءة البارونية بمجرد قبضك على الدوق دى بوفور .
ونظر إلى دارتانيان وقال له :
- اما انت فلا احدد لك مكافأة معينة ياسيد دارتانيان . ولكن إذا عدت بالدوق ان حياً او ميتاً صار من حقك ان تطلب مني ماتشاء بغير تحديد
فجذب دارتانيان يد صاحبه بورتوس الذى كان مشغولا بالانحناء وقال له :
- إلى جوادك يابورتوس !

وأسرعا يهبطان السلالم ، ومعهما كل من وجدوهما في غرفة الانتظار من رجال حرس الفرسان ، والكل يصيحون :

ـ الى الجياد . السابق السابق . اللحاق اللحاق !



الهب الفرسان جيادهم مجتازين الغابة بعد السهل . ودارتانيان وبورتوس فى المقدمة ، لقوة جواديهما ، أما بقية فرسان الحرس فتبعوهم متناثرين على حسب قوة ركائبهم .

ومن فوق ربوة فى الطريق أبصر دارتانيان جماعة من الأشخاص فى الجهة الأخرى من الخندق الذى يحيط بقلعة فنسين ، فأدرك أن السجين هرب من هذه الناحية ، وأنه لابد واجد أخباراً تفيده هناك ، فأسرع مع بورتوس الى تلك البقعة . فاذا الناس متجمعين حول الحبل المدلى من السور ، وسأل دارتانيان جاويشاً من جنود السجن عن الهاربين ، فعلم أنهم أربعة أصحاء معهم خامس مريض (جريمو) ، ففرح دارتانيان وبورتوس عندما علما قلة عددهم . وفرحا أيضاً حين علما أن الهاربين لم يسبقوهما إلا بساعتين وربع . ثم سأل الجاويش عن اتجاه الهاربين ، فاذا بهذا الغبى يزعمه سراً حربيا ولايبوح به إلا بأمر من محافظ السجن المتغيب فى هذا الوقت بضيعته فى الأقاليم !

وهناك لم يطق دارتانيان صبراً وهم أن يبطش بالجاويش ، لولا أن بورتوس كان أسرع منه اليه فلوى عنقه ، في حين وضع دارتانيان الورقة التى كتبها مازاران أمام عينيه اللتين جحظتا من الرعب ، فدلهما على الاتجاه الذى سلكه الهاربون ، فأسرعوا وراءهم ، بيد أن الجميع تخلفوا عن متابعة دارتانيان وبورتوس بنفس السرعة . ولكن هذين لم يتوقفا لانتظار الباقين اعتماداً على أن الهاربين أربعة فقط ، وهكذا قطع الفارسان اثنى عشر فرسخا فى ساعتين بغير توقف ، حتى بدأ الجوادان يرتعدان وينضحان عرقا وزبداً ، فاقترح بورتوس أن يتمهلا قليلا لاراحة الجوادين ، ولكن دارتانيان أبى ، فماهى إلا ساعة أخرى حتى سقط الجوادان إعياء . وتملكتهما الحيرة ، وإذا بهما يسمعان صهيل حصان يأتى من امامهما ، واخذا يتسمعان ، وإذا بموسكيتن تابع بورتوس يقبل عليهما راجلا بعد ان نفق جواده ، وفى هذه اللحظة سمع الصهيل مرة أخرى . وقدر دارتانيان المسافة بخمسمائة خطوة لاأكثر . فعلق موسكيتن على ذلك بقوله :

ـ تماما . فعلى هذه المسافة توجد محلة صيد .

فصاح دارتانيان :

ـ احمل غدارتيك ياموسكيتن ، وانت ايضا يابورتوس ، وأنا ايضا ، ولنسرع حتى نصل الى محلة الصيد فنغتصب باسم الملك ثلاثة جياد .

واتبعوا القول بالفعل . فوصلوا دون أن يسمع لهم صوت الى مكان يلوح منه الضوء بين الأشجار العالية ، فرأوا سائسا ومعه جياد رائعة ، فاقترب منه دارتانيان بخفة بعد أن أشار الى صاحبيه أن ينتظراه ، وقال للسائس :

ـ سأشترى هذه الجياد !

فالتفت اليه السائس مستغربا ولم يجب ، فانتهره دارتانيان ، فقال السائس

ـ إن هذه الجياد ليست للبيع .

ـ سآخذها إذن بدون بيع !

ثم وضع يده على أقرب جواد اليه . وكأنما كانت هذه إشارة لرفيقيه فهجما واستوليا على جوادين آخرين ، والسائس يستعطف ثم اعترف أخيرا بقوله

ـ الرحمة أيها السادة ، فقد قطعت هذه الجياد ستة فراسخ ولم تسترح إلا منذ نصف ساعة على الأكثر .

ـ لابأس . فنصف الساعة مدة كافية للراحة .

فلم يجد السائس بدأ من الاستغاثة ، فأسرع لنجدته ناظر الزراعة وأراد أن يرفع صوته بالاحتجاج والتهويل فقال دارتانيان :

ـ اسكت وإلا الهبت راسك بالرصاص .

ـ ولكن هذه جياد الدوقة دي مونبازون .

ـ عال ! فهذا ضمان لجودة الخيل . واعلم اننى من ضابط حرس الملك ، ولعلك تسمع الآن سنابك خيل رفقائى العشرة .

ولم يكن هناك صوت ، ولكن الرعب صور للرجل المسكين انه يسمع صوتا ، فأسلم امره لله وسكت .

وركض ثلاثتهم ساعة اخرى حتى كادت الجياد الجديدة تهلك ، وفى هذه اللحظة عثروا على جثة حصان فى الطريق . فعرفوا ان الهاربين يعانون نفس المأزق . ثم عثروا بجواد آخر مسرج يعانى سكرات الموت . فأدركوا أن الهاربين سمعوا وقع حوافر خيولهم فتركوا الخيل المجهدة وتفرقوا لائذين بالفرار ظنا منهم انهم كثرة ، فحفز ذلك أصحابنا الى الاسراع كي يلحقوا بهم بعد دقائق معدودة .



استمرت المطاردة بعد ذلك عشر دقائق ، ارتسمت بعدها فى الأفق نقطتان سوداوان انفصلتا عن المجموع ، ثم تمثلتا فى صورة فارسين فقال دارتانيان .

ـ آه ! إنهم يقبلون نحونا .

فاجابه بورتوس :

ـ سحقا لمن يأتي !

وصاح بصوت أجش :

ـ من هناك ؟

فلم يجب الفرسان الثلاثة (دارتانيان وبورتوس وموسكيتن) واستمروا فى ركضهم صامتين ، اللهم إلا من صوت السيوف تسل من أغمادها ، وملء الغدارات بالبارود والرصاص . ثم صاح دارتانيان :

ـ اللجم بين الأسنان !

فهم بورتوس مايعنيه ، وأمسك بيسراه مسدسه ، كما أمسك سيفه بيمينه ، ثم ارتفع الصوت الأجش مرة ثانية :

ـ من هناك ؟ لا تتقدموا خطوة واحدة أو تموتوا !

ثم سد الفارسان المجهولان الطريق وظهرت فى أيديهم الغدارات . فصاح دارتانيان فيهما :

ـ الى الوراء او تموتوا !

فانطلقت رصاصتان جوابا على هذا التهديد ، ولكن سرعة الهجوم الخاطف لدارتانيان وزميليه جعلت الهاجمين يرتكبان ، ثم أطلق دارتانيان غدارته عن كثب فسقط عدوه . اما بورتوس فجرح خصمه جرحا شديداً بسيفه والقاه عن جواده يتدحرج على بعد عشر خطوات . فصاح بخادمه :

ـ أجهز عليه يا موسكيتن أجهز !

واستمر دارتانيان وبورتوس في طريقهما بعد ذلك ، فطرق سمعهما طلق نارى من بندقية ، نفذ به موسكيتن امر سيده . فلم يلبث أن تبدى لهما فارسان آخران ، فلم ينتظر دارتانيان كلامهما بل بدا هو الكلام ، صائحا بصوته الهائل المزلزل

ـ افسحوا الطريق ! الطريق !

ـ ماذا تريد ؟

ـ الدوق !

فجاءهما الجواب فى صورة قهقهة عالية انتهت بأنين مرتفع ، لأن دارتانيان اخترق جسد هذا الضاحك الباكى بسيفه ، وفى الوقت نفسه انطلقت رصاصتان فى أن واحد ، من بورتوس وخصمه فالتفت دارتانيان فوجد بورتوس قائما إلى جواره ، فصاح مبتهجاً :

ـ مرحى مرحى يابورتوس . أراك قتلته ؟

ـ بل أحسبنى فقط جرحته . رباه ماذا دهى جوادى انا ؟

ـ دهاه ياعزيزى انه يسقط اعياء .

فقال موسكيتن

ـ أيريد سيدى جواداً آخر ؟ هاهو .

ـ ياللشيطان . كيف حصلت على هذين الجوادين ؟

ـ انهما جوادا القتيلين اللذين تركناهما وراءنا ، أحضرتهما معى .

وفي هذه اللحظة كان بورتوس قد أعاد حشو غدارته . وصاح دارتانيان
- انتباه ! هاهما اثنان آخران .
- لن ننتهى إذن حتى الصباح من القتال .
وفي هذه اللحظة نهض الشخص الجريح واطلق رصاصة على موسكيتن فانقض عليه بورتوس كالاسد الغاضب وهشم جمجمته بمقبض سيفه ، وحشا دارتانيان غدارته واستعد للقاء الخصمين الجديدين ثم امر بالهجوم صائحاً في الاعداء وقد ألهب وصديقه جواديهما بالمهماز :
- باسم الملك أفسحوا الطريق !
فأجابهما صوت مهيب رنان :
- لا شأن للملك هنا .
وانطلقت رصاصتان في آن واحد ، احداهما من دارتانيان والأخرى من خصم بورتوس فأطاحت رصاصة دارتانيان بقبعة خصمه ، اما رصاصة خصم بورتوس فأصابت عنق جواده فسقط على الأرض يئن . ورأى دارتانيان فوهة مسدس خصمه تتجه نحوه ، ومسدسه هو فارغاً فقنطر جواده ، أى جعله يشب على قائمتيه الخلفيتين فاستقرت الرصاصة في بطن الجواد وقفز دارتانيان من فوقه بخفة عظيمة ، وصاح الخصم :
- هذه مجزرة خيل وليست معركة رجال ! إلى سيفك ياسيدى !
ثم قفز إلى الأرض ليتساوى مع خصمه . وفي هذه اللحظة كان بورتوس قابعا خلف جواده المحتضر وفي كلتا يديه غدارة . واستعر القتال بين دارتانيان وخصمه بغير نتيجة حتى تطاير الشرر من السيفين فالتجأ دارتانيان إلى ضربته المعهودة ، وأحكمها كل الاحكام كي يطيح سيف خصمه من يده ، بيد أن الضربة خابت على خلاف المعهود ، فاغتاظ وصاح بلهجته الغسقونية :
- يا للأبالسة !
فتراجع خصمه وراح يحاول رؤية وجهه في الظلام . وفي اللحظة صاح بورتوس بالخصم الآخر :
- معي غدارتان فاحذر .
- سبب كاف كي تطلق انت أولا .
وانطلقت رصاصة بورتوس الأولى ، فأنارت كالبرق الخاطف ، وإذا أربع صيحات تدوى في سكون الليل :
- دارتانيان ! أراميس ! أتوس !
وإذا سيوف ترد إلى اغمادها ، وغدارات توضع في جيوبها ، وعناق وقبلات بين جثتي الجوادين ، ثم قال دارتانيان في حسرة :

ـ اانت الذى تحميه يا اتوس ؟ ويلى أنا التعس الذى أقسم ان يعود به حياً أو ميتاً !
ـ هاك صدرى اكشفه لك فاقتلنى يادارتانيان إذا كان هذا ينقذ شرفك أيها العزيز .
ـ ليس في الدنيا إلا مخلوق واحد يستطيع الحيلولة بينى وبين ما اعتزمت ، وشاء القدر أن يضع هذا المخلوق في طريقي ! ماذا أقول للكردينال ياربى ؟
فأجابه من جوف الظلام صوت مهيب قوى :
ـ قل له ياسيدى إنه ارسل فى اثرى الرجلين الوحيدين فى العالم اللذين يستطيعان جندلة أربعة فرسان شجعان ، ثم يلتحمان بعد ذلك التحام الند للند بغير تقصير مع الكونت دى لافير (اتوس) والشيفالييه ديربلاى (اراميس) ولم يستسلما إلا أمام مقاومة خمسين رجلا مسلحاً .
فصاح آتوس واراميس فى صوت واحد :
ـ الأمير !
وتراجع دارتانيان وبورتوس خطوة امام الدوق دى بوفور وصاحا :
ـ خمسين رجلا ؟ خمسين فارساً ؟
ـ انظرا حولكما إذا كنتما فى شك من قولى .
فنظرا حولهما فاذا حصار من عدد كبير من الفرسان ، واستطرد الأمير باسماً :
ـ لقدَ ظننت من ضجة معركتكم انكما عشرون رجلا ، فانثنيت مع جميع من معى متبرما بالفرار المستمر ، ورغبة منى فى تحريك سيفى فوجدت للأسف أننى امام رجلين اثنين . ولكنهما يعدلان عشرين . والآن سيفاكما أيها السيدين .
ـ سيفانا ؟! مستحيل !
وتحرك بضعة رجال من جنود الأمير ، بيد ان اتوس أوقف الحركة باشارة من يده وانتحى بالدوق جانباً وهمس فى اذنه بضع كلمات . فلم يلبث الدوق أن قال :
ـ لك هذا ياكونت . فلا أستطيع ان أرد لك أول طلب تطلبه مني وانت ذو الفضل والمنة . تقهقروا أيها السادة وافسحوا الطريق للسيدين دى فالون ودارتانيان . فهما حران طليقان .
وهكذا ترك الأصدقاء الأربعة وحدهم ، فراحوا يتأسفون على هذه الخصومة ، وراح كل من الفريقين يحاول كسب الآخر لصفه . وأخيراً اتفقوا على موعد للقاء فى باريس فى مساء اليوم التالى . فى الساعة العاشرة فى الميدان الملكى . للتفاوض فى هذا الأمر . ثم افترقوا ليذهب كل منهم فى طريقه ، على أن يذهب بورتوس ودارتانيان لابلاغ خيبتهما إلى مازاران . وإذا بدارتانيان وبورتوس وقد

تركا وحيدين يريان رجلا يمسك فى يده عنانى جوادين ، فحسباه موسكيتن . فاقتربا منه . وإذا بهما يتبينان أنه جريمو ، وأن الجوادين هدية من سيده أتوس ثم تركهما جريمو ولكن فى طريق آخر ، لكى يلحق براؤول ـ كما قال لهما ـ المسافر إلى ميدان القتال . بيد أنه لم يلبث أن عدل عن ذلك الطريق كى يعنى أثناء السفر بجرح موسكيتن الذى أصيب به فى عجيزته الضخمة فأصبح لايستطيع الركوب .

فلما وصلوا الى باريس بعد ثلاث ساعات ، كان قد سبقهم اليها ساعى بريد خاص يحمل رسالة من الدوق إلى مازاران يشهد فيها ببسالة بورتوس ودارتانيان ، ابراء لذمتيهما .

وطبيعى أن الكردينال كان قد مضى ليلته قلقا مهموما ، ليتلقى عند انبلاج الصبح رسالة من عدوه اللدود يبلغه بنفسه انه حر طليق ، وأنه سيناصبه العداء حتى الموت .

يتاهبون للقاء

جلس بورتوس ودارتانيان في فناء فندق العنزة الصغيرة ، وكان دارتانيان مقطب الوجه عبوساً وقد رجع لتوه من البالية رويال فابتدره بورتوس :
ـ أراه قد أساء استقبالك ياصاحبي .
ـ اي والله ! فانه وربي لبهيم أعجم ، وقد رويت له ماحدث بالصدق فلما عرف ان ثلاثة من خيولك قتلت سألني عن ثمنها ، فقلت الف ريال ، فدفعها تحويلاً على بنك ليون ، ولم يزد على ذلك درهماً واحداً نظير ماتجشمناه من الأهوال . مع انني اديت له خدمة كبرى ، ولو دون ان ادرى .
ـ أي خدمة ؟
ـ الا تذكر أننا حين خروجنا للمطاردة من باب سان جان ، دهمت بجوادى في المقبرة القريبة من هناك رجلا ضئيلا ؟ هذا الرجل هو المستشار بروسل من اعضاء البرلمان والد أعداء مازاران .
وفي هذه اللحظة دقت ساعة الكنيسة القريبة التاسعة ، فانتفض دارتانيان ، لان موعدهما مع الصديقين الآخرين في العاشرة . وأبدى دارتانيان تخوفه من أن يكون هناك كمين منصوب وراء ذلك . ولم يكن ذلك التخوف حقيقياً بل مجرد تعلل لعدم الذهاب ، بيد ان بورتوس الطيب القلب راى في ذلك التخوف دافعاً أشد على الذهاب حتى لايتهما بالجبن ، ورأى وجوب الاحتياط والتسلح ، وان يصحبهما بلانشيه ببندقيته ولكن دارتانيان ذكره بأن بلانشيه من انصار المعارضة ، فهو الذي أطلق سراح الكونت دى روشفور . وانتهى الأمر إلى إقناع بلانشيه بأنه ذاهب معهما لحراستهما لا لخدمة مآرب مازاران .
وفي هذا الوقت عينه كان آتوس وأراميس يدخلان باريس يتبعهما بازان . أما جريمو فنحن نعلم انه بقى مع موسكيتن للعناية به على أن يتوجه مباشرة للحاق براؤول في الميدان . وقال آتوس لصاحبه :
ـ يحسن ان ندخل خاناً لتبديل ثيابنا وكي نترك فيه سيوفنا وغداراتنا وبندقية خادمنا قبل أن نذهب إلى الموعد .
فقال الراهب أراميس :
ـ أرى بالعكس انه يجب ان نذهب مسلحين ، فمن يدريك ان الكردينال لاينتهز هذه الفرصة ويقبض علينا بكمين منصوب ؟

- ولكن كيف نذهب مسلحين وسيأتيان هما اعزلين ؟
- اطمئن ياصديقي فأنا اضمن لك انهما سيأتيان مسلحين ، ثم لدينا عذرنا في اننا قادمون من سفر .

فاقره أتوس على رأيه ، واستأنفا سيرهما ، إلى ان بلغا اسوار الميدان الخالي فلمحا عند أول شارع القديسة كاترين ثلاثة فرسان هم دارتانيان وبورتوس ملتفين في معطفيهما ليخفيا السيوف . ومن خلفهما بلانشيه وعلى فخذيه البندقية ، فترجل الفرسان الأربعة الاصدقاء وتبادلوا تحية مهذبة ، ثم قال آتوس :

- اين تحبون ان نتحدث ايها السادة ؟

فاقترح اراميس أن يدخلوا الحديقة المحيطة بقصر رومان ويتحدثوا في ظلال الأشجار بنجوة من الأسماع ، فوافق الجميع على هذا الراى .

***

دخل اربعتهم وكل من الفريقين يتوجس من الآخر ، فلما جلسوا على مقاعد الحديقة الخالية الساكنة المعتمة ، بدأ أتوس الحديث بكلمة مجاملة :
- ايها السادة ، ان هذا الاجتماع دليل جديد على قوة صداقتنا العريقة .
فقاطعه دارتانيان قائلا
- اسمع ياسيدى الكونت ! افضل لو تركت جانباً هذه المجاملات التي قد لانستحقها نحن ولا انتم ! ونحسن صنعاً لو تكلمنا بدلا من ذلك كلاما صريحا تتكاشف به القلوب في وضوح وإخلاص .
- ليس احب إلي من هذا ، فأنا رجل صريح احب الصرحاء . فتكلم انت وقل لنا هل لديك ماتأخذه على أو على الأب اراميس ؟
- أجل ، فقد كان لي شرف التحدث اليك في قصر براجيلون . وقد حملت اليك عرضاً معيناً فهمته كل الفهم ، فبدلا من ان تجيبني إجابة صريحة كما يجمل بالاصدقاء ، حاورتني وداورتني كأنني طفل . فاذا كانت صداقتنا قد تعرضت للقطيعة ، فما كان ذلك بالتقاء سيفينا ليلة امس ، بل في ضيافتك في قصرك .
فصاح أتوس في عتاب رقيق :
- دارتانيان !
- لقد طلبت منى ان اكون صريحاً ، وهاك هو القول الصريح . لقد سألتني رايي ، وهذا هو رايي . وأما عن اخي اراميس ، او سيادة الأب ديربلاى ، فانه قد فعل معي مثلما فعلت ، فنافقني ولم يصدقني كما صدقته .
فصاح اراميس في وقار واستنكار :
- إن امرك لغريب ياسيدى ! لقد اتيت حقا لزيارتي ولتعرض علي عرضا معينا ، ولكن هل صارحتني بهذا العرض ؟ إنك لم تصارحني ، ومع هذا فقد

تركتك تدرك بالتلميح اننى من انصار المعارضة . ثم ماذا يغضبك ـ ولك رايك ومعسكرك ـ ان يكون لنا راينا ومعسكرنا ايضا ؟

ـ انا لا الومك ياسيدى . ولكن كلام الكونت عن الصداقة هو الذى جرنى إلى فحص صلتى بك وسلوكك معى .

ـ فماذا وجدت ؟

ـ وجدته سلوكا جديراً بتلميذ لليسوعيين !

ونهض دارتانيان ، فنهض بورتوس ، فنهض الآخران ، وبدا الموقف ينذر بالشر . وتحركت يد اراميس نحو سيفه ، بيد ان آتوس استوقفه ثم بدا يعالج الموقف باللباقة مع الاباء إلى أن استطاع إقناع دارتانيان وأراميس ان يكسر كل منهما سيفه ، ثم رفع آتوس يده اليمنى الى السماء وقال :

ـ اقسم بالله العظيم الذى يرانا ويسمعنا فى هذه الليلة الحالكة الظلام ، ان سيفى لن يمس سيوفكم . وان عينى لن تفيض عنها نظرة غضب ، وان قلبى لن يضمر الحقد عليكم ، فقد عشنا معا ، واحببنا معا ، وحاربنا معا . فماذا يمكن ان يكون مازاران بالقياس الى ريشيليو الذى ارغمنا انفه ؟ وماذا يستطيع لنا هذا الامير او ذاك ، ونحن الذين ثبتنا التاج على راس ملكة ؟ اكرهونى إن استطعتم اما انا فسأحبكم واقدركم ما حييت .

وساد الصمت بعد ذلك لحظة ، حتى قطعه اراميس قائلا :

ـ وانا اقسم اننى لم اعد اضمر الكراهية لأحدكم ، واعلن ندمى على اشتباكى فى معركة الأمس ، واتعهد الا احاربكم او احارب احدا منكم فى المستقبل . والآن هيا بنا ياآتوس ننصرف .

فصاح دارتانيان :

ـ كلا كلا لا تذهبا . فعندى انا ايضا قسم اريد ان اؤديه . فاقسم ان اضحى إلى آخر قطرة من دمى فى سبيل الاحتفاظ بتقديركما ومحبتكما

ثم ارتمى بين ذراعى آتوس الذى احتضنه وهو يقول

ـ ولدى .. ولدى ..

اما بورتوس فلم يعطه الله نعمة البلاغة وإن اجزل له نعمة البدانة ، فاكتفى بأن يقول

ـ اما انا فإذا كتب على ان احاربكما ، فاحسبنى سأترك سيفكما يخترق صدرى ويخرج من ظهرى بلا مقاومة ، لأننى لم احبب فى الدنيا سواكما .

وارتمى بورتوس الهائل وهو يبكى بدموع غزيرة بين ذراعى اراميس ، وهكذا افترق الأصدقاء الاربعة مختلفين فى الراى ولكن متفقين فى المحبة متعاهدين على عدم الاشتباك معا فى قتال من اجل السياسة

راؤول و « دى جيش »

تركنا راؤول وخادمه اوليفان في طريقهما الى ميدان القتال في الفلاندر ، وقد نزلا في بعض الطريق بخان للراحة بقرية فريرى . وكلف راؤول خادمه أن يسأل عن الشاب الذى قال حارس بوابة سان دينيس في باريس انه سبقه بساعات ليلتحق بالجيش ، فقد كان راؤول متعطشا الى رفيق من سنه ، فعلم أنه لايزال يسبقه ، فأسرع في السفر على أمل اللحاق به ، الى ان بلغ نهراً يعترض الطريق عن بعد ورأى على شاطئه مجموعة صغيرة تستعد لعبوره في قارب معد لهذا الغرض .. وحاول راؤول إدراك هذه الجماعة ، لأنه توقع ان ضالته فيهم . ولكنهم كانوا أسبق منه الى ركوب القارب ، الذى أقلع بهم فعلا ... ثم حجبتهم عنه أثناء ركضه بجواده ربوة توسطت بين بعض الطريق وشاطىء النهر ، ولما تجاوزها رأى منظراً عجباً : رأى القارب وقد انقلب وسقط من فيه في النهر ، وأشرف واحد منهم على الغرق . فلكز راؤول جواده وأسرع الى النهر ، ثم قذف نفسه فيه بجواده ، حتى أدرك الغريق وأخرجه الى شاطىء النجاة .. وساعده على ذلك طبعاً أنه تربى على شواطىء نهر اللوار العريض وكثيراً ماعبره سابحا تارة ، وفوق جواده تارة أخرى ، فهو وجواده يحسنان السباحة والعبور من شاطىء الى شاطىء .

ولم يكن إنقاذ الغريق من الأمور الهينة مع هذا كله ، لأن التيار كان شديداً والنهر كان في موسم فيضانه ، فلم يستطع إخراج الشاب من الماء إلا بعد أن اغمى عليه لكثرة مابذل من المجهود . أما الآخرون فكانوا قد تعلقوا بقصبة القارب فوصلوا الى البر سالمين وبعد عملية الافاقة فتح الشاب عينيه وأخذ يشكر راؤول على نجدته التى انقذت عمره ، ثم قص عليه كيف انقطع حبل القارب الذى يربط الضفتين وكيف صاح بعض الركاب فزعا فجفل جواده وقفز به الى الماء وانقلب القارب .

ثم تعرف الشابان ، فاتضح ان الشاب الذى كان مشرفا على الغرق لولا أن انقذه راؤول هو الكونت دى جيش نجل الماريشال دى جرامون . وهكذا ارتبط هذان الشابان برباط الوفاء ، كما ربطتهما غاية واحدة وهى الانضمام الى الجيش المحارب في الجبهة تحت امرة الأمير كونديه .

واقام الشابان برهة وجيزة فى قرية نويون ، استمتعا فيها بالطعام والنوم . وقد امل راؤول ان يصل فى هذه الفترة جريمو ، بيد ان أمله خاب ، واضطر الى الرحيل مع الكونت دى جيش فى الساعة السادسة صباحاً بعد افطار عاجل . واستمر المسير الى الساعة الرابعة بعد الظهر حيث نزلت المجموعة مدينة اراس ، وهى أول عتبة من أعتاب ميدان القتال ، وقرر الشابان قضاء الليلة فيها ، لأن السير فيما وراءها غير مامون العاقبة ليلا ، لانتشار الكتائب الاسبانية المعادية التي تقتنص المحاربين الفرنسيين .

وسمعا فى تلك الليلة ان معركة على وشك النشوب ، وانه من المنتظر أن تكون هذه المعركة حاسمة . فالأمير كونديه لم يماطل فى الاشتباك اشتبا كا حاسما مع العدو طول هذه المدة عن طريق المناورات ،إلا انتظارا لوصول المدد . وقد وصل المدد اخيراً .

وكان لهذا النبأ وقع سار جداً على الشابين ، لتشوقهما الى الاشتراك فى اقرب وقت فى موقعة حامية حقيقية . وتناولا عشاءهما معا ثم ناما فى الغرفة نفسها . وقد خيل اليهما انهما متعارفان منذ ولادتهما ولم يفترقا قط . اما السهرة فقد انقضت في الكلام عن الحرب فى حين كان الخدم ينظفون الأسلحة ويحشون البنادق والغدارات .

وفى الصباح التالى استانف الشابان سيرهما فى الساعة السابعة بعد تناول طعام الافطار مباشرة . ووصل ركبهما الى ابلان بدون حادث ، وهناك علما ان الامير كونديه قد غادر مركز قيادته فى « بيتين » وانتقل الى موقع متوسط بين « كيران » و « فينتى » فقررا سلوك طريق فرعى مختصر يوصل الى هذا الوضع ، وسرعان مابدت أمام ناظريهما غابة كثيفة ، فلما صار الركب على بعد مائة خطوة من هذه الغابة قام مربى الكونت الذى يصحبه فى هذه الرحلة بارسال خادمين لاكتشاف الطريق ، وسرعان ما اختفى الخادمان بين الأشجار الملتفة ، واوغل وراءهما الشابان ، ومن ورائهما الخادم أوليفان على بعد مائة خطوة للحراسة وحماية المؤخرة .

وعلى حين فجأة سمع طلق نارى يتردد فى انحاء الغابة ، فصاح المربى :

ـ قف !

وصدع الشابان بالامر فأوقفا جواديهما ، وفى اللحظة ابصرا الخادمين راجعين نحوهما بأقصى سرعة ، فاسرع الشابان نحو الخادمين لسؤالهما عن حقيقة الامر .

ـ هل منعكما احد من المرور ؟

ـ كلا ، بل الأرجح أنهم لم يرونا ، فقد اطلقت النيران على بعد مائة خطوة

منا ، ومن اشد بقاع الغابة ازدحاما بالأشجار ، ولكننا راينا أن نعود لتلقى التعليمات . فبماذا تأمرون ؟

فقال المربى فى حزم :

- ان رايي ، بل إرادتي وأمرى ، أن نرجع ، فربما كانت هذه الغابة مكمنا للاعداء فلا يجب أن نقع فيه .

فسأل الكونت خادميه :

- فأنتما إذن لم تريا شيئا .

- خيل الينا اننا راينا فرسانا وعليهم اردية صفراء

وعندئذ صاح المربى متحمساً .

- الم اقل لكم إنه كمين من الاسبانيين ؟ هيا نرجع .

فتشاور الشابان بالنظرات ، وفي هذه اللحظة سمعت طلقة غدارة تلتها صرخات ثاقبة في طلب النجدة ، فتبادل الشابان نظرة صاح بعدها راؤول :

- إلى ياأوليفان . تعال ورائى .

كما صاح الكونت دى جيش :

- الى ياأوربان !

وقبل أن يتبين المربى الحقيقة . كان الأربعة قد اختفوا في بطن الغابة باقصى سرعة تستطيعها جيادهم - وبعد خمس دقائق وصلوا إلى المكان الذى كان المفروض أن صوت اطلاق النار صدر منه وهناك راحوا يتقدمون ببطء ثم بدأالهمس :

- صه . أرى فرسانا .

- اجل . ثلاثة على الخيل وثلاثة راجلين .

- ماذا يصنعون ؟ أتراهم ؟

- أجل . يبدو لى أنهم يفتشون رجلا جريحاً او ميتاً

- هو اذن اغتيال دنيء

- فلنهجم !

- لنهجم .

وأحس بهم الاسبان ، فأسرع الفرسان الثلاثة بجيادهم لملاقاة الشابين ، فى حين انصرف الثلاثة الراجلون إلى سلب الرجلين اللذين صرعوهما . فلما صارت المسافة بين الفريقين عشر خطوات أطلق دى جيش النار فلم تصب خصمه ، وأطلق اسبانى غدارته فأصابت ذراع راؤول الأيسر ، بيد أن راؤول احتفظ برباطة جأشه وأطلق النار على خصمه من مسافة أربع خطوات فأصابه فى صدره فخر صريعا على صهوة جواده فانطلق به الجواد لايلوى على شيء .

وفي هذه اللحظة رأى راؤول من خلال الدخان فوهة غدارة تتجه اليه . فقام بالحركة التي تعلمها من أتوس . إذ شب بجواده على قائمتيه الخلفيتين فأصابت الرصاصة بطن الحصان وسقط على الأرض ، قبل أن تسنح الفرصة لراؤول بتخليص قدمه من الركاب فهجم خصمه عليه محاولا تحطيم جمجمته بمقبض الغدارة . وفي أسرع من لمح البصر كان دى جيش قد وضع غدارته على عنق الاسباني ودعاه للتسليم . فسقطت الغدارة من يد الاسباني ورفع يديه الى اعلى مستسلماً . فقام احد الخدم بحراسته والبندقية في يده وهو على اتم استعداد لاطلاق النار على راسه إذا حاول الهرب .

وترجل دى جيش عن جواده واقترب من راؤول ليطمئن عليه ، فقال له راؤول مازحا :

ـ ماهذا ياسيدى ؟ هل أنت حريص على الوفاء بديونك بهذه السرعة ؟ لقد انقذتنى كما انقذتك ، ودقة بدقة .

ـ الواقع ان خصمى ركن إلى الفرار فترك لى الفرصة كى اساعدك على خصميك ، والآن هيا بنا لنستأنف طريقنا .

ـ أجل ، ولكن يجب أولا أن نفحص حالة المسكينين اللذين صرعهما هؤلاء الاسبان غيلة وغدراً . فربما كانا جريحين فقط فيتسنى لنا انقاذهما .

ـ هذا هو الرأى الصواب ، فهيا بنا ننظر فى امرهما .



انحنى الشابان ودى جيش فوق الجريحين فاذا أحدهما ميئوس منه ، وهو قسيس قرية « بيتين » ، وكان مهاجراً منها بأدوات الهيكل عقب صدور امر الأمير كونديه بمغادرة القرية على حسب خطته الموضوعة ، اما الآخر فكان رجلا مدنياً اعترف لهما بأنه خبير بالجراحات ، وهو لهذا موقن من خطورة حالته ، ورجاهما أن ينقلاه إلى مكان أمين ثم يحضران له كاهناً ليتلقى اعترافه ، فواعده بذلك وعد الشرف ، ثم نقلاه إلى اقرب خان على بعد فرسخ ، وخرج الشابان يبحثان عن قسيس . فما أن سارا عشر دقائق حتى ابصرا راهباً شاباً عابس الوجه فحاولا الكلام معه ، ولكنه نفر منهما بخشونة ، فاضطر الكونت دى جيش أن يغلظ له ، حتى اضطره إلى التوجه معه إلى حيث يرقد الجريح المحتضر فى حجرة بالخان ، وهما يعجبان للشر والحقد المرتسمان على وجه هذا الراهب الذى لايجاوز العشرين إلا بسنوات قلائل .

واستأذنا من الجريح لعجلتهما وتركاه مع الراهب فى الخلوة ، وترك راؤول لصاحب الخان مبلغاً طيباً لتكاليف الجريح ، وكلفه حين حضور جريمو أن يدله على اتجاهه .

ويحسن هنا ان نذكر ان زوجة صاحب الخان عندما وقع بصرها على الجريح ارتعدت فرائصها ، فلما سألها زوجها عن السبب قالت إن هذا الرجل هو جلاد قرية « بيتين » السابق ، وسمع الراهب هذا الكلام ، فلمعت عيناه ، ودخل على هذه الحال لتلقى اعتراف المحتضر ، بينما وقف بالباب مربى الكونت دى جيش، وخادمه وخادم راؤول اوليفان حتى أغلق الباب فركبا ولحقا بسيديهما ، وماهى إلا لحظة حتى وقف بباب الخان فارس مقطب الجبين نزر الكلام هو جريمو ، فنزل ليستريح ويأكل ويتسقط أخبار سيده . وما ان جلس إلى المائدة وهم أن يتناول كأسه الاول ، حتى خرجت من غرفة المحتضر صرخة ثاقبة ، فسأل جريمو رب الخان عن سببها فقال :

ـ هذا جلاد بيتين السابق جريحاً يدلى باعترافه الأخير لأحد الرهبان ، ويبدو أنه يتألم من جروحه .

ـ أتقول جلاد بيتين السابق ؟ أهو رجل يتراوح عمره بين خمس وخمسين وستين سنة ، طويل القامة قوى البنية ذو لحية سوداء ؟

ـ هو كذلك ، ولكن لحيته وخطها الشيب ، فهل تعرفه ؟

ـ رأيته ذات مرة .

وحينئذ انطلقت صرخة أشد كثيراً من الصرخة الأولى ، سرعان ماانتهت بأنين . فهجم جريمو على الباب وحاول فتحة بالقوة فوجده مغلقاً بالمزلاج من الداخل ، فجعل رب الخان يدق الباب بقبضته ويصيح :

ـ افتح ياسيدى الراهب . افتح فى الحال .

فلما لم يحظ بجواب تناول جريمو فأساً وحطم الباب ، فلم يجدا للراهب اثراً ووجدا الجريح غارقا فى بركة من الدماء ، فصاح جريمو فى صاحب الخان :

ـ اذهب واستنجد كى يقبض الناس على الراهب الذى فر من النافذة ، فهذا خنجره مدفوناً إلى مقبضه فى صدر الرجل .

***

وهذا هو ماحدث فى الغرفة :

بدأ الرهب بسؤال الجريح هل هو حقيقة بيتين السابق ، فأكد له الرجل انه ترك المهنة منذ خمس عشرة سنة ، وانه لم يقتل احداً إلا بأمر الشرع والقانون ، ثم شرد بصره قليلا كمن يتذكر شيئا بعيد العهد ، وقال :

ـ ولايثقل على ضميرى إلا حادث واحد كانت ضحيته امراة شابة ، ولا زلت حتى اليوم وقد انقضى على ذلك عشرون سنة ، اتمثل صورة هذه المراة فانتفض ندماً .

ـ اذكر قصتها بالتفصيل كى استطيع منحك الغفران .

ـ كان ذلك ذات مساء منذ عشرين سنة ، حين أتاني رجل واطلعني على امر كتابي فتبعته ، حيث وجدت اربعة من الاشراف اقتادوني وعلى وجهي قناع كي لااري الطريق ، فسرنا نحو ست فراسخ صامتين ، ثم دلوني من خلال نافذة على امراة شابة وقالوا لي : هذه فريستك .

ـ وهل أطعت ؟

ـ لقد كانت هذه المراة ياسيدي الاب وحشا خرافياً ، فقد قتلت بالسم ـ كما قيل لي ـ زوجها الثاني ، ثم حاولت قتل شقيق زوجها الذي كان بين هؤلاء السادة ، ثم سممت أخيراً امراة شابة كانت تنافسها في الحب ، ثم تسببت بالتحريض في اغتيال الدوق باكنجهام قبل مغادرتها انجلترا .

ـ لقد كانت هذه السيدة انجليزية إذن ؟

ـ كلا ياابي ، بل فرنسية تزوجت انجليزيا .

فاكفهر وجه الراهب وأقفل الباب بالمزلاج ، ثم عاد اليه يسأله :

ـ ومن كان هؤلاء السادة ؟

ـ كان أحدهم انجليزيا والأربعة الآخرون من ضباط فرسان الحرس .

ـ وما اسم هذه المراة .

ـ لاأدري ، وان كنت أعلم انها تزوجت مرتين المرة الأولى في فرنسا والمرة الأخرى في انجلترا ، وهي شابة في الخامسة والعشرين شقراء بارعة الجمال ، في عينيها بريق عجيب .

ـ وكان صوتها ناعماً عذبا كأنغام الموسيقى !

ـ اجل ياابي ، ولكن كيف عرفت ؟

فمال الراهب الشاب فوق وجه المحتضر وحدق فيه تحديقا وحشيا وقال :

ـ وقد قتلتها انت ؟ ولم ترحم شبابها وجمالها وضعفها ؟

ـ ولكنها ياابي كانت تخفي تحت هذا الستار نفساً خبيثة . لقد كانت داعرة ، أغوت شقيقي الراهب وهربت به من الدير حتى إذا شبعت من احضانه بعد ليال لفظته لفظ النواة .

ـ إذن أنت تعرف اسمها العذري قبل أن تتزوج ؟ ماهو ؟

فراح المحتضر يتلوى في أنفاسه الأخيرة ويصرخ طالبا كلمة الغفران .

ـ اسمها او لا غفران .

ـ أن دي بيي !.

فصرخ الراهب صرخة عجيبة ثم قال :

ـ انا امنحك الغفران ؟ وكيف امنحك إياه وانا لست كاهناً ؟

ـ ما انت إذن ؟

ـ سأقول لك من أنا : أنا جون فرانسيس دي ونتر !
ـ لاأعرفك .
ـ تمهل تمهل ! فستعرفني جيداً . فهذه المرأة هي أمي .
فأطلق الجلاد صرخته الأولى وجعل يصيح :
ـ اغفر لي ، اغفر لي ، ان لم يكن باسم الله ، فباسمك . وان لم يكن غفران أب مقدس فغفران ابن ناقم .
فصاح الراهب المزيف :
ـ اغفر لك انت ؟ قد يغفر الله لك ، اما أنا فلا !
ثم اخرج من بين طيات ثوبة خنجراً مسنونا ذا حدين فغرسه في صدر الرجل المحتضر حتى غاص إلى المقبض وهو يقول :
ـ هذا هو غفراني !
وعندئذ سمع من بالخارج الصرخة الثانية التي اعقبها الأنين ، وحاول الجلاد النهوض من فراشه فسقط على الأرض . أما الراهب المزيف فانه ترك الخنجر في صدر ضحيته وأسرع إلى النافذة فقفز منها ، واجتاز الحديقة الخلفية إلى الاسطبل . فركب بغلته من باب خلفي إلى أقرب غابة . وهناك خلع ثوب الرهبنة ، واخرج من الخرج ثوبا مدنيا كاملا ، ثم مشى على قدميه إلى أقرب محطة بريد فاشترى جواداً وامتطاه . ثم أطلق له العنان في طريق باريس .

***

ظل جريمو إلى جانب الجلاد ، وركعت زوجة صاحب الخان تصلي ، اما صاحب الخان فخرج يستغيث ، ثم فتح الجلاد عينيه ، فحدق في جريمو ثم تذكره ، وعرف فيه أحد الخدام الأربعة الذين كانوا يرافقون الفرسان الأربعة واخبره بحقيقة المزيف ، فسألة جريمو متلهفا :
لقد اعترفت له إذن مخدوعا بزيه ؟ هو إذن يعرف الآن الاسماء ؟
ـ لم ابح بأي اسم . ولكنه عرف أن عمه كان بين القضاة ، فأسرع على كل حال لتنذر سيدك كي يحتاط لنفسه .
ثم لفظ الرجل نفسه الأخير ، فأسرع جريمو بامتطاء جواده وهو مقسم الفكر بين اللحاق براؤول في جبهة القتال ، وبين الذهاب إلى باريس ليخبر سيده ويحذره ، واخيرا استقر رايه على التوجه اولا إلى راؤول لأنه لايسبقه إلا بساعة زمن ، وسيكون في استطاعته ان يطمئنه ويطمئن عليه ثم يتجه إلى باريس فورا .

وكان راؤول جالساً مع الكونت دي جيش ومربيه في حانة القرية حين فتح الباب ودخل جريمو مكفهر الوجه ، مغطى بالتراب ، ملوثا بدم القتيل ، فنهض راؤول وأسرع نحوه منزعجاً وسأله

- كيف تركت سيدى الكونت ؟ لماذا أنت شاحب الوجه ؟ ماهذا الدم ؟

- هذا دم الرجل المسكين الذى تركته فى خان القرية يدلى باعترافه الأخير للراهب . وقد مات المسكين بين ذراعى .

- بين ذراعيك ؟ أنت تعرفه إذن ؟ من هو ؟

- انه جلاد بيتين السابق .

- وهل كنت تعرفه ؟

- اجل .

وبدا على وجه جريمو من الاضطراب ما أقلق راؤول والكونت دى جيش فعز ماعليه أن يجلس ليستريح ويتناول شيئا ، وبعد ذلك يستأنف الحديث ولكن جريمو رفض الانتظار واعلن عزمه على الركوب إلى باريس فى هذه اللحظة ، الأمر الذى عجب له الشابان كثيراً ، وسأله راؤول عن سر العجلة :

- لااستطيع أن أقول لك هذا السر !

- ماهذا ؟ أتمزح ياجريمو ؟

- سيدى الفيكونت يعلم أننى لاأعرف المزاح مطلقا .

- واعرف ايضا ان سيدى الكونت قرر أن تلازمنى انت وأن يعود اوليفان إلى باريس . وانا مصر على تنفيذ تعليمات الكونت

- ليس فى هذا الظرف .

ثم ركب جواده ولكزه فراح يسابق به الريح ، وترك راؤول واقفاً والشرر يتطاير من عينيه لشدة غضبه ، فأسرع راؤول يجرى وراءه ويناديه فأجابه :

- اتريد أن ابقى هنا ويقتل سيدى الكونت ؟

- ولكن قل لى بربك ما المسألة ، فان القلق يكاد يقتلنى .

- لااستطيع ان ابوح لك بالسر ، لأن هذا السر لايخصنى . هل لاحظت ملامح وجه الراهب ؟

- أجل اذكرها جيدا .

- احرص إذن اذا التقيت به فى اى مكان على ان تقتله وتسحق راسه بغير رحمة ، كأنه أفعوان سام ، فحياة خمسة من خيار الرجال فى خطر محقق داهم مادام هذا الرجل على قيد الحياة .

ولم يزد على ذلك حرفا ، بل انتهز فرصة دهشة راؤول وانطلق كالسهم ، حتى إذا وصل إلى اول محطة بريد باع الـ ... ـكب بثمنه عربه البريد إلى باريس .



وقطعت على راؤول دهشته صيحات صاحب الخان :

- الاسبان الاسبان !

واتضح ان الاسبان يزحفون فعلا من جهتين الى القرية . فقررت الجماعة الرحيل عنها . وصحبوا معهم أسيرهم الاسباني مقيداً فوق الحصان . واتجهوا الى حيث كانوا يعلمون أن الأمير كونديه يقيم في الوقت الحاضر مع الماريشال دي جرامون والد الكونت دي جيش .

وكان القائدان جالسين إلي المائدة يتداولان في الخطط . وفجأة دوى صوت مدفع وفتح الباب ليدخل منه راؤول ودى جيش نجل الماريشال . وكان القائدان في حيرة منذ يومين لايعلمان مواقع الجيش الاسباني بالضبط . فحمل الشابان اليهما آخر الأنباء . ثم قدما أسيرهما الاسباني كي يتم استجوابه عن حركات الجيش وعدده وأهدافه .

وكان سرور الماريشال عظيما جداً بطبيعة الحال ان يبدأ ابنه الحديث السن حياته العسكرية بأسر رجل من جيش العدو . وقبل أن ينضم الى الجيش فعلا . ونال راؤول مكانة ممتازة لابسبب التوصيات التى يحملها من الدوقة دى لنجفيل والأمير مارسياك فحسب . بل بالاكثر للشهادة الرائعة التي شهدها له الكونت دي جيش . وكيف انقذه من الغرق وأسر معه ذلك الاسباني بشجاعة نادرة .

وقد عجب الشابان حين وجدا الأمير كونديه . ابن الأمير هنرى بوربون . شاباً في السابعة والعشرين . ملأ صيته الدنيا بانتصاراته الرائعة قبل ذلك في روكروى وفريبور وفورد لنجين فعظم أملهما في بلوغ المجد سريعاً .

واستجوب الأمير الأسير بواسطة مترجم يعرف الاسبانية والهولندية ولم يكن ذلك المترجم إلا الشاب راؤول . ولكن الأسير لم يكن يعرف هاتين اللغتين وأخيراً اتضح انه ايطالى . فتولى الأمير استجوابه بنفسه . فإذا به لايعرف الايطالية . فأدرك الأمير انه يراوغ وأمر بإعدامه . فذابت مقاومة الرجل وبدأ يتكلم الفرنسية بطلاقة . وافضى بكل شيء .

وهكذا رتب الأمير الخطة . وامر بالهجوم على العدو فى الصباح الباكر هجوما مفاجئاً .ثم اثني على راؤول وأبدى له العطف . وامر له بخير جواد في المعسكر . ونصحه بالراحة كي يبدو في معركة الغد في أوج قوته .

وبعد أن استراح قليلا ندبه الأمير لمصاحبته في جولة استكشافية لمكان الموقعة التى ستدور غداً بين الجيش الفرنسى . والجيش الاسباني الذى يزيد عليه أضعافا . فلما أبدى راؤول تلك الملاحظة ابتسم الأمير وقال له :

ـ اعلم ياعزيزى دى براجيلون ان الجيوش الصغيرة هى التى تكسب المعارك الكبيرة .

وسمح له أن يقضى تلك الليلة مع صديقه دى جيش في خيمة واحدة فقطعا معظم الليل في السمر لأن الفرح كان يملؤهما لما أصاباه من توفيق ولأنهما في الغد سيشتركان لأول مرة في حرب حقيقية . وهو حلم طالما داعب خيالهما الشاب

عشاء على الذكرى

كان اللقاء الثانى بين الأصدقاء الاربعة خالياً من التوتر الذى ساد الاجتماع الأول ، وقد احسن اتوس صنعاً حين جعل اللقاء حول مائدة حافلة بما لذ وطاب لأن الطعام والشراب داعيا للألفة وترك التنازع . وقد كان لقوارير الشمبانيا الأربع أثرها الحاسم فى رفع الكلفة والعودة بالفرسان الأربعة عشرين عاما الى الوراء .

وفيما هم فى معمعان السمر سمعت على السلم اصوات أقدام ، قطعت عليهم جو المرح الذى أشاعته دعابات بورتوس ، ثم سمعت طرقات خفيفة على الباب ، فقال اتوس :

- ادخل .

فدخل صاحب المطعم الذى كان قد أفرد لهم الحجرة العلوية ، وقال :

- هناك خادم تبدو عليه العجلة يريد محادثة الكونت دى لافير .

فقال آتوس :

- هو أنا . وما اسم الخادم ؟

- جريمو ..

- هل عاد هكذا سريعاً ؟ ماذا حدث ياترى لبراجيلون ؟ ليدخل .

وفى هذه اللحظة اندفع جريمو داخلا وصرف صاحب الخان باشارة من يده فخرج واقفل الباب ، وساد الصمت جو القاعة ، ذلك ان اضطراب جريمو وصفرة وجهه والعرق الذى يتصبب من جبينه ، والتراب الذى يلطخ ملابسه ، كل هذا يدل أن الرسول جاء يحمل من الانباء ماهو بالغ الأهمية ، إذا لم يكن فاجعاً واخيراً تكلم جريمو فقال :

- سادتى ، كان لتلك المرأة ولد ، وقد أصبح الولد رجلا . وكان للنمرة شبل ، قد غدا نمراً هائجاً ، وراح يثب عليكم ، فاحذروه !

فبهت السامعون ، ونهض دارتانيان واقفاً وقال :

- ماذا تريد أن تقول ياجريمو ؟

- ان ابن ميليدى قد غادر انجلترا إلى فرنسا وهو الساعة فى طريقه إلى باريس إذا لم يكن وصل اليها فعلا .

- ياللشيطان ! هل أنت متأكد ؟

- كل التأكد .

فساد الصمت لحظة ، وارتمى جريمو فوق مقعد ليستجمع أنفاسه اللاهثة . وصب أتوس قدحا من الشمبانيا وناوله اياه . فلما هدأ روعه قليلا روى التفاصيل الهائلة التي شهدها بعيني رأسه ، فنهض دارتانيان وبورتوس واراميس وأسرعوا بحركة تلقائية إلى سيوفهم أما أتوس فبقي فى مكانه هادئا ينظر نظرات حالمة . ثم سأل جريمو :

- أتقول ياجريمو انه يرتدي ملابس الرهبان ؟ فأى طراز من الرجال هو ؟

- فى مثل قامتي ، وهو كما وصفه صاحب الخان نحيل شاحب الوجه ، له عينان زرقاوان وشعر اشقر .

- وهل رأى راؤول ؟

- وكيف لا ، والفيكونت هو الذى ساقه قسرا إلى فراش المحتضر ؟

وحينئذ نهض أتوس فتناول سيفه ، ثم غادر اربعتهم الخان .

مازاران والملكة هنرييت

والآن ينبغي أن يعبر القارىء معنا ضفة السين ، إلى باب دير راهبات الكرمل في شارع القديس جاك . ففي ذلك الدير تنزل الملكة هنرييت ملكة انجلترا وكريمة هنري الرابع ، ومعها ابنتها ، بينما ملك انجلترا شارل الأول يقاوم رعاياه الثائرين بزعامة كرومويل . والساعة الآن الحادية عشرة صباحا ، وقد طرق الباب رسول حاملا رسالة من شارل الاول ينذر فيها بقرب التجائه الى فرنسا ، ويسأل إذا كان مازاران على استعداد لقبوله قبولا حسناً ، ولما كانت الملكة هنرييت سيئة الظن لما رأته من جفاء البلاط الفرنسي فقد عزمت على التوجه إلى الباليه رويال .

وفي اللحظة التي غادرت فيها هنرييت الدير الى هناك ، كان هناك فارس يترجل عن جواده أمام باب الباليه رويال ويعلن للحراس أنه يحمل رسالة هامة شفوية وتحريرية الى مازاران . وكان هذا الرجل رسولا من كرومويل ومندوبا مفوضاً فوق العادة . فأدخلوه على مازاران الذى استقبله واقفا . فقدم اليه الرسول خطاب تعريف مختصر من القائد البريطاني ، ثم قدم اليه بعد ذلك رسالة كرومويل السرية ، التي يسأل فيها هل الوزير الفرنسي على استعداد لمساعدة الحركة الشعبية في انجلترا ، ولو بالتزام الحياد ، عن طريق رفض استضافة الملك شارل الاول في فرنسا ، وعدم معاونته ماديا أو أدبياً ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فان انجلترا ستضطر للتحالف مع اسبانيا بدلا من فرنسا ، والتنافس بين إسبانيا وفرنسا يومئذ على اشد مايكون .

فلما اتم مازاران قراءة هذه الرسالة قال للرسول الشاب :

ـ ان ردى على هذا الخطاب سيكون من الموافقة بقدر جهل الناس بحقيقة مااتفقنا عليه من خذلان الملك شارل الأول . فاذهب ياسيدى وانتظر ردى فى بولوني ، على شاطيء البحر ، وعدنى أن تكون غدا صباحا هناك .

ـ أعدك ، ولكن كم يوماً سأبقى فى الانتظار ؟

ـ إذا لم يصلك الرد فى بحر عشرة أيام كان لك أن ترحل بدونه

وفى هذه اللحظة دخل حاجب مازاران وقال :

ـ ان الملكة آن تدخل القصر فى صحبة نبيل انجليزى .

فالتفت مازاران الى الرسول وقال :

ـ لعلك ادركت الآن سر تحديدى ميناء بولونى لاقامتك ، حتى تكون بعيداً عن العيون ثم قاده الى دهليز مهجور كى لاتراه الملكة خارجاً من مكتب الوزير .

وانثنى مازاران بعد ذلك الى الملكة فاستقبلها خارج حجرته ، ولما سألته عن نواياه تجاه زوجها إذا حاقت به الهزيمة واضطر الى مغادرة بلاده ، راح يمثل كوميديا على الطريق الايطالية ، متظاهراً بالولاء لها ولزوجها ، وان المرجع في هذه الأمور هو ملكة فرنسا ، وهكذا انصرفت ملكة انجلترا بدون طائل ، واستعد مازاران للذهاب الى جناح الملكة لانه علم انها تلقت أنباء من جبهة القتال

أما الرسول الانجليزى فانه عند خروجه من الممر السرى ابصر خلال زجاج بعض الأبواب النبيل الانجليزى الذى كان مرافقاً للملكة هنرييت وقد وقف فى الخارج ينتظر انتهاء حديثها مع مازاران ، فعرف فيه اللورد دى ونتر صديق الملك ، وعمه هو ، وكانت اولى خواطره أن يهجم عليه ويصفى حسابه معه ، ولكنه تذكر مهمته الرسمية فكظم غيظه وانصرف . ولم يكن هذا الرسول فى الواقع الا صاحبنا الراهب المزيف ، فلما خرج من القصر فوق صهوة جواده وقف عند أول منعطف فى انتظار خروج عربة ملكة انجلترا فلم تلبث ان خرجت العربة الكبيرة الفخمة ، ودى ونتر يسير حذاءها راكباً جواده ، فتبع الشاب العربة .

وكانت الملكة تحدث اللورد دى ونتر بيأسها من وجود أصدقاء وقت المحنة . فقال لها اللورد انه جاء الى فرنسا فى الواقع ليبحث عن انصار للملك فى فرنسا . ولاسيما أربعة أصدقاء مخلصين كان يعرفهم فيما مضى ، يستطيعون باخلاصهم شيئا كثيراً ، فسألته الملكة :

- وأين هؤلاء الاربعة ؟

- هذا ماأجهله فى الوقت الحاضر ، فلم أرهم منذ عشرين سنة .

- اذكر لى أسماءهم فربما سمعت ببعضهم .

- أولهم الشيفالييه دارتانيان .

- إذا لم تخنى الذاكرة فهو ضابط فى حرس الفرسان ، وأحسبه من رجال مازاران قلباً وقالباً .

- والثانى الكونت دى لافير ، وأما الآخران فلا أعرفهما إلا بأسمائهما المستعارة .

وكان هذا الحديث يدور فى بعض قاعات قصر اللوفر الذى توجهت اليه الملكة عند خروجها من الباليه رويال .

وفى هذه اللحظة قيل لها أن رسولا خاصاً قد حضر من جبهة القتال موفداً من الماريشال دى جرامون ، فأدخلته كريمتها ، التى كانت تقوم بدور الحاجب لأن البلاط الفرنسى لم يرتب للأسرة المالكة الانجليزية حاشية لائقة ، وكان ذلك الرسول هو راؤول . فسلم راؤول الى الملكة خطابا من الماريشال يبشرها بالنصر فى موقعة لينز ، ويبين لها كيف زاد ذلك النصر من نفوذ مازاران وأن هذه هى

الفرصة المواتية لكسب مؤازرة فرنسا لزوجها ثم أوصاها براؤول خيراً مؤكداً لها انه جدير بالثقة .

فلما قرأت الملكة الخطاب ، شكرت راؤول في رقة فقال لها :

ـ انت اول من يعرف نبأ النصر في باريس ، فقد جئتك به مباشرة من دون أن اعرج على وليي واقبله .

ـ وهل وليك يدعى براجيلون مثلك ؟ .

ـ كلا ، بل هو الكونت دي لافير

ـ فصاحت الملكة والدوق دي ونتر في صوت واحد .

ـ الكونت دي لافير ، أحد الأربعة الذين نبحث عنهم ! .

وهكذا عرف دي ونتر من راؤول عنوان آتوس ، وعرف منه أنه على صلة بدراتانيان وبورتوس وأراميس ، فانطلق اللورد في الحال ليقابل آتوس ويحاول كسب الفرسان الأربعة لنصرة ملكه المنكود .



خرج دي ونتر من لدن الملكة هنرييت فركب وركب وراءه تابعه متجهاً الى مقره ، فلاحظ في بعض الطريق أن فارساً يتتبع خطواته ، وأنبأه توني تابعه الخاص ان هذا الفارس كان يتبعهما من الباليه رويال ، الى اللوفر ، ثم هاهو يتبعهما من جديد . وصعد دي ونتر الى فندقه المطل على الميدان الملكي ، وبدأ يخلع في حجرته قفازيه وقبعته وفي نيته أن يتسقط من النافذة حركات هذا الجاسوس ، ولكنه رأى في المرآة الموضوعة امامه في الحجرة صورة شاب يقف في الباب فالتفت ليرى الشاب رسول كرومويل ، والراهب المزيف الذي عرفناه في الفصول السابقة ، وعرف فيه دي ونتر ابن أخيه .

ـ لاتحاول طردي ياسيدي اللورد هذه المرة أيضاً كما طردتني حين مثلت بين يديك وأنا غلام صغير في لندن ، فقد ذهبت اليك في تلك المرة اسألك عن سر مولدي وعدم الاعتراف بنسبي ، أما الآن فقد جئت أسالك ياقاتيين ماذا فعلت بأمي ؟

ـ اذهب أيها الشقي وسل عنها أبالسة الجحيم ، فربما كان لديهم الجواب !

فتقدم الشاب حتى وقف وجهاً لوجه أمام اللورد وعقد ذراعيه فوق صدره وحدق في عينيه ثم قال بصوت أجش يقطر ألماً وغضباً :

ـ لقد سألت عنها جلاد بيتين ، فأجابني !!

وحينئذ تهاوى اللورد على مقعد كمن مسته صاعقة ، ثم قال .

ـ اتريد أن تعرف السر الرهيب ؟ ليكن لك ماتريد ! اعلم إذن أن هذه المرأة التي تطلب مني حسابا عنها قتلت اخي بالسم ، ثم حاولت قتلي انا كي ترثني

فماذا تقول ؟

- اقول انها كانت امى . انه كانت لى ام فلم تعد لى أم !.

- وقد حرضت على قتل الدوق باكنجهام طعناً بالخناجر . فما تقول ؟

- أقول انها أمى .

- فلما جاءت الى فرنسا قتلت بالسم فى دير الراهبات ببيتين امراة شابة ، وقد ثبتت عليها هذه الجريمة ، فهى امرأة تجسم فيها الفساد وشهوة القتل والشر والفسق . فكم من رجل افسدت دينه بين احضانها غير مبالية بالأخلاق أو حسن السيرة والشرف .

فانفجر الشاب باكيا وتصاعد الدم الى وجهه المكفهر وصرخ :

- صه ياسيدى ! أنا لا اعرف هذه الجرائم ولا اريد ان أعرفها فكل ماأعرفه أنها كانت أمى !

ثم تقدم نحو اللورد فى هيئة تنذر بالشر وقد كثر الزبد فى شدقيه فوضع اللورد يده على مقبض سيفه وابتسم ابتسامة صفراء وقال .

- أتريد أن تقتلنى ايها الشاب ؟ انت إذن ابنها حقا !

- كلا . لن اقتلك فى هذه اللحظة على الاقل . لأنه لن يتسنى لى بدونك أن أعرف بقية المجرمين . أما بعد أن أعرفهم فلك أن ترتعد وان تخاف ، فقد قتلت جلاد بيتين المحتضر طعنا بخنجرى فى غير رحمة ولا شفقة ، وانا اعلم ان هذا المسكين كان اقلكم جميعا جرما !

وانتفض الشاب ثم خرج من الغرفة وغادر الفندق ، وترك اللورد متداعيا فوق مقعده يحمدالله على ان ابن أخيه لايعرف بقية الشركاء .



وبينما كان هذا المنظر يدور عنيفا فى حجرة اللورد دى ونتر ، كان أتوس جالسا بالقرب من نافذة حجرته وقد اعتمد برأسه على كفه مصغيا الى راؤول الذى كان يقص عليه ماجرى له فى رحلته من مغامرات وتفاصيل ، فكان فيما قال :

- وقد نسيت ياسيدى اذكر لك لشدة اهتمامى بمعارك الميدان شيئا مهما . فاننى حين مثلت بين يدى ملكة بريطانيا وجدت فى حضرتها احد النبلاء ، فما ان ذكرت اسمك حتى صدرت عنه صرخة تنم عن الدهشة والسرور ، وذكر انه من أصدقائك ثم أعلن عن رغبته فى زيارتك وطلب منى عنوانك .

- وماسم هذا النبيل ؟

- انى لم أجرؤ ياسيدى على سؤاله عن اسمه ، ولكن لاشك عندى من لهجته فى الكلام من انه انجليزى .

- أه .

ثم رفع راسه الى السقف وحملق فيه كمن يحاول ان يتذكر شيئا ، فلما خفض بصره راى قبالته رجلا ماثلا فى عتبه الباب المفتوح يرمقه بنظرة تفيض رقة وعطفا ، فصاح الكونت بفرح عظيم :

ـ اللورد دى ونتر ! .

ـ أتوس صديقى .

ثم وقف كل من الرجلين ينظر الى الآخر مبهوتا ثم تصافحا باليدين كليهما ، ولم يلبث أتوس ان قال لضيفه اللورد :

ـ مالى أراك مهموما ياسيدى اللورد ؟ .

فتلفت دى ونتر حوله كمن يبحث عن خلوة ، فأدرك راؤول أن الصديقين يريدان التحدث على انفراد ، فانسحب خارجا ، وقال اللورد :

ـ لنسرع بالحديث ونحن وحدنا ، فهو هنا .

ـ من ؟

ـ ابن « ميليدى »

فقال أتوس بعد لحظة تردد وقد عقد حاجبيه ، وبلهجة هادئة :

ـ أعرف ذلك .

ـ اتعرفه ؟ وممن ؟ .

ـ لقد قابله جريمو قرب قرية بيتين ، فعاد مسرعاً ليخبرنى .

ـ لقد كان عندى منذ برهة ، وكان بيننا موقف عسير . وانى لنادم الآن اننا لم نقتل الطفل قبل الأم .

ـ لم تخاف ؟ ألسنا هنا لندافع عنك ؟ ليس فى استطاعتنا إلا ان ننتظر الحوادث . فلننتظر . ولكن ماذا جاء بك الى باريس ؟ .

ـ بعض اعمال هامة ستعرفها فيما بعد . ولكن ماهذا الذى سمعته لدى الملكة هنرييت من ان دارتانيان من انصار مازاران ؟ .

ـ ان دارتانيان لازال فى الخدمة العاملة بالجيش ، فهو والحالة هذه خاضع للاوامر بالضرورة ، والأوامر عنده هى اوامر السلطة القائمة ، وليس دارتانيان غنياً ، فلا غنى له من مرتب وظيفته ، اما انا فلست من انصار مازاران ، كلا والف كلا .

فنهض اللورد وشد على يد أتوس ثم احتضنه وسأله :

ـ الا يزال بورتوس وارامیس صديقين لك ؟ .

ـ واضف اليهما ايضاً دارتانيان نفسه ، فلا زلنا أصدقاء ، إلا حين تثور مسألة مازاران او الأمراء المعارضين ، ففى هذه الحالة نكون اثنين فقط .

ـ هل ارامیس مع دارتانيان ؟ .

ـ كلا . فهو يشرفني بمشاركتي معتقداتي السياسية .
ـ فهل لك ياصديقي آتوس أن تصلني بهذا الصديق الذكي اللبق ؟ وهل لك ان تتفضل باحضاره لمقابلتي في الساعة العاشرة غدا فوق قنطرة اللوفر . إذا راق ذلك لديك ؟
ـ آه . آه . هل ستشترك في مبارزة ؟
ـ أجل ياكونت . في مبارزة حامية ارجو ان تشترك فيها انت
ـ وأين سنذهب بعد الملتقى ؟
ـ لدى جلالة ملكة انجلترا التي كلفتني بتقديمكم اليها . اعني اربعتكم على فرض بقائكم جميعاً معسكرا واحداً . أما بعد الانقسام ففيكما الكفاية .
ونادى اتوس راؤول وكلفه بمرافقة اللورد وحراسته الى فندقه . فدهش اللورد والتفت الى اتوس مستنكراً
ـ من تحسبني ياكونت ؟
ـ أحسبك أجنبيا لايعرف باريس وشوارعها ، وسيتولى الفيكونت راؤول دى براجيلون ارشادك الى الطريق ! .
فشد دى ونتر على يده . والتفت آتوس الى جريمو فقال له .
ـ تقدم انت الموكب ياجريمو وحذار من صاحبك الراهب



وفي الموعد المحدد أدخل اللورد دي ونتر صديقيه القديمين أتوس وأراميس على ملكة انجلترا . وقام الفارسان بتحيتها تحية ظاهرة المجاملة عما اثلج صدرها . فقالت .
ـ مادمتما ترغبان أيها السيدان في التفضل بمساعدة سيدة تخلى العالم باسرة عنها ، فهذا هو مايمكنكما عمله في هذا السبيل . فزوجي الملك يقف وحيدا مع نفر قليل من النبلاء ، يخشى ان ينفضوا من حوله يوما بعد يوم . وهو بين اسكتلنديين لايثق بهم . وإن كان هو نفسه اسكتلنديا . فمنذ أن فارقه اللورد دى ونتر الى هنا والقلق مستول على . ولاتؤاخذني إذا انا اشتطت عليكما في الطلب ، مع انه لا سلطان لي عليكما ، ولاواجب يربطكما بي . إن ما اريد منكما ان ترحلا الى انجلترا ، فتنضمان للملك لحراسته والسهر على حياته . فتلزمان جانبه اثناء المعارك . وفي داخل بيته . فلا شك ان الفخاخ تنصب له في كل مكان . وتلك الفخاخ أخطر من جميع مخاطر الحرب . وأعدكما في نظير ذلك . لا بمكافآتكما ، فان ذلك قد يؤذى شعوركما . بل ان احبكما حب اخت شقيقة وان تكونا عندى افضل من كل انسان ما خلا زوجي واولادى . واقسم على ذلك امام الله . والله على ما اقول شهيد .

فسكت الاثنان لحظة ثم قال أتوس بهدوء تام :
- متى ينبغى أن نسافر ياسيدتى ؟
- لقد وافقتما إذن ؟ وافرحتاه .
- اجل ياسيدتى . وان كنا نرى ان جلالتك قد اسرفت فيما يبدو فى اغراقنا بهذه الصداقة القوية التى تربى على مانستحق ، فاننا نشعر اننا انما نخدم الله ياسيدتى إذ نخدم رجلا فى شدة وضنك ، وسيدة هى مثل عال لفضيلة المرأة المؤمنة والزوجة والام . سيدتى نحن لك قلباً وقالباً ، روحاً وجسداً .
فمدت الملكة إليهما يدها فقبلاها ، ثم همست للورد :
- إذا أعوزتك نقود ، فتذكر اننى اعطيتك جواهرى فاقتطع منها وبعها ، واحرص ان يعامل هذان السيدان فى المأوى والمأكل كما ينبغى لقدرهما وهم ضيوفنا ، اى كما ينبغى لملكين .
وفى خارج القصر ترك اللورد الفارسين الى فندقه ، فلما خلا الجو لأتوس وأراميس ، هرش اراميس رأسه وقال :
- والآن ما رايك ياصاحبى فى هذه المسألة ؟
- صفقة خاسرة خاسرة جداً
- ولكنك تلقيتها بحرارة ، وارى اننا سنقتل فى ارض غريبة .
- وهل نسيت أننا معرضون هنا للتسكع بين زانزانات الباستيل وفانسين جزاء وفاقا لمساعدتنا للدوق دى بوفور على الفرار ، صدقنى ياعزيزى اراميس ان كلا الأمرين شر ، وبعض الشر اهون من بعض .
- وكيف ترى الموت اهون من السجن ؟
- ياصاحبى نحن سنتحاشى السجن لنظفر بالبطولة احياء أو امواتاً ، ويجب الآن ان نفترق . انا لاقوم ببعض زيارات ولأكتب خطاباً ، وانت لتسوية امورك ، ثم تمر بى فى الساعة الثامنة ، ام تراك تفضل ان تحضر لتتعشى معى فى السابعة ؟
- موافق ، ولدى انا ايضاً مائة زيارة ومائة خطاب .
استغرقت الرحلة الى ميناء بولونى يومين وليلة ، فلما وصلوا قرب المساء فى اليوم التالى الى ذلك الميناء قال اللورد للفارسين .
- هيا نفترق حتى لايثير اجتماعنا الشكوك ، أما انا فسأذهب الى فندق متواضع صاحبه من اعوانى ، ولا بد لى من النزول فيه لانه العنوان الذى تصلنى عليه الرسائل . اما انتما فاذهبا الى ارقى فندق ، واسمه (سيف هنرى الكبير) . على ان نلتقى بعد ساعتين فى المرسى حيث تنتظرنا سفينتنا لتقلنا الى حيث تعلمون .

وفي الموعد المحدد ذهب الفارسان فأبصرا سفينة انجليزية الشكل . فوقفا يتحدثان عن رحلتهما . وأخيراً قال اراميس :

- ارجو الا يدعنا اللورد ونتر ننتظره طويلا ياآتوس .

- صه . فهناك من يتسمع .

وكان هناك بالفعل شخص يتسكع منذ مدة ويدور حولهما . فلما سمع العبارة الأخيرة وقف وراءهما . ثم تقدم وسألهما :

- أراكما من باريس . فأرجو ان تخبراني هل لايزال مازاران وزيراً ؟ .

- انه لايزال متمتعاً بثقة الملكة مكروها من الأمراء والأحرار .

- هو إذن لم يهاجر ولم يدخل السجن ؟ .

- كلا . ليس حتى الآن على الأقل .

فشكرهما الشاب الغريب وانصرف . وفي هذه اللحظة اقبل اللورد . ولم يبق ناقصاً من الجماعة المسافرة الا الخدم الذين حضروا بعد لحظات . وأسرع اللورد بالجماعة الى السفينة حتى إذا وصلوا الى السلم نزل الخدم أولا بالأسلحة والمتاع . وتبعهم الباقون . وأذا بشاب يخوض الماء كأنه يريد اللحاق بالسفينة فوق صهوه جواد تعرف فيه أتوس الشاب الذى سألهما . اما اللورد فما أبصره حتى أمر المجدفين بالابتعاد بالسفينة بسرعة . وصاح :

- انه هو ابن ميليدى . الراهبّ المزيف .

ورأوا الشاب يلوح بقبضته متوعداً ثم يصيح :

- سوف أنتقم ! الى اللقاء في انجلترا .



وفي يوم الاحد التالي اقيمت في كنيسة نوتردام صلاة شكر على النصر في موقعة لينز . فاستيقظ الباريسيون في ذلك منذ الصباح الباكر وقد اخذت المدينة زينتها التى تتخذها للاعياد . وفي الساعة الثامنة صباحاً اصطفت فرق حرس الملكة بموسيقاها من الباليه رويال الى الكنيسة . وفي الساعة العاشرة انطلقت المدافع من اللوفر معلنة خروج الملك . فسرت في الجماهير الحاشدة همهمة من وراء الجنود المصطفة . ثم ظهرت الملكة الى جوار الملك في عربة مذهبة فتعالى الهتاف بحياة الملك . وقرب نهاية القداس أسرت الملكة الى قائد حرسها بالنيابة :

- اذهب ياكومانج . والله معك .

فذهب الضابط في عربة تحرسها كتيبة من الفرسان الى منزل في شارع القديس كريستون حيث يسكن المستشار بروسل . للقبض عليه بأمر الملك . فاحتج المستشار بأنه معتل منذ دهمه جواد دارتانيان عفواً عند مقبرة سان

دينيس ، بيد أن الضابط أصر على التنفيذ ، فصاح ابنه :

- هذا مستحيل ! وانه تعنت يخرجنا عن طورنا .

وصاح صوت حاد من آخر الغرفة ، هو صوت الخادم نانيت العجوز وهي تهز المقشه في يدها متوعدة :

- مستحيل . ولن أدعكم تأخذون سيدى ، محرر الشعب واباه ، اخرجوا .

ثم فتحت النافذة على مصراعيها واخذت تصرخ مستنجدة . فقال الضابط :

- هل تطيع الأمر أو تتمرد على الملك ياسيدي ؟

- أطيع ...

وحاول التخلص من عناق كريمتيه وتهدئه خاطر ابنه . وفي هذا الوقت كان جمهور كبير قد تجمع أمام الباب على صراخ العجوز نانيت ، وبدا الجمهور يسخط ويتحفز للهجوم ، ثم هجم فعلا على خيول العربة . فحاول الفرسان الدفاع عنها ، واستعمل الحوذى سوطه لتفريق الجماهير ، فازدادت الثورة ، وجرف تيار الناس الجنود ، ولم يجد صياح الضابط الذى نزل ومعه بروسل :

- باسم الملك . افسحوا الطريق باسم الملك .

لولا أن فارساً سمع هذه العبارة ، فهجم بسيفه على الجماهير وشد ازر الحراس ، وكان هذا الفارس الشاب لايعدو السادسة عشرة ، وكان هو راؤول ، عائدا من بلوا حيث ذهب بأمر اتوس كي يشاهد حفلة صلاة الشكر ، فوصل متأخراً وراى هذا الشعب في طريقه وسمع اسم الملك فتحمس وتدخل .

وهكذا استطاع الضابط أن يلقي ببروسل في العربة ويمضي به ، وحاول ابن بروسل أن يقاوم ، فكاد راؤول ان يقتله بالرصاص ، وفي هذه اللحظة كان دارتانيان قد حضر ليساعد كتيبة الحرس بعد ان وصل نبأ الهياج الى القصر ، فمنعه راؤول من ذلك وافهمه ان الشاب معذور لانه يدافع عن أبيه ، أما الشاب لوفيار ابن بروسل فأسرع بالنجاة وهو لايكاد يصدق بها .

باريس تتمخض بالثورة

فى هذه الأثناء كانت أخبار اضطهاد الزعماء تسرى فى الشعب الساخط سريان النار فى الهشيم . فسرعان ماجتمع نائب المطران « جوندى » بكهنته ووجههم الى اثارة الناس باسم الكنيسة ، كى يقفوا ضد القصر فى عدوانه على حقوق الشعب وتنكيله بمن يدافعون عن تلك الحقوق فى ايمان وشجاعة . فتعهد بعض هؤلاء الكهنة ان يأتوه برجال نافعين فى قيادة حركة الثورة ، فهذا احدهم يسمى له بلانشيه . ولكنه يذكر ان ذلك الشخص قد اختفى منذ مدة ، ويعد بالبحث عنه واحضاره الى نيافة نائب المطران ، وهذا قسيس آخر يسمى لنائب المطران الكونت دى روشفور ، ويقول إنه فى باريس منذ ثلاثة ايام . فتعجب نائب المطران جوندى لأن الكونت لم يفد للسلام عليه كعادته ، وطلب احضاره فوراً ليضع خطة الثورة ، وهذا قسيس ثالث يعد جوندى بأن يحضر له جندياً من نوع غريب ، هو متسول يقف على باب كنيسة صغيرة ، وله على المتسولين وجيوش المتشردين سكان باريس المظلمة سلطان مطلق . فاهتم جوندى كثيراً ، وتنكر فى زى الفرسان وذهب ليختبر المتسول بنفسه

ووجده نائب المطران رجلا فى السادسة والستين من عمره تقريبا ، قصيراً بديناً حاد النظرات ، والقى إليه نائب المطران قطعة فضية ، ثم قال قسيس الكنيسة الذى كان يصحب المطران

- ان هذا السيد يريد ان يتحدث ياما يار . فهو يريد ان يعرف رأيك فى الحوادث الجارية ، على ضوء ماتسمعه من رواد الكنيسة .

فهز المتسول رأسه وقال :

- انها حوادث مؤلمة ، والناس جميعا ساخطون .

فقال نائب المطران :

- يبدو لى ياصديقى أنك رجل حاذق ، فهل لديك مانع فى ان تشترك فى حرب اهلية صغيرة إذا نشبت مثل هذه الحرب ، وأن تضع نفوذك على ابناء طبقتك تحت امر الزعيم الذى تسند اليه قيادة هذه الحرب ؟

- طبعا ياسيدى ، بشرط ان تكون هذه الحرب مؤيدة من جانب الكنيسة المقدسة ، وبذلك أصل الى الغرض الذى أسعى اليه منذ زمن طويل ، وهو رضوان الكنيسة وغفرانها لذنوبى الثقيلة

ـ اطمئن يامايار . فان هذه الحرب سوف لاتسمح بها الكنيسة فحسب ، بل انها ستباركها وتأمر بها وتتزعمها وتوجهها . واما عن غفران خطاياك فان من بين الموجهين لهذه الحرب كبير اساقفة باريس ، ونفوذه لدى العرش البابوي عظيم الأثر . ففي الوسع ان يستصدر لك غفرانا باباويا كاملا ولكن هل صحيح أن نفوذك على زملائك قوى ؟ .
ـ ان نفوذي على زملائي ياسيدي لاحد له ، ويتبعونني بغير تردد .
ـ هل تستطيع ان تعدنا بخمسين رجلا باسلين أقوياء يستطيعون ان يهزوا جدران الباليه رويال بصياحهم « ليسقط مازاران » كما اسقط اجدادهم من قبل اسوار اريحا ؟
ـ إنني استطيع القيام بما هو أخطر من هذا .
ـ اتستطيع مثلا ان تقيم في ليلة معينة عشرة متاريس ؟
ـ بل خمسين ، واذا طلع الصبح كنت كفيلا بالدفاع عنها جميعا .
ـ اذن خذ هذه الخمسين ريالا ، وتعال بالخمسين رجلا في الساعة العاشرة مساء ، ومكان الاجتماع برج القديس جاك وسيكون لدى كاهن البرج من التعليمات مافيه الكفاية . فاذا وفيت بوعدك فلك مثل هذا المبلغ .
ـ سيكون لك ماأردت ياسيدي .



وقبيل الساعة السادسة مساء كان نائب المطران قد فرغ من جميع مهامه الخارجية ، وعاد إلى مقر المطرانية ، فدخل عليه الكاهن الذي وعده باحضار بلانشيه . ومعه بلانشيه نفسه الذي حياه بأدب عظيم فقال له نائب المطران
ـ هل انت مستعد لخدمة قضية الشعب ؟
ـ اعتقد ذلك . فإني من المعارضين قلبا وروحا ، حتى لقد حكم على بالاعدام لانني استخلصت من بين أيدي الحراس زعيما كريما .
ـ وهل تسميه ؟
ـ ان نيافتكم تعرفونه جيدا فهو الكونت دي روشفور ولولا حماية سيدي القديم الملازم دارتانيان لشنقوني .
ـ ولكن هذا الضابط من رجال مازاران
ـ هيه !
ـ ماذا تعني ؟
ـ اعني انه رجل مازاران لانه موظف ، لا لأن مازاران يعجبه .
ـ يبدو انك شاب ذكي فهل يمكن الاعتماد عليك ؟
ـ أجل . اذا كان المطلوب هو إشاعة الشغب والقلاقل في المدينة

- الأمر كذلك فعلا . فكم رجلا تعتقد أنه يمكنك جمعهم اثناء الليل
- خمسمائة حربة ومائتي بندقية .
- وهل انت مستعد لاطاعة أوامر الكونت دي روشفور ؟
- سأتبعه ولو إلى الجحيم ، وليس في هذا مبالغة لأنه كفء لاقتحام جهنم .
- مرحى مرحى .
- ومالإيتنا التي نعرف بها الأصدقاء من الخصوم ؟
- سيضع انصارنا عقدة من القش في قبعاتهم ، أأنت بحاجة الى نقود ؟
- ان النقود صديق لايضر ، ولكنه ليس ضروريا .

فأعطاه جوندي نائب المطران خمسمائة ريال ووعده بمثلها بعد نجاح الحركة فانصرف بلانشيه ، وبعد عشر دقائق اقتحم الغرفة شيخ في قوة الشبان هو الكونت دي روشفور ، فأبدى فرحه بما عقدت عليه النية ، واعلن ان تحت إمرته خمسين جنديا . كما وعد بالكتابة الى الدوق دي بوفور في فاندوم حتى يكون على راس الحركة .

وقبيل الساعة العاشرة توجه جوندي الى برج سان جاك ، فادخله الكاهن الى الحجرة التي بها المتسول مايار . فسأله هل بر بوعده فأجابه :
- ليس تماما .
- وكيف ذلك ؟
- الم تطلب خمسمائة رجل ؟
- أجل . ثم ماذا ؟
- فأتيتك بألفين .
- الست مبالغا بعض الشيء ؟
- أتريد الدليل ؟
- أجل ..

فأشعل المتسول ثلاث شموع ، وضع كلا منها في نافذة من نوافذ البرج من جهاته الثلاث ثم أطفاها . فسأله نائب المطران عن مغزى ذلك :

- هذه علامة بداية العمليات . فعند خروجك من هنا حاذر أن تكسر ساقك في المتاريس التي تنصب الآن في شوارع باريس ، او في الحفر التي يحفرها رجالي لتكون فخاخا وخنادق .

- مرحى مرحى . هذه بقية الأتعاب المتفق عليها ، وبما انك زعيم ، فلا يصح ان تذهب الى الحانة وتشرب الخمر حتى تسكر .
- ان لي عشرين سنة لم أذق فيها طعم الخمر .

ثم القى بكيس النقود بعيداً . فظنه نائب المطران شخصاً غريب الأطوار شبه مجنون ، وتأهب لمغادرة القاعة . فاذا المتسول يحول بينه وبين ذلك ويسد عليه

الطريق ، فتبادر الى ذهنه انه يريد به سوءا بيد انه رآه يركع على ركبتيه ويضم راحتيه ويقول :

ـ بركتك ياصاحب النيافة .

ـ صاحب النيافة ؟ أنت مخطيء .إنك تظنني شخصاً آخر .

ـ كلا . ان زى الفرسان الذى ترتديه لايخدعني ، وقد عرفتك من اول نظرة ، ولكنى تجاهلت .

ـ وهل تريد بركتى ؟

ـ اجل فانى بحاجة اليها .

فباركه نائب المطران ، ثم أقامه من ركوعه وقال له :

ـ لقد باركتك فأصبحت مقدساً فى نظرى ، كما انى مقدس فى نظرك ، والآن قل لى : اى جريمة اقترفت يتعقبك من اجلها القانون البشرى ؟

فهز المتسول رأسه وقال :

ـ ان الجريمة التى اقترفها ياصاحب النيافة لاتدخل تحت طائلة القانون البشرى ، ولايمكن لنيافتكم ان ترفعوها عنى بأن تباركونى مراراً وتكراراً كما فعلتم فى هذه اللحظة .

ـ صارحنى : هل التسول مهنتك منذ نشأتك ؟

ـ كلا ياصاحب النيافة . فانى لم احترفه الا منذ ست سنوات .

ـ واين كنت قبل ذلك ؟

ـ فى الباستيل .

ـ واين كنت قبل الباستيل ؟

ـ سأقول لك ذلك ياصاحب النيافة فى اليوم الذى تتنازل فيه بقبول الاصغاء الى اعترافاتى .

ـ هذا جميل . فتذكر من الآن اننى على استعداد لسماع اعترافك فى اى ساعة من ساعات النهار او الليل .

ـ شكراً لك ياصاحب النيافة ، ولكنى لست مستعداً حتى الآن لتلك الخطوة الخطيرة .

وتناول نائب المطران شمعته وانصرف .

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة ليلا حين خرج جوندى نائب مطران باريس من برج القديس جاك ، فما مشى مائة خطوة حتى لاحظ تغييراً كبيراً ، فالشوارع المظلمة مليئة بالاشباح تغدو وتروح فى صمت ، بعضها يحفر أرض الشارع ، وبعضها يضع الاحجار ، والاشجار فى منافذها ، وجل هؤلاء الرجال من المتسولين واصحاب العاهات .

وكان ثمة رجل تثقل كاهله أحمال السيوف والبنادق وسائر أنواع الأسلحة . وهو يطوف بها من باب الى باب ، ليفرقها على الأهالي .. وقد استطاع نائب المطران ان يتبين في ضوء مصباحه وجه هذا الرجل ، فاذا به بلانشيه

وعند القنطرة الجديدة اعترض طريق نائب المطران حارس مسلح يقود شرذمة من الرجال المسلحين ، وسأله عن هويته . وكان هذا الحارس هو « لوفيير » نجل المستشار بروسل . فلما رفع نائب المطران قبعته العريضة عرفه في الحال وانحنى له .

وهكذا وصل جوندى الى المطرانية مطمئنا الى ماسيحدث في الغد . وقد استمرت الاستعدادات طول الليل . فلما اصبح الصباح بدت باريس متحفزة للانقضاض على حكامها الطغاة .. وقد ازدحمت الشوارع بذوى القبعات التى تزينها عقدةٍ من القش ، شعار ثورة الشعب ، فكل صاحب قبعة مزينة بالريش كانت الجماهير تجرده من سيفه المذهب وتجبره على الهتاف :

ـ يعيش بروسل . يسقط مازاران .

وقد اقيمت المتاريس في كل مكان ، حتى أمام الباليه رويال . وكان عدد رجال الثورة المسلحين يربى على عشرة الاف . يتحرشون بداوريات الحرس الملكى المصطفين حول القصر كأنهم تماثيل جامدة . والمظاهرات تطوف بالشوارع في جماعات قوامها مائتين أو نحو ذلك ، حاملة لافتات مكتوب عليها :

ـ انظروا الى شقاء الشعب !

وطبيعى أن دهشة الملكة ان النمسوية ووزيرها مازاران كانت كبيرة حين استيقظا من نوم العافية . اما مازاران فهز كتفيه واصفر وجهه واسرع الى حجرة مكتبه كي يطمئن على إغلاق الخزائن على أمواله ومجوهراته . وأما الملكة فقد استدعت الماريشال « ميريه » وامرته بالقضاء على هذه المهزلة بأى ثمن

واخذ الماريشال مائة جندى وحاول الخروج من طريق اللوفر ، ولكنه وجد دى روشفور امامه على رأس ألف وخمسمائة رجل ! فاضطر الى التراجع ، فوجد على القنطرة الجديدة الشاب لوفيير ابن بروسل ، فتراجع الى السوق ، وهناك تصدى له بلانشيه ورجاله الاشداء فقتلوا اربعة جنود . وجرب المرور من شارع القديس اونوريه ، فوجد هناك المتسول مايار وزملاءه ! ولكنه استهان بهم وأمر رجاله بالهجوم ، فلم يشعروا الا والعاصفة تأخذهم من كل جانب بالقذائف ، من فوق الأسطح ، ومن وراء المتاريس ، ومن يمين وعن يسار ، واذا برجال لوفيير يأتون على صوت المعركة فيهاجمونه من الخلف ، حتى اصبحت قوة الماريشال بين نارين ، وراح رجاله يسقطون حوله صرعى . وفجأة انفرجت الصفوف عن صياح وهتاف :

- يحيا نائب المطران .
وتقدم جونديه في طيلسانه الكهنوتي بسير الهوينا بين الرصاص المتناثر ، ويوزع البركات الرسولية عن يمين وعن يسار في هدوء تام كأنه يتمشى في صحن الكنيسة ، والناس يجثون أمامه عندما يمر بهم ، وعرفه الماريشال فأسرع نحوه قائلا
- أخرجني من هنا بحق السماء والا هلكت ورجالي .
فرفع جونديه يده طالبا الصمت من الجموع الهائجة ، فساد السكون ، وقال .
- ياأولادي . هذا هو الماريشال دمييريه الذي ظننتم به الظنون بالباطل ، يتعهد بأنه بمجرد عودته الى اللوفر سيطلب باسمكم اطلاق سراح بروسل ، أليس كذلك ياماريشال ؟
- اتعهد بذلك . وها أنا ذلك ثمنا للخلاص .
وراح فريق يهتف بحياة نائب المطران ، وفريق آخر يهتف بحياة الماريشال ، ثم اشترك الجميع في الهتاف بسقوط مازاران !
وافسحت الجماهير الطريق وازالت جانبا من المتاريس حتى تسنى للماريشال ان يعود الى القصر الملكي مع البقية الباقية من جنوده وقد تمزقت ثيابهم وتلطخت بدمائهم .



كانت الملكة واقفة مع وزيرها وكبار رجال الحاشية . والأنباء تتوالى اليها عن استفحال الثورة واستعصاء أمرها ، والهتافات والطلقات النارية تهتز لها جدران القصر . وتكلم أحد رجال الحاشية مقترحا على الملكة ان تحسم الأمر بالافراج عن بروسل ، فاذا بها وقد ورم انفها ونظرت اليه شذراً ، ثم قالت
- أطلق سراح بروسل ؟ مستحيل هذا لن يكون .
وفي هذه اللحظة سمعت في الدهليز خطوات عسكرية ، ثم دخل الماريشال دمييريه دون استئذان ، فتهللت الملكة لرؤياه وهتفت به
- أهذا أنت ياماريشال ؟ ارجو أن تكون قد رددت الى هؤلاء الرعاع عقولهم .
- مولاتي ! لقد تركت لهم على أرض القنطرة الجديدة ثلاثة من رجالي وقد فارقتهم الحياة ، أما في السوق ففقدت أربعة ، وأما على ناصية شارع الشجرة اليابسة ففقدت ستة ، وعلى باب قصرك العامر فقدت اثنين ، والمجموع خمسة عشر ، يضاف الى هذا أن اكثر من عشرة قد أصيبوا بجراح . واذا كنت لاترين قبعتي على راسي فلأن رصاصة قد طاحت بها ، ولولا نائب المطران لكنا قد هلكنا جميعا .
- وماطلبات شعبي العزيز ؟

- ان تردي اليه بروسل .
- هذا لن يكون .
وهنا تنحنح مازاران وفرك يديه وقال :
- استميح مولاتي ان اتقدم اليها برأي ...
- اذا كان هذا الرأي هو الافراج عن بروسل فاحتفظ به لنفسك .
- ليس هذا . بل أرى استدعاء نائب المطران لمفاوضته .
- ولكن هذا اللئيم هو الذى حرك هذه الثورة .
- وهذا سبب أقوى لاستدعائه . فالذى حرك الثورة يستطيع تسكينها
- هذا صحيح . اذهب ياسيدى الماريشال فادع نائب المطران لمقابلتى

وبعد دقائق دخل نائب المطران في صحبة الماريشال . فانحنى للملكة بأدب جم . وسألته الملكة عن رايه فى هذا الشغب . فأجاب بهدوء :
- ان هذا لم يعد شغباً . لأنه اضحى ثورة جانحة .
- ان الثورة لاتوجد الا فى عقول من يتوهمون أن شعبى يثور ! وسترى كيف تضع هيبة الملك كل شيء في نصابه .
- هل لمثل هذا الكلام دعوتني ياسيدتي ؟
- كلا . بل لأسالك رايك فى المخرج من هذا المأزق .
- لو انني كنت فى مكان جلالتك . لما ترددت فى إطلاق سراح بروسل .
- وإذا لم اطلق سراحه فماذا تعتقد ان تكون النتيجة ؟
- اعتقد ان باريس لن يبقى فيها حجر على حجر صباح غد .
فصعد الدم الي وجه الملكة . وكادت عيناها الزرقاوان الجميلتان ان تخرجا من محجريهما . واستحال قرمز شفتيها الى زرقه . وسخرت بالرجل ورايه فأجابها :
- إذا لم يعجبك رايي ياصاحبة الجلالة . فذلك لأن عندك ماهو خير . لان جلالتك احكم من ان تتحدى وتواجه نتائج ثورة مسلحة .
فأشارت الملكة بيدها فانصرف الجميع ماعدا مازاران . وهم جونديه بالانصراف فاستبقته . واستعادته نصيحته . فلما اعادها همت ان تضربه . فنبهها الى أن المساس بشخصه معناه ضياع عرشها فى ساعات معدودات وحرمانها وقطعها من كنيسة الرب المقدسة .
وفى هذه اللحظة قام هياج شديد فى الميدان أمام القصر . فابتسم جونديه وفر الدم من وجه مازاران . ثم دخل قائد الحرس معلناً أن الجماهير قد تغلبت على كردونات جنود الحرس حول الأسوار . وانهم الأن يقتحمون الابواب
والحق أن هدير الأمواج وثوران البراكين وانقضاض الصواعق لم يكن شيئا مذكورا الى جانب تلك الصيحات الغاضبة التى انشقت عنها الاف الصدور

وفكرت الملكة لحظة ثم قالت لقائد الحرس :

ـ كم رجلا تحت إمرتك داخل القصر ؟

ـ ستمائة رجل .

ـ ضع حول شخص الملك مائة منهم ، وخذ الباقين فاكنس بهم هؤلاء الهمج من حول القصر .

فصاح مازاران :

ـ ماذا انت فاعلة يامولاتي ؟

فصرخت الملكة في وجه قائد الحرس :

ـ اذهب واصدع بما أمرت .

فمشى الرجل الذى لايعرف الا طاعة الجندى مهما كانت النتائج ، وفي هذه اللحظة سمعت قرقعة عظيمة ناجمة عن كسر احد الأبواب الكبيرة فصاح مازاران :

ـ انك ستضيعيننا جميعاً ، الملك وأنت وانا .

وسمعت بعد ذلك صيحات الفرح من الجماهير . وكان دارتانيان واقفاً مع بروتوس فى مكانهما الجديد فى قاعة الانتظار فاستلا سيفيهما ، وهتف مازاران فى وجه جونديه نائب المطران :

ـ أنقذ الملكة !

فوثب جونديه الى النافذة ففتحها وعرف على راس الأربعة آلاف رجل الذين اقتحموا فناء القصر لوفيير ابن بروسل ، فصاح به بأعلى صوته :

ـ لاتتقدموا خطوة واحدة ! الملكة توقع القرار .

فصاحت الملكة مستنكرة :

ـ ماذا تقول ؟

فقال مازاران وهو يناولها ورقة وقلماً

ـ هى الحقيقة يامولاتى

فوقعت قرار الافراج عن بروسل ، وتناوله جونديه فلوح به من النافذة ، فهتف له الناس كما هتفوا بحياة بروسل ، فهتف هو بحياة الملكة ، فقالت له :

ـ لقد نلت مطلوبك ياصاحب النيافة فانصرف ! .

فانحنى امامها نائب المطران وقال :

ـ انى دائماً رهن إشارة مولاتى !

ثم تراجع خارجاً وتركها وحيدة مع مازاران ، الذى اقترب منها محاولا التسرية عنها ، فصرخت فيه مشيرة الى الباب :

ـ دعنى ، فانك لست رجلا .

فتركها وانصرف

ملكة تكره الشعب

وفي الصباح التالي دخل بروسل باريس في عربة كبيرة فخمة ، والى جواره ابنه لوفيير . والشعب الذي لايزال حاملا السلاح تضيق به الشوارع التي مر بها الموكب هاتفا :

ـ يعيش بروسل . يعيش والد الشعب الموت لمازاران

وكان جواسيس الملكة ومازاران يحملون اليهما هذه الانباء المزعجة أما الشعب فكان متهللا ولاسيما زعماؤه . اللهم الا الكونت روشفور . لأنه كان قد كتب الى الدوق بوفور ليعود الى باريس فيتولى الزعامة . ولكن الثورة نجحت بسرعة خاطفة . بحيث يعود الدوق ليجد باريس هادئة وداعة .

وتوجه روشفور لمقابلة نائب المطران فأفضى اليه بنبأ خطير اخر . وهو أن الملكة قد كتبت الى الأمير كونديه ليعود من الميدان على عجل ثم شاع في المساء نفسه أن الأمير كونديه وصل الى باريس فعلا . حتى اذا كان الصباح التالي بدت باريس مدججة بالسلاح . والمظاهرات المسلحة لاتنقطع من التجار والمتسولين وجميع الطبقات المتوسطة والدنيا . وقد قضت الملكة الليل بطوله في التشاور مع الأمير كونديه . فلم يفارق الغرفة الا في الخامسة صباحاً . وتوجهت الملكة بعد ذلك الى مكتب الكردينال فوجدته لايزال جالساً فيه . مشغولا باعداد الرد على كرومويل . وقد مضت ستة أيام من الأيام العشرة التي حددها للرد ورأى مازاران علائم الانشراح على وجهها فقال :

ـ أرى جلالتك مبتهجة .

ـ لاعجب . فقد وجدت الوسيلة للقضاء على هذا الغول الذي يسمونه الشعب فهم يريدون أخذ الملك مني ، أي من تحت وصايتي . لهذا قررت مفاجأتهم بالاختفاء أنا وابني من باريس ، بحيث لايعلم الا أنا وأنت والأمير كونديه ، ثم بعد ذلك يحاصر الأمير باريس ويسلط عليها الجوع حتى تخضع مذعنة .

ـ مشروع عظيم . ولكنه محفوف بالاستحالة ، فليس تحت يدنا الا ستة الاف جندي ، وهو عدد غير كاف .

ـ وهل لدينا شيء من الشجاعة ؟

ـ لدينا منها الكثير .

ـ إذن فالأمر سهل . الا تستطيع أن تفهم أنني أكره باريس ؟ تصور أن باريس تستيقظ يوماً ذات صباح فتجد نفسها بغير ملكة . وبغير ملك ، محاصرة ،

جائعة ، ولاسند لها الا برلمانها الأحمق ونائب مطرانها الهزيل ذو الساقين المعوجتين !
- كل هذا جميل ولكن التنفيذ يامولاتي التنفيذ .
- أنا الكفيلة بهذا
- ولكن هل تقدرين يامولاتي انها الحرب الأهلية ، التي هي شر ماتمنى به مملكة فتتاصل الأحقاد ولايندمل لها جرح ؟
- هي الحرب أجل ، ولكني اريد ان اذل كبرياء باريس المتغطرسة بأي ثمن ، وان احولها الى رماد ، واطفيء شعلتها بطوفان من الدم ، وان اجعلها امثولة الدهر للجريمة والعقاب . ملعونة انت ياباريس ، تعال معي وانظر من النافذة ، الا ترى هذه الجموع المسلحة ؟ هل غدوت انا الملكة سجينة في قصري ؟
- هذا هو الواقع فكيف ستخرجين ؟
- أعرف كيف اخرج ، ففي باريس رجل واحد طال بي نسيانه ، وهو وحده قمين ان يخدم ملكته وينقذها . إنه دارتانيان .
واسرعت الى ورقة وقلم فخطت بضع كلمات في سرعة خاطفة .



كان دارتانيان في ذلك الصباح راقداً في حجرة بورتوس المجاورة لحجرته في فندق العنزة الصغيرة ، وامامهما سيفاهما وغدارتاهما ، على سبيل الاحتياط في ايام القلاقل هذه ، وقد ايقظهما في الساعة السابعة حاجب حمل الى دارتانيان رسالة وهو يقول
- من لدن صاحبة الجلالة .
وقرا دارتانيان الرسالة ، فوجد انها دعوة للحضور مع الحاجب لمقابلة الملكة فورا وخطر لبورتوس ان في الامر مكيدة وفخاً منصوباً ، ولكن دارتانيان لم يأبه وامره ان يكون على استعداد لأي مفاجأة ، ثم ارتدى ثيابه بسرعة . وقبل أن يفرغ من ذلك قرع الباب من جديد ودخل حاجب اخر يحمل رسالة بالصيغة نفسها من مازاران ، فتحير بورتوس ايهما ينبغي على صاحبه ان يقابله اولا ولكن دارتانيان قال إن الكردينال حدد للمقابلة موعداً بعد نصف ساعة ، ولهذا صرف حاجب الوزير وذهب مع حاجب الملكة .
فلما دخل عليها - وكان دخوله الى القصر من باب خلفي في سور الحديقة - وجدها في المصلى الخاص بها ، فاستقبلته بنظرة ثابتة وقالت وهي تتفرس فيه
- هذا هو أنت تماماً ، لم تتغير . فتفرس في جيداً ، الا تعرفني؟
- إنني دائما رهن إشارة جلالتك .
- الك اصدقاء ؟

ـ كان لى ثلاثة ، ترك اثنان منهم باريس لاادرى الى أين . والصديق الباقى معى صديق قديم من الطراز الذى تشرفه مولاتى بتذكره .

ـ لابأس . فأنت وصديقك هذا تعدلان جيشا كاملا .

ـ ماذا ينبغى أن نصنع يامولاتى .

ـ تعال فى الساعة الخامسة . اقل لك ، ولكن لاتبح بسر هذه المقابلة لمخلوق

ـ لن اصرح به لمخلوق .

ـ أقسم بالمسيح .

ـ سيدتى ، لم اخل بوعدى فى حياتى قط . وحين اقول لاأفعل ، فهى لاأفعل ، فهل للملكة اوامر أخرى فى الوقت الحاضر ؟

ـ كلا . ورافقتك السلامة والى اللقاء فى الموعد المعهود .



اجتاز دارتانيان بعد ذلك دهليز القصر حتى وصل الى مكتب مازاران . فلما دخل القى نظرة سريعة على عادته ، فرأى على مائدة قريبة من مازاران خطابا مختوما ، ولكنه موضوع بحيث لاتظهر كتابة العنوان ، وبادره مازاران بالسؤال التالى

ـ هل انت ات من لدى جلالة الملكة .

ـ انا ياسيدى ؟ من قال هذا الكلام ؟

ـ لااحد ولكنى اعلم .

ـ يؤسفنى ان اقول إن نيافتكم مخطىء فى هذا الزعم .

ـ ولكنى كنت فى الدهليز ورايتك خارجا من عندها .

ـ هناك ولاشك سوء تفاهم ناتج عن تشابه فى الأشخاص .

ـ دعنا من هذا ، هل تحب الأسفار ؟ أم أن شيئا يربطك بباريس ؟

ـ لاشىء يربطنى بباريس الا الاوامر .

ـ هذا خطاب اريد منك أن توصله الى صاحبه ، فى العنوان المكتوب ـ ولكنى لااري عليه عنوانا .

ـ هناك مظروف داخل المظروف مكتوب عليه العنوان ، ولاتمزق المظروف الخارجى إلا حين تصل الى مكان معين ، فاذهب الآن وخذ معك صديقك دى فالون (بورتوس) اراك متردداً ..

ـ كلا . سارحل فوراً ، ولكنّ أرجو من نيافتكم التوجه الآن لمقابلة الملكة .

ـ ولماذا ؟

ـ لتقول لها إنك ارسلتنى الى مكان كذا الآن .

ـ لك هذا . سأذهب فانتظرنى هنا .

ـ وحاول دارتانيان أن يستشف خلال الضوء والعنوان المكتوب داخل المظروف الأول فلم يفلح وسرعان ماعاد مازاران وقد بدا على وجهه الاستياء فقال :

ـ أنت محق ياعزيزى دارتانيان فيجب الا تذهب ، فاعطنى الرسالة . وسأحتاج اليك هذا المساء ، فتعال بعد ساعتين لمقابلتى .

ـ لاأستطيع لأن لدى موعداً فى هذا الوقت لاأستطيع التخلف عنه .

ـ لاتقلق . فالموعدان واحد ، فأحضر معك صديقك دى فالون ولكن اتركه فى غرفة الانتظار لأننى اريد ان أتحدث اليك على انفراد .

وانحنى دارتانيان وانصرف .

الفرار

اقيمت فى تلك الليلة حفلة ساهرة تكريما للقائد المنتصر العائد من الميدان . وكان المفروض ان تتخذ هذه الحفلة ستاراً لتسلل الملكة ، ثم لتسلل الوزير إلى خارج باريس ، فلما دخل دارتانيان على مازاران قال له :

ـ لقد قررت الملكة والملك مغادرة باريس إلى سان جيرمان ، وعليك انت عبء توصيلها سالمين إلى هناك . فهل تتعهد بذلك ؟ وهل تقدر مدى المسئولية الملقاة على عاتقك ؟

ـ اقبلها واقدرها .

ـ يالك من شجاع ـ وانا ؟

ـ انت ماذا ؟

ـ إذا اردت أن أذهب انا كذلك ؟

ـ هذا اصعب ، لأن الجمهور قد يتعرف عليك مهما كنت متنكراً ، وان كان التنكر أوفق ستترحل نيافتكم مع الملكة ؟

ـ لا معها ولا بعدها . فسفرى معها قد يكون خطرا عليها ، وسفرها قبلى سيكون خطراً علىّ .

ـ انت تريد السفر قبل الملك والملكة ؟ هذا صعب جدا . ولكن فى اى ساعة تريد الرحيل ؟

ـ فى الساعة العاشرة . ثم تعود لتأخذ الملكة والملك فى نصف الليل . ولكن كيف أتنكر ؟

ـ اترك هذا لى وفوض لى امرك ، وسأعمل جهدى وان كنت لا اضمن النتيجة وسأعود فى التاسعة والنصف لأجد نيافتكم مستعدا للرحيل . اما الان فأرجو مقابلة الملكة .

فأدخله مازاران على الملكة حيث سمع منها مصداق هذه الأوامر ، ثم انصرف وعاد فى التاسعة والنصف ليجد مازاران قد خلع ثوب الكردينال وتخفى فى ثوب فارس أنيق ، ولكنه رعديد ينتفض خوفا وجزعا . فقال دارتانيان :

ـ هيا ، فصديقى بورتوس ينتظر فى عربته التى ستسافر فيها امام باب الحديقة

وابدى مازاران انه يستقل الاكتفاء بصحبتهما . ولكنه استسلم وركب وأسرعت العربة في طريقها . ولكن داورية من الشعب أوقفتها على بعد مائة خطوة . وصاح قائدها : « من هناك ؟ » فأجابه دارتانيان مقهقها :

- أنا مازاران .

وراقت النكتة لشعب باريس الضاحك فتركوا العربة التى وجدوها بغير حراسة تمر . لأنه لم يخطر ببالهم أن يركب مازاران عربة بدون حرس . وبلع مازاران ريقه وهو لا يكاد يصدق بالنجاة وغاص بين رفيقيه . إلى ان أوقفت العربة داورية ثانية . فاذا بها بقيادة بلانشيه . فقال له دارتانيان

- لقد ساءت حالنا بعد فراقك ياصاحبى . فهذا صديقي بورتوس جرح فى مبارزة وانا أوصله الان قصره فى الريف .

وهكذا مرت العربة من الكردون الثاني . ومشت بضع خطوات اخرى إلى أن اوقفتها داورية من المتسولين بقيادة مايار نفسه . وأصر على التفتيش ولو كان من يركب العربة هو الأمير كونديه نفسه . وشرعت البنادق فى وجه الحوذى إذا تحرك . ففتح دارتانيان العربة واستعد للدفاع . فما أن رآه مايار حتى صاح وقد شحب وجهه :

- السيد دارتانيان . افسحوا الطريق !

فأسرع الحوذى بالمركبة يسابق الريح . وخرجوا من باريس سالمين . وهناك ترك دارتانيان العربة فى حراسة بورتوس . وعاد إلى باريس ليخرج منها الملكة والملك .



دخل دارتانيان باريس راجلا . فلما كانت الجماهير تراه بزيه العسكرى الدال على انه من حرس الملك . كانوا يصيحون فى وجهه هاتفين بسقوط مازاران . فكان يشاركهم فى الهتاف بصوت أعلي من أصواتهم فينصرفون عنه ويصفقون له . ولما صار فى شارع ريشيليو الهادىء مشى على مهل يفكر فى الطريقة التى يخرج بها الملكة والملك .

وفيما هو كذلك وقع نظره على عربة فاخرة وقد نام سائقها فوقها . فاقترب وتأمل الشعار المحفور عليها . فعرف فيه شعار نائب المطران . فخطرت له فكرة نفذها بغير تردد . إذ قفز إلى داخل العربة . ثم جذب حبل الجرس لتنبيه السائق ثم صاح بصوت رفيع :

- إلى القصر الملكى : (الباليه رويال) .

فأسرع السائق الذى استيقظ من غفوته مرتبكا بتنفيذ الأمر . وهكذا دخل فناء القصر ونزل دارتانيان . وحينئذ تنبه السائق إلى الحقيقة . ولكن الوعيد والتهديد

اجبره على أن يلوذ بالصمت ، كما تولى حراسته جنديان مسلحان ، وسرعان ما خلعوا عنه ثيابه فلبسها دارتانيان ، ثم اقتادوا السائق إلى الحبس في إحدى غرف الثكنات . وتوجه دارتانيان إلى سكرتير مازاران فطمأنه على سيده ، ثم طلب منه أن يستأذن له على الملكة في حجرتها الخاصة وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بخمس دقائق . فوجدها داراتانيان مستعدة ، وقد ايقظت الملك الصغير من نومه .

وفي هذه اللحظة سمع من خارج القصر هياج الجماهير ، فترددت الملكة ، بيد أن دارتانيان طمأنها وأصر على المضي في الخطة . فأذعنت الملكة واثقة به ، بيد أن قائد الحرس دخل معلناً أن الجماهير قد سرى بينها أن الملكة والملك فرا من باريس ، فهم يصرون على رؤيتهما حالا وإلا حطموا كل شيء . فأشار دارتانيان أن ينسحب الحراس من الدهاليز ، وأن يبلغ قائد الحرس الجماهير أن الملك الطفل نائم ، وأن الملكة تسمح للشعب برؤيته في فراشه بشرط ألا يحدثوا أى صوت يوقظه . ونصح الملكة أن ترتدى ثوبا من ثياب النوم وتقف في طرف الحجرة ، أما هو فاختفى خلف ستار ويده على مقبض سيفه .

وكان لهذه الكلمات فعل السحر في الجماهير فهدأت ، ثم فتح الباب فدخلوا إلى أن بلغوا مخدع الملك ، فلما رأوا الملكة واقفة بملابس النوم جمدوا فى مكانهم ، فقالت .

ـ تفضلوا ايها السادة ، وليقترب منكم من يعرف الملك شخصيا ليتأكد انه هو ، وانه نائم ، وانني انا الملكة لا يبدو على شكل من يستعدون للهرب .

وتشجع الزعيم ـ وكان هو بلانشيه ـ فدخل معه شخص آخر ملتف بعباءة فضاضة فحدقا في وجه الملك ، واعلنا أنه هو الملك فعلا ، وانهما سيبلغان هذه الحقيقة للشعب .

وقد أجاد الملك الطفل تمثيل النوم ، فلما خرجت الجماهير مسح دارتانيان العرق الذى تصبب من جبينه ، ثم عاد قائد الحرس ليخبر الملكة أن المندوبين اعلنا الحقيقة للشعب ، فانصرف الشعب هاتفا للملك والملكة . فأشار دارتانيان بأن الوقت مناسب للرحيل ، فتبعته الملكة والملك ، فجلس دارتانيان فى مكان الحوذى ، ثم امر باطلاق سراح الحوذى الأصلى ، وان يذهب احد الجنود فيأخذ جواده وجواد بورتوس ويذهب بهما إلى مكان معين خارج باريس ، في ضاحية سان جيرمان ، في انتظار أوامر اخرى .



وخرجت العربة يقودها الحوذى دارتانيان وقد اخفى بين ثيابه غدارتيه ، ووضع تحت قدميه بندقية محشوة ، كما وضع سيفه عاريا وراء ظهره . ولم تكتم

الملكة التي جلست بين طفليها (الملك واخيه الأصغر الدوق انجو) استغرابها من وجود عربة نائب المطران بالذات تحت يد دارتانيان ، وجلس قبالة الملكة خادمها الخاص " لابورت " .

وكانت داوريات الشعب حين ترى العربة تعرفها بشعارها فتهتف لنائب المطران وتفسح الطريق ، إلى أن خرجوا سالمين من باب باريس ، وما هي إلا بضع دقائق أخرى من السير السريع حتى لحقوا بالكردينال في عربة الملكة في المكان الذي كان يشغله الخادم .

وبعد دقائق معدودات وصلت عربة الأمير كونديه ومعه زوجته ووالديه ، ثم عربة أخرى فيها عم الملك الدوق اورليان وزوجته وابنته ، ثم عربة ثالثة فيها الدوق لنجفيل زوج شقيقة الأمير كونديه والأمير مونتي . فقالت الملكة :

- وأين الدوقة لنجفيل ؟

- ان زوجتي مريضة وتعتذر اليك يا مولاتي .

ثم توالت بعد ذلك العربات ، وتوجه الركب بكامل هيئته إلى قصر سان جيرمان . وهناك امتطى دارتانيان وبورتوس جواديهما ، وهما بالانصراف ، لولا ان الكاردينال استدعى دارتانيال وقال له :

- انك بطل يساوى اكثر من وزنه ذهباً ، وانى اقدرك تمام التقدير . ما رايك فى ان تغدو يوزباشياً ؟ وان يغدو صديقك بارونا ؟ إذا كنتما تريدان ذلك فها هو الخطاب الذى يجب أن تسلماه إلى العنوان المكتوب بداخله فوق مظروف آخر . ولكن لا تفتحا المظروف الأول إلى حين تصلان إلى لندن . ويجب أن يكون الرحيل من ميناء بولونى ، حيث ستجدان شابا انجليزيا متنكرا تحت اسم موردانت ، وعليكما أن تتبعا هذا الشاب حيثما ذهب بكما ، وأن تطيعاه طاعة عمياء . وهذا كل شىء .

- لا أظن ياصاحب النيافة أن هذا كل شىء . فالسفر فيما يلوح يحتاج إلى مصاريف . والمعيشة فى انجلترا مرتفعة التكاليف ، ولا سيما حين يكون المرء مندوبا فوق العادة

- هاكما إذن الف ريال . فما قولك يادارتانيان ؟

- قولى ان هذا قليل ، وخصوصاً اننا اثنان .

- نجعلها إذن الفا ومائتين . ولكما عند العودة ما وعدتكما من ترقيتك ومن الانعام على صديقك برتبة البارونية .

- وهل افهم انه يدخل فى مهمتى ان اقاتل إذا احتاج الأمر إلى قتال ؟

- اطع كل ما يقوله لك من ارسلت اليه هذا الخطاب .

- لى طلب أخير الا استطيع توديع جلالة الملكة ؟

ـ جلالتها نائمة بعد مجهود السفر الشاق ، ويجب أن ترحلا إلى بولوتي فوراً .

فلم يسع دارتانيان سوى الانصراف مع صاحبه بورتوس الذى كان متعبا جداً من السفر والسهر ، وان يسرجا جوادين من اقوى جياد القصر ويركبا إلى غايتهما المجهولة .

اخبار من اراميس

اتجه الفارسان اولا إلى باريس كي يسوى دارتانيان بعض شئونه الخاصة قبل رحلة مجهولة العواقب . فلما وصلا إلى العاصمة وجداها تغلى . حتى إذا وصلا إلى ميدان القصر الملكى ابصر دارتانيان تابعه القديم بلانشيه يقود تدريبات عسكرية من الأهالى يبلغ عددهم نحو خمسمائة ، مستعينا بمعلوماته القديمة حين كان (مراسلة) لدارتانيان فى الحروب منذ عشرين سنة . فلما رأى دارتانيان القى عليه تحية الصباح فى أنفة ، فرد عليه دارتانيان التحية ساخراً واستانف سيره مع بورتوس إلى فندق العنزة الصغيرة . واستقبلته صاحبة الخان بخطاب وصل لتوه بعنوانه ، فعرف فيه خط أتوس ، ففضه وقرأه بسرعة ، وإذا به هذه الكلمات :

ـ تحيتى وتحيات أراميس إليك وإلى بورتوس . ربما كانت هذه آخر رسائلنا . نحن فى ظروف حرجة ، ولكن الله معنا . أوصيك براؤول . وإذا لم تصلك خطابات منى بعد شهرين ونصف فأرجوك أن تفتح خزانة أوراقى فى بلوا وتطلع على ما فيها ، وأن تشمل الفيكونت بما كنت تخصنى به من المحبة . وإذا صادفك فى طريقك شخص اسمه موردانت فاحذر منه . ولا استطيع أن أقول لك أكثر من ذلك فى خطاب

« أتوس »

وتذكر دارتانيان هذا الاسم الذى قال له مازاران ان الانجليزى الذى سيقابله فى بولونى متنكر تحته ، ورأى فى آخر الخطاب بضعة سطور بامضاء اراميس :

ـ إن مكان إقامتنا لا نستطيع التصريح به ، خوفا من حضوركما لتشاركانا خطر الموت فيه . وإذا كان أتوس يوصيك براؤول ، فانا أوصيك بالانتقام . فاذا وقع فى يدك يوماً ما شخص اسمه موردانت فاطلب من بورتوس أن يلوى عنقه بيديه الفولاذيتين حتى يقطعه كعنق الدجاجة . ولا استطيع أن أزيد .

« أراميس »

ففتل بورتوس شاربه وقال :

ـ هذه مسألة سهلة

فابتسم دارتانيان ابتسامة كالحة وقال :

ـ إنها بالعكس صعبة جداً ، بل مستحيلة .

ـ هيه ؟ لماذا ؟
ـ لانك ياعزيزى موفد إلى السيد موردانت بالذات في بولوني وسترحل في صحبته عبر البحر إلى انجلترا .
ـ إذن لا نذهب اليه . بل ننضم إلى صديقينا فنناصرهما
ـ لقد فكرت في هذا فعلا يا صديقي الذكى ، ولكنهما أخفيا عنا عنوانهما
ـ رباه . هذا صحيح . كيف نسيته ؟ ولكن هيا بنا نقابل راؤول ، فقد تكون لديه أنباء عن أتوس .
ـ رأى حسن ، فهيا بنا .
وركبا جواديهما ، فوجدا في الشارع قرب سان دينيس مظاهرة كبيرة ، لأن الدوق دى بوفور حضر لتوه ، ونيافة نائب المطران يقدمه للجماهير . فأسرعا في طريقهما إلى أن اعترضتهما مظاهرة ، فصاح دارتانيان :
ـ نحن مندوبان من الدوق دي بوفور برسالة إلى والده الدوق فاندوم .
وهكذا زالت من أمامهما جميع العقبات . ولكنهما لم يجدا عند راؤول اى نبأ عن أتوس ، ووجداه في غاية القلق لعدم وصول خطابات . فطمأنه دارتانيان وقال له إنه تلقى خطاباً يبعث على الارتياح . فلما طلب اليه الفتى إطلاعه على الخطاب تصنع إنه فقد منه .
وبعد ذلك ركب الصديقان إلى بولوني ، فوصلاها عند حلول المساء ، وقد تصببا عرقاً ، وانهكت قوى جواديهما ، وعلاهما الزبد . فأبصرا عند مدخل المدينة شاباً متشحاً بالسواد يبدو كأنه ينتظر وصول احد ما ، فراح يحدق فيهما ، فاقترب منه دارتانيان قائلا :
ـ اسمع يا اخانا ! انا لا احب أن يحدق في احد .
فأجاب الشاب دون أن يعلق على هذه الملاحظة :
ـ هل انتما قادمان من باريس ؟
ـ أجل .
ـ ألستما مكلفين بمهمة من لدن نيافة الكردينال مازاران ؟
ـ بلى يا سيدى .
ـ إذن فأنا ضالتكما ، فاسمى موردانت
فحرك بورتوس اصابعه وقد تذكر وصية اراميس . وتبادل الفارسان النظر ، ثم تفرسا فيه جيداً ، فلم يفهم مغزى هذه النظرات وقال :
ـ اتشكان في حقيقة شخصى ؟ في استطاعتى ان اقدم لكما الدليل المقنع .
فقال دارتانيان
ـ لاضرورة لذلك ياسيدى ، نحن نضع انفسنا تحت تصرفك

- إذن نبحر الان . فالسفينة مستعدة ، وهذا آخر يوم في مهلتي ، والجنرال كرومويل ينتظر أوبتي بفارغ الصبر .
- إذن نحن مبعوثان الى الجنرال كرومويل ؟
-أليس معكما خطاب موجه إليه ؟
- معي فعلا خطاب لا ينبغي أن أنزع غلافه الخارجي الأبيض لأرى العنوان على الغلاف الداخلى ، إلا حين اصل إلي لندن ، ولكن ما دمت قد صرحت لى ، فانى افض الخطاب هنا وفض دارتانيان الخطاب ، فوجد العنوان على المظروف الداخلى :
- إلى السيد اوليفر كرومويل ، قائد عام قوات الامة الانجليزية :
فعجب دارتانيان ولكنه كتم دهشته ، وقال موردانت
- هيا أيها السيدان ، فقد تأخرنا .
فقال بورتوس
- الا يستطيع السيد كرومويل ان ينتظر قليلا حتى نتعشى ؟
- كما تريدان لكن بسرعة .
فقال دارتانيان
- اسبقنا إلى السفينة ريثما نتعشى ونلحق بك بعد نصف ساعة . ما اسم السفينة ؟
- استاندرد (الراية) .
وافترقوا ثم اسرع دارتانيان وبورتوس الى خان لتناول الطعام ، وسأل دارتانيان صاحبه عن رأيه في موردانت وهما يسرعان السير ، فقال :
- إنه لا يعجبنى على الاطلاق ، واشتهى ان انفذ وصية اراميس .
- إياك أن تفعل ، فهو رسول الجنرال كرومويل ، ولا احسبه يحسن استقبالنا اذا قلنا له إننا خنقنا رسوله الخاص .
وتناولا عشاء دسماً . ثم توجها الى المرفأ فركبا السفينة ، ووجدا الملاحين على استعداد للاقلاع فوراً ، فانهمكوا بمجرد ركوبهما في الابحار ، بينما كان الشاب موردانت يتمشى على ظهر السفينة مطرقاً ، فجعل دارتانيان يتفحصه بنظره ثم قال لصاحبه :
- من الغريب ان سحنة هذا الشاب تذكرنى وجهاً عرفته فيما مضى ، ولكنى لا استطيع تحديد وجه من هو .
وفى هذه اللحظة اعلن ربان السفينة انها لا يمكن ان تبحر إلا فى الثامنة مساء لأسباب فنية .

هزيمة الملك شارل

اقلعت السفينة في موعدها المرسوم مقلة دارتانيان وبورتوس . لا الى لندن كما تبادر الى ذهنيهما ، بل الى ديرهم . فلندعها في سبحها وسراها . ولنتوجه للقاء أراميس وآتوس في معسكر الملك شارل قرب نيوكاسل . على شاطىء نهر التاين الذى تقع على شاطئه الاخر جبال اسكتلندا .

وها هى الساعة تدق معلنة الأولى صباحا . وها هما الصاحبان يلتقيان فى جانب مقفر من ذلك المعسكر . فيسمع فى تلك الارض الانجليزية الصميمة اصفى حوار باللغة الفرنسية النقية من كل عجمة . فاذا باكوس يبادر أراميس بقوله :

- هيا بنا نقابل الملك فورا .
- ماذا جرى ؟
- هذا شيء يطول شرحه ، ولكنك ستسمع خبره بعد حين . فهيا الى اللورد ونتر .

وحثا الخطى الى الطرف الآخر من المعسكر . فدخلا فى هذه الساعة على اللورد وايقظاه ثم قال أتوس .

- أريد مخاطبة الملك . كى اكشف له عن امور خطيرة .
- ألا يمكن ارجاء هذه الأمور الى الغد .
- بل يجب أن يعرفها فوراً . وربما كان الوقت قد فات لتلافيها الان .
- هيا بنا يا سيدى العزيزين .

وكانت خيمة ونتر إلي جوار الخيمة الملكية ، وتصل بينهما خيمة على هيئة دهليز يقف للحراسة فيه خادم الملك الخاص ، ولكنه كان يعرف ونتر فانحنى وتركه يمر مع صاحبه . وكان آلملك راقداً على سرير عسكرى ، وعليه حلته السوداء ، وفي قدميه حذاء الركوب الطويل وقد فك حزامه . ووضع قبعته إلى جواره ، واستسلم للنعاس تحت ضغط الارهاق .

فلما راه اتوس على هذه الصورة ، صعد زفرة كانت كافية لايقاظ الملك لأنه كان ينام نوما خفيفاً جداً . فلما رأى أتوس قال :

- أهذا أنت يا كونت دى لافير ؟ انك تسهر وانا نائم ، واحسبك جئتنى بنبأ
- واأسفاه يامولاى . لقد أصبتم الظن .

فابتسم الملك ابتسامه حزينة وقال : هو إذن نبأ سيىء ؟
- أجل يا مولاى . ان السيد كرومويل قد وصل هذه الليلة إلى نيوكاسل .
- آه . هل جاء ليتاجزنى ؟
- كلا يا مولاى . بل ليشتريك . فأنت تعلم يا مولاى أن رواتب الجيش الاسكتلندي متأخرة منذ سنة بما قيمته اربعمائة الف جنيه استرلينى .
- صحيح . فمنذ عام تقريبا والاسكتلنديون الأمناء يحاربون للشرف وحده ..
فابتسم أتوس وقال
- ومع ان الشرف شيء جميل يا مولاى . فقد سئموا القتال من اجله فباعوك الى كرومويل بنصف رواتبهم المتأخرة لديك . اى مائتى الف جنيه . ولكن لا يزال فى مقدورك أن تعبر نهر التاين لتلوذ بجبال اسكتلندا حيث اللورد مونتروز الذى لن يبيعك .
- ما العمل إذن ؟ وكيف نعبر النهر ؟
- أمامك يا مولاى ثلاثة رجال مخلصين . فلتركب جلالتك جوادك فنحف بك ونعبر النهر .
- وهل هذا رايك ايضاً يادى ونتر ؟
- نعم يا مولاى .
- ورايك أنت ايضا ياديربلاى ؟
- نعم يا مولاى .
- إذن اجر اللازم يا ونتر .
فخرج ونتر ثم عاد بعد لحظة وقال ان كل شيء قد صار على ما يرام . فخرج الملك ووجد جواده مستعداً امام الخيمة . ولكن اتوس اشار بيده إلى خط اسود على الأفق مواز للنهر . وقال
- ما هذا ؟ لم يكن لهذا الخط وجود بالأمس يا مولاى .
- هذه ولا شك سحب الضباب الصاعدة من النهر .
- بل هذا يا مولاى شيء اشد جسامة من الضباب . انه العدو خارجا من نيوكاسل كى يحيط بنا . لقد فات الوقت يا مولاى . فها هو فريق آخر قادم من هناك .
- سنرى الان إذا كان الاسكتلنديون قد باعونى حقا .
- ماذا ستصنع جلالتكم ؟
- سأمرهم بمهاجمة العدو واختراق صفوفه
ثم لكز الملك جواده واندفع إلى خيمة الكونت لوين . فتبعه الفرسان الثلاثة وكان القائد واقفاً بين اركان حربه . فبهتوا عندما رأوا الملك امامهم . فقال الملك :

ـ لقد حضر كروموبل هذه الليلة إلى نيوكاسل ، وقد عرفتم ذلك ولم تخبروني به وقد خرج العدو من المدينة وفصل بيننا وبين النهر ، ولا بد أن حراسكم قد أبصروه ، ولكنهم لم يبلغوني ولم يطلقوا صيحات الحذر . وانكم أخيراً قد بعتموني للبرلمان نظير مائتي ألف جنيه استرليني . وهذا وحده هو الذي عرفته في الوقت المناسب . فما قولكم أيها السادة ؟

فحاول الكونت لوين أن ينفي هذه التهم ، وطلب الملك منهم البرهان على كذبها بمهاجمة العدو المتقدم . فتنصلوا من ذلك بأن الهدنة المعقودة بين الطرفين لا تسمح به . فصاح الملك محنقا

ـ ولكن الانجليز العصاة قد خرقوا نصوص الهدنة بخروجهم من المدينة على تعبئة للقتال . فيجب أن تخترقوا معي جيش العدو لنتوغل في اسكتلندا . أما وانتم ترفضون ذلك فعليكم أن تختاروا بين أحد اسمين كل منهما آية على البغض والاحتقار . فأنتم إما جبناء ، واما خونة .

فقدحت عيون الاسكتلنديين بالشرر ، وانقلبوا من الخجل إلى الوقاحة والتبجح . فتقدم منه رئيسان من رؤساء العشائر من الجانبين وقالا

ـ لقد وعدنا بأن نخلص اسكتلندا وانجلترا من ذلك الذي يمتص ذهبهما ودمهما منذ خمس وعشرين سنة . فاعلم أيها الملك شارل ستيوارت انك أسير بين أيدينا .

ثم مدا يديهما في وقت واحد ليقبضا عليه . ولكن قبل أن تمسه أطراف أناملها كانا قد سقطا صريعين . فقد صعق أتوس أحدهما بقبضة مسدسه ، أما الاخر فقد اخترق أراميس جسده بسن سيفه ، فتراجع الكونت لوين وسائر القواد أمام هذه المعونة المفاجئة وانسحب أراميس وأتوس بالملك إلى خارج الخيمة ، حيث قفزوا إلى صهوات الجياد التي كانتا في يد الخدم وأسرعوا إلى الخيمة الملكية ، وراوا في طريقهم اليها اللورد ونتر واقفاً على راس فرقته ، فأشار اليه الملك أن يوافيه



دخل الأربعة خيمة الملك ، فتهاوى الملك فوق مقعد وقال « لقد ضاع كل شيء .. »

فقال أتوس :

ـ كلا وإنما هي خيانة ، فانهض يا مولاي ، فتحت امرك على الاقل ثلاثة رجال لن يخونوك مهما كانت الأحوال ، وإني اقترح ان يتقدم اللورد دي ونتر على رأس فرقته التي يثق في ولائها . ونحيط نحن الاثنان بجلالتك ، ثم نحاول فتح ثغرة في جيش كروموبل ننفذ منها إلى اسكتلندا

فقال أراميس
ـ هناك وسيلة أخرى ، وهي أن يلبس أحدنا ثوب الملك ويركب حصانه ، حتى يتجمع حوله انتباه العدو ، فيستطيع الاثنان الباقيان المرور بجلالتك من خط القتال فقال الملك
ـ ما رأيك في هذا يا دي ونتر ؟
ـ رأيي يا مولاي أن خير طريقة لانقاذ جلالتك هي ما قاله السيد ديربلاي ، والتمس من جلالتكم أن تختاروا بديلكم فوراً من ثلاثتنا لضيق الوقت .
فرمق الملك صديقه القديم بنظرة يكاد يطفر منها الدمع ، ثم نزع الوشاح الاكبر من نيشان الروح القدس الذي يحلي به صدره فوضعه حول عنق دي ونتر الذي تلقى ذلك الشرف ـ شرف خطر الموت في سبيل نجاة الملك بأن يحل محله ـ راكعاً على ركبتيه . ثم التفت جلالة الملك ففتح صيواناً أخرج منه وشاحين من اوسمة ربطة الساق ، وهي ارفع الأوسمة الانجليزية إطلاقاً . فأنعم بهما على أتوس وأراميس وقبلهما ، ثم تبادل مع دي ونتر القبعة والجواد . وركب أربعتهم . واقترح أتوس أن تقسم فرقة دي ونتر الى قسمين احداهما يقوده دي ونتر ، والآخر يقوده الملك . فوافق الملك ، وتولى دي ونتر التقسيم ، ثم صاح بفريقه :
ـ إلى الأمام . امتشقوا السيوف !
فصدع رجاله بالامر ، وانشرح صدر الملك فصاح برجاله « امتشقوا السيوف ! »
ولكن اتوس وأراميس هما اللذان أطاعا وحدهما ذلك الأمر ، ثم بدا الرجال يتفرقون منفضين إلى جيش العدو ، كما انفض رجال دي ونتر من حوله ، اللهم إلا حفنة لاتصل إلى العشرين رجلا ، بيد أن دي ونتر لم يتراجع بل صاح « إلى ياجميع المخلصين .
فاسرع أراميس واتوس والملك اليه ليتلقوا مع تلك الفئة القليلة هجوم الطليعة من رجال كرومويل الذي شوهد على ربوة يدير المعركة .
واقبلت طلائع العدو ، وصاح قائدهم بالفرنسية « لا مرور »
فما ان سمع دي ونتر ذلك الصوت حتى ارتعدت فرائصه ، فقد كان ذلك الصوت لفارس فوق جواد أسود رائع ، يتقدم جنوده في حمية وصاح جنوده حين رأوا دي ونتر في ثياب الملك : ها هو الملك اقبضوا عليه حياً .
فصاح ذلك القائد « ليس هذا هو الملك أليس كذلك يالورد ونتر ؟ انت لست الملك أليس كذلك ياعماه » ؟
وبحركة سريعة صوب فوهة مسدسه اليه ، ثم اطلقه فأصاب صدر اللورد الشيخ وأرداه صريعا . وكانت آخر كلماته

ـ المنتقم .. !

وفى هذه اللحظة اطبقت الفرقة كلها على هذه الفئة الصغيرة ، ووجد أتوس وأراميس نفسيهما محصورين ، فجرد اتوس سيفه وصاح بزميله :

ـ هيا يا اراميس نكافح عن شرف فرنسا .

وسقط اقرب انجليزيين اليهما ، وإذا بالصفوف الانجليزية تنشق عن عملاق ينقض على أتوس فينتزع السيف من يده وهو يهمس فى اذنه :

ـ استسلم في سكون ، فاستسلامك لى لايعيبك .

ـ دار .

فكتم دارتانيان فم اتوس حتى لا ينطق باسمه . وفى الوقت نفسه كان عملاق آخر اسمه بورتوس ينقض علي اراميس ويأخذ منه سيفه . وهكذا انتهت الموقعة . وطلب موردانت على الأثر الى اراميس وبورتوس ان يدهيا معه لمقابلة كرومويل ، ولكنهما اصرا على إيداع أسيريهما الفرنسيين اللذين تجاهلا انهما يعرفانهما ، فى مسكنهما بالمدينة قبل ذلك ، ورفضا تسليمهما لموردانت الذى تعهد بحراستهما . فاشار موردانت إلى جاويش ان يتبعهم ليخبره بمكانهم . ورأى دارتانيان هذه الاشارة وفطن الى مغزاها .

وفي هذه الأثناء كان الملك قد رأى نفسه وحيداً فترجل عن جواده ومشى ببطء الى ان رأى جثة ونتر ، فانحني وقبله ، ثم استرد نيشان الروح القدس وقبعته المزخرفة ، وخاطب كولونيل الفرقة قائلا

ـ هيا ايها السادة الى حيث تريدون .

ـ سيفك .

فجرد الملك سيفه وكسره على ركبته

واسرع موردانت بعد ذلك إلى الربوة التى فوقها كرومويل فابلغه تطوارات المعركة ، بما فيها مصرع عمه بيده ، ثم اسر الملك . فأبدى كرومويل سروره من شجاعته ، وإن عجب فى نفسه لعدم تأثره بمقتل عمه بيده ، فقال موردانت

ـ لقد حان الوقت ياسيدى لكي تكافئني على كل ما اديت من خدمات هنا وفى فرنسا . فهل تجيبني إلى طلبى ياسيدى ؟

ـ ما هو الطلب أولا ؟

ـ هناك اسيران اريد ان تهبني إياهما .

ـ هما لك . ولست أريد معرفة اسميهما ، فتصرف فى اسرهما بما تراه .

ـ شكراً لك ياسيدى ، وسأظل نظير ذلك الجميل مدينا لك مدى الحياة ، وحتى لو بذلت حياتى فى خدمتك لما عظم ذلك جزاء على هذه المنة العظمى .

□ □ □

وفي هذه الأثناء كان دارتانيان وبورتوس قد وصلا بأسيريهما إلى مقرهما الخاص في مدينة نيوكاسل . وهو منزل مزودة نوافذه الأرضية بقضبان كقضبان السجون ، على ناصية شارع ، وبه حديقة واسطبل . فلما دخل الأربعة البيت ، استقر الجاويش الذى ارسله موردانت وراءهم في الحديقة الصغيرة مع اتباعه . قائلا لآتوس :

ـ لقد تلقينا امراً بمساعدتكما في حراسة السجينين .

ـ فلما أغلق الباب على الاصدقاء الأربعة راحوا يتبادلون العناق والقبلات ، وكل فريق من الفريقين يعجب لتلك الصدفة الغريبة ، ويستغرب وجود الفريق الآخر في انجلترا ، ثم تبادلوا أسرار الحوادث التي دفعت بكل فريق من الفريقين في ذلك الاتجاه . وراح آتوس وأراميس يعتبان على دارتانيان وبورتوس انهما رضيا ان يحاربا قضية الملك وهما النبيلان الشريفان ، وهو راس الأشراف .

ثم انقلب الحديث بعد ذلك إلى المستقبل . وإلى وجود موردانت بن ميليدى عدوهم اللدود معهم في مدينة واحدة . وما في ذلك من خطر لو عرف حقيقة شخصيتهم .

وفي هذه اللحظة صاح آتوس :

ـ ها هو موردانت مقبلا يعدو نحونا .

فخرج دارتانيان من البيت لمقابلته ، بعد أن حذر آتوس واراميس من اظهار أى شيء ينم على اشخاصهم او سبق تعارفهم ، وطلب اليهم الا يخرجوا من الغرفة إلا إذا سمعوه ينقر بأصابعه على الباب نقراً موسيقيا متفقاً عليه .



وجد موردانت دارتانيان واقفاً امام البيت ، والجنود منبطحين على الأرض ، فامر اربعة منهم بالتأهب للسير بالاسيرين ، فتصدى له دارتانيان متعجباً من ذلك التصرف مع ان الاسيرين اسيراه هو وصاحبه بورتوس ، فقال له موردانت إن الجنرال كرومويل قد انعم عليه بهما ، فلم يستطع دارتانيان ان يتحدى إرادة القائد ، وآثر استعمال الحيلة ، فطالب موردانت بابراز امر كتابى بتوقيع كرومويل ، ولمح له إلى ان الاسيرين من اغنى ابناء البيوتات في فرنسا وفديتهما ضخمة ، قد تكفي لاثراء رجل فقير مثله ، ذلك أن زميله دى فالون ثرى وقد تنازل له عن نصيبه من الفدية . فلم يمانع موردانت في العودة لاحضار امر كتابى من كرومويل ، وإحضار الفي ريال تعويضاً عن فدية الاسيرين .

وانصرف موردانت على ان يعود بعد نصف ساعة بعد أن شدد الأوامر على الحراس ، فأسرع دارتانيان بتكليف بوتورس بالتوجه إلى الاسطبل حيث ي... موسكيتن فيسرجان خمسة خيول ، ويضعان عليها الذخيرة والسلاح ، ويقفان ب...

في الشارع الجانبي في انتظار تمام العملية . ثم دخل دارتانيان إلى الحجرة التي فيها آتوس وأراميس . فأخبرهما انه قد اعتزم الفرار معهما والعودة إلى فرنسا للانضمام إلى الأمراء ضد مازاران . فأخذ كل منهما سيفه . ثم طلب اليهما ان يكونا على تمام الأهبة . للخروج والقفز فوق ظهور الخيل حين يطلق الاشارة المتفق عليها « بحق السماء » .

وأسرع دارتانيان بالخروج وهو يصفر بفمه ثم قال للجاويش قائد الحراس انه ذاهب لمقابلة الجنرال كرومويل . وأوصاه بالانتباه للاسيرين . ثم خرج إلى الشارع فوجد بورتوس واقفاً مع موسكيتن والخيول الخمسة على اتم استعداد . فركب جواده ثم وقف به امام باب البيت . وأخرج قداحته فأشعل بها قطعة من الصوفان كبيرة . ثم تحرى ان يقف بجواده في وسط الجنود . وحينئذ وضع الصوفان المشتعل في اذن الجواد . وثبت نفسه جيداً فوق السرج . فاذا بالحصان يشب على قائمتيه الخلفيتين وهو في درجة من الهياج كبيرة . وراح يصهل ويرفس كالمجنون . فأسرع العساكر بالابتعاد خائفين . وراح دارتانيان يصيح

ـ أدركوني . اغيثوني . لقد جن الحصان . سيقتلني الملعون . ادركوني بحق السماء !

وما ان نطق الكلمة الأخيرة حتى انطلق الفارسان اراميس وآتوس من الباب كالقنبلة وفي يديهما السيوف مشرعة . ورآهما الجاويش فجعل يصيح . فأسرع الجنود الى اسلحتهم . ولكن بعد فوات الاوان لأن الاسيرين كانا قد انطلقا مع صاحبيهما يسابقون الريح حتى خرج الجميع سالمين من باب المدينة . ومعهم جريمو الذى لقيهم في الطريق وكان ذاهبا إلى البيت فأسرع وراءهم .



توقف الفرسان الاربعة حين استشعروا الامن ليتشاوروا في خطتهم . فاقترح دارتانيان ان يتجهوا إلى اقرب مرفأ كي يبحروا إلى فرنسا . ووافقه بورتوس على ذلك . بيد ان اتوس وأراميس رفضا العودة إلى الوطن وقررا البقاء في انجلترا لمحاولة انقاذ الملك وعبثا عالج دارتانيان وبورتوس هذا الرأى . فان تصميم صاحبيهما على إرضاء ضميرهما والوفاء بوعدهما للملكة هنرييت كان راسخا كالجبال . فلم يسع دارتانيان وبورتوس إلا ان يقررا المكوث معهما فإما انتصروا معاً أو هلكوا معا . وقد تأثر الصديقان لذلك الوفاء الجميل . وعانق آتوس دارتانيان شاكرا . اما بورتوس فانه جعل يفرك يديه ثم قال :

ـ لقد اتفقنا على خطة المستقبل . ولكن أليس الأهم ان نبحث عن شيء نقتات به ؟

ثم اتجه العملاق الى خادمه السمين موسكيتن الذى كان اشد الجميع عذابا بخلاء معدته ، فأفتى بأنه لاتوجد مطاعم قريبة ، ولكنه لمح على طرف الغابة منزلا صغيرا .

ووجدوا حينما اقتربوا من البيت اثار جياد كثيرة ، مما دلهم على أن الفرقة التى تحرس الملك الأسير فى طريقه الى لندن قد مرت بالبيت ونزلت به ، فتشاءموا لأنهم قدروا أن الجنود قد أتوا على كل مايصلح للاكل . بيد أن دارتانيان قرر الدخول وفعلا دخل وحده ليكتشف ، وكان الباب مفتوحا ولم يجب نداءه المتكرر أحد ، فراعه حين وصل الى غرفة داخلية ، أن يرى شخصا غارقا فى بركة من الدماء . فصرخ دارتانيان دهشة ، واسرع اليه زملاؤه وارتاعوا كما ارتاع ، ولكنهم لم يلبثوا ان اطمأنوا حين فتح الجريح عينيه وحدق فيهم فزعا ، ثم هدأ واطمأن حين علم انهم من أنصار الملك ، وصرح لهم بانه شقيق « بارى » وصيف الملك الخاص ، وأن الملك الأسير قد نزل بالبيت للغذاء بإشارة من بارى ، فوضعوه فى هذه الغرفة الداخلية مع وصيفه ووقفوا لحراسته فى الدهليز ، كى تكون له الحرية الكاملة اثناء الطعام .

ـ وكان بارى يعلم ان فى هذه الغرفة سردابا سريا يصلها بالكهف فى أسفل المنزل ، فاشار الى فذهبت الى الكهف ودخلت السرداب السرى ، حتى رفعت جزءا من بلاط الحجرة برأسى واشرت الى الملك ، بينما عمد اخى الى الباب فاقفله بالمزلاج ، فجاء الملك ومشيت امامه لادله على الطريق ، واذا بى افاجأ بشخص يعترضنى ويضربنى على أم راسى هذه الضربة فاغمى على ، ولما افقت كان الجميع قد رحلوا ، ولعلهم ظنوا انى مت ، فزحفت حتى وصلت الى هنا فغشى على ثانية ، الى ان حضرتم

واسرع جريمو فضمد جرح هذا المسكين الذى نجم عن ضربة بقبضة غدارة فى مؤخرة الجمجمة ، ثم انصرفوا بعد ذلك دون ان يصيبوا من الطعام شيئا ، وتشاوروا مرة أخرى فاتفق رأيهم على الذهاب الى لندن يبدلون ثيابهم فتضيع معالمهم فى المدينة الكبيرة ، واتفقوا على ان يجتهدوا فى اللحاق بالسرية التى تحرس الملك ، حتى يكون السير مأمونا ، والطعام مضمونا ، وعلى ان يتظاهر أتوس وأراميس بانهما اسيران فى يد دارتانيان وبورتوس ، لأن الأخيرين معروفان لدى ضباط كرومويل انهما مندوبان فوق العادة لوزير فرنسا مازاران ، فهما لهذا السبب محل رعاية واحترام .

واسرعوا فى السير حتى أدركوا ضالتهم ، فرحب بهم الكولونيل هاريسون قائد الكتيبة المكلفة بحراسة الملك ، أما الملك نفسه فلما راى أتوس وأراميس توردت وجنتاه انسا بهما وهو فى هذا الموقف الضنك . أما دارتانيان فإنه أسرع إلى

جوار الكولونيل هاريسون الذي رحب به كل الترحيب ، ثم لم يلبث الركب ان توقف عن المسير كي يتناول عشاءه . ولكن الاحتياطات فى هذه المرة كانت متشددة . فوضعت فى قاعة الطعام الكبيرة بالخان الذى نزلوه فيه مائدة صغيرة يتناول عليها الملك طعامه ، كما وضعت امامه مائدة كبيرة للضباط ودعا الكولونيل هاريسون دارتانيان وبورتوس واسيريهما - اللذين دعاهما لشرف محتدهما - ليتناولوا الطعام معه ، بيد أن دارتانيان اعتذر بضيق المكان ، وطلب ان تعد لهم مائدة ثالثة صغيرة فى نفس الحجرة ، فأجيب الى طلبه فى الحال وراح دارتانيان اثناء الطعام يصف كيف نزلوا بالبيت الذى حدثت فيه محاولة الهرب ، ثم أطرى الضربة التى وجد اثرها فى جمجمة صاحب البيت فكان ذلك فاتحة للتعرف بالكابتن جروسلو الذى ظن نفسه قد قتل الرجل ، فحرص دارتانيان على آن يقول ان الرجل لم يمت وإن كان قد نجا من الموت بأعجوبة . فكانت هذه بشرى لبارى وصيف الملك بأن اخاه بخير

وختم دارتانيان المأدبة بأن رفع كأسه وشرب نخب رئيس الحفلة معلنا انه وإخوانه يعتبرون أنفسهم فى خدمته هنا وفى لندن والى الابد . وظن الكولونيل ان هذه التحية موجهة له لكن الملك ادرك انه المقصود بها . وأن الفرسان الأربعة قد قرروا محاولة إنقاذه .

فلما استأنفوا المسير ، راح دارتانيان يكدح ذهنه للوصول الى وسيلة بارعة كفيلة بإنقاذ الملك الاسير من بين ايدى حراسه الكثيرين .

وكانت وجهة الركب بلدة تريسك ، حيث يقضون الليلة ، فكانت هذه الليلة اقل الليالى حظا من النعاس بالنسبة لدارتانيان ، لانشغاله بايجاد هذه الوسيلة التى عقد زملاؤه امالهم عليها ، ولكن انوار الفجر حملت اليه الالهام .

لم يعرف دارتانيان طعم النوم ولكن ما كادت تبدو اول تباشير النهار حتى اسرع الى زيارة الجياد فى الاسطبل واعطاء الأوامر للخدم لذلك اليوم ، حتى إذا كانت الساعة الثامنة بدأ المسير ، على نفس نظام اليوم السابق ، بيد أن دارتانيان ترك زملاءه ومضى الى الكابتن جروسلو ليعقد معه اواصر الصداقة التى بدأت بالأمس وقد وجد ان خير طريقة لكسب مودته ان يكيل له المديح على قوته وشجاعته ، ومعرفته للغة الفرنسية على وجه الخصوص . فاطمأن الرجل اليه وراح يحكى له كيف عاش ست سنوات فى باريس عند وكيل والده التجارى فى العاصمة الفرنسية ، ثم تطرق الكلام الى الملك وكيف سيحاكم فى لندن ثم يعدم . فقال دارتانيان :

- ياله من صيد سمين ، لااحسبك تغفل عنه ليلا أو نهارا . وان كنت احسب ان الحراسة بالليل اشق ، وفرص الافلات منها اكثر .

- كلا ، فالاحتياطات في الليل مضاعفة : إذ يلازم ستة رجال حجرة الملك باستمرار
- هذا عظيم . ولاشك ايضا ان فى خارج الحجرة حرسا اخر كبير العدد .
- وماذا يستطيع رجلان اعزلان لثمانية رجال مسلحين ؟
- رجلان ؟
- نعم ، الملك ووصيفه هارى الذى يصر الملك على ملازمته له ، إذ يبدو ان السلوك قد فقدوا بالعادة الدراية باللبس والخلع بغير مساعدة كالأطفال .
- ياله من عمل شاق لك . لقد كنت انا فى فرنسا قبل حضورى مباشرة الى انجلترا مكلفا بحراسة ملكنا الصغير في بعض الرحلات لمدة ثلاث ايام ولكنها كانت اياما لذيذة للغاية لم اشعر فيها بأى تعب ، ولاسيما فى الليل .
- لابد إذن أن الملك كان مسامرا ظريفا
- الملك ؟ لقد كان طفلا ينام نوما عميقا من أول الليل الى أخره . فكنت انا وزملائى الضباط الذين ليست عليهم النوبة نتسامر ، فيأتون الى حجرة الحرس المفضية الى حجرة الملك ، ويسهرون معى فنشرب ونلعب القمار ونحن فى غاية الطرب حتى الصباح ، فهل تريد ليالى مفرحة بهيجة اكثر من هذه ؟ أما انت ياصاحبى فما اظنك الا تنفق ليالى الحراسة فى التبرم والسأم
- لك حق وإنى فى الواقع انظر بعين القلق الى اقتراب دورى فى الحراسة الليلية بغرفة الملك . فما رأيك أن تأتى لتسهر معى فى نوبة حراستى ليلة غد ؟
- فى حراسة الملك ؟ هذا مستحيل ثم انى مرتبط بتسلية زميلى دى فالون بمشاركته اللعب ، فاننا نلعب احيانا حتى الصباح
- هات صديقك معك
- واسيرانا ؟
- اتركهما لحراسة الخدم
- كي يهربا ؟ كلا ياسيدى .
- هما إذن من ذوى الحيثية حتى انك حريص على عدم هربهما ؟
- انهما ينتسبان الى اغنى واعرق الاسر فى فرنسا .
- إذن هاتهما معك ايضا ، فنلعب خمستنا معا ويكون السرور اتم . وخصص من الحراس الثمانية اربعة لحراسة اسيريك ، ويكفى لحراسة الملك الاربعة الآخرون .

ولم يبادر دارتانيان بالقبول متظاهرا بأنه لايريد احراج صديقه جروسلو ، ولم يقبل الدعوة الا بعد الحاح من الضابط الانجليزى ، وبعد أن اشترط عليه ان يأتى هو للسهر معه ومع زملائه الثلاثة هذه الليلة نفسها ، لتزداد الالفة ويكون موضع

ثقة جروسلو التامة حين يذهب مع زملائه للعب معه فى حجرة الملك .
وكانت حفاوة دارتانيان بجروسلو فى تلك الليلة عظيمة بحيث شعر بأنس بين الكاس واللعب والنكات لم يشعر بمثله منذ غادر باريس . وقد تعمد دارتانيان ان يتأخر فى الليلة التالية عمدا عن تلبية الدعوة للسهر مع جروسلو فى حجرة الملك حتى بعث اليه خادمه يستعجله ، لكى ينفى من ذهنه جميع شوائب الشك .

* * *

واستقروا للعب فى الحجرة المفضية الى حجرة الملك ، وجلس جروسلو فى مواجهة الباب . بحيث تقع عينه على الملك من خلال فتحته . ثم استثار دارتانيان حماسته بأن اخرج كومة من الذهب فى قبضة يده ، فقسم جروسلو الحرس بأن جعل أربعة من الثمانية داخل حجرة الملك واثنين على الباب المتوسط بين الحجرتين والاثنين الباقيين على باب الحجرة الأولى التى جلسوا فيها للمقامرة .
وأثلج صدورهم ان يروا الملك نائما بملابسه كاملة وحذائه الطويل ، ولمحوا علائم الابتهاج الخفيف تبدو على محياه النبيل حين راهم .
وبعد ان بدأ اللعب بقليل ، وقد تحروا آن يكسب جروسلو معظم الأدوار ، سمع فى الخارج مع دقات الساعة العاشرة صوت نوبة الطواف لتبديل الحرس والتمام ، فسأل دارتانيان بلهجة من يسأل سؤالا عارضا « كم من الوقت يمضى بين النوبة والنوبة » .
ـ ساعتان فقط .
فتبادل دارتانيان الاشارة بركبته مع بورتوس وارامبس اللذين الى جانبيه ، اما أتوس فغمز له باحدى عينيه . وكانت العلامة المتفق عليها أن يصيح دارتانيان بكلمة (اخيرا)
وكانت حماسة اللعب قد لفتت انظار الحراس فخرجوا من حجرة الملك وتركوا مواضعهم ووقفوا حول المائدة يتفرجون باهتمام . فأظهر دارتانيان بعض التذمر من محالفة الحظ للضابط الانجليزى ، وقال وهو يخرج من جيبه عشرين ريالا
ـ لنلعب دورا اخيرا ، بهذه العشرين ريالا .
فقبل جروسلو ، ودارت الأوراق فاذا دارتانيان يربح فى هذه المرة ، فصاح : (أخيرا) فنهض آتوس وارامبس وتراجع بورتوس الى الوراء خطوة واوشكت السيوف والخناجر أن تخرج من اغمادها لتتم المذبحة ويفلتوا بالملك من الأسر ، وفى هذه اللحظة بالضبط فتح الباب الخارجى فجأة وبدا على عتبته الكولونيل هاريسون بنفسه والى جواره رجل ملتف بعباءة فضفاضة ومن خلفه ستة جنود مسلحين بالبنادق . فنهض جروسلو مرتبكا من منظر زجاجات الخمر والورق وما فى ذلك من اهمال فى اداء الواجب بيد ان هاريسون لم يلتفت الى شىء من ذلك

بل اتجه توا مع مرافقه الى حجرة الملك ، فخاطبه قائلا :

ـ شارل ستيوارت . لقد وصل الآن الأمر من لندن أن تحمل الى هناك بغير توقف ليلا أو نهاراً ، فاستعد للسفر في هذه اللحظة . وهذا هو السيد موردانت يحمل بنفسه رسالة الجنرال كرومويل التي عهد اليه بتنفيذها بنفسه .

فتناقل الفرسان الأربعة النظرات ، ثم انتهز دارتانيان فرصة الارتباك وجمع في جيبه الواسع كل ما كان على المائدة من النقود التي كان خسرها هو وبورتوس ، وهم الأربعة بمغادرة البيت ، لولا أن موردانت التفت ورآهم فصاح :

ـ ياكولونيل هاريسون ، مر بمحاصرة هؤلاء الفرنسيين الأربعة ، فقد هربوا من نيوكاسل ولاشك أن نيتهم متجهة لتخليص الملك .

فامتشق دارتانيان حسامه وزعق فيه زعقة عظيمة قائلا

ـ أيها الشاب : هذه أوامر اصدارها اسهل كثيرا من تنفيذها . ايها الرفاق . انسحاب ! ثم دار بسيفه فرسم به نصف دائرة بحيث تراجع جميع العساكر مبهوتين بعيدا عن متناول هذا السيف . وكان الباب خلفهم فتسللوا منه وقفزوا الى ظهور الجياد ، وتبعتهم بضع طلقات نارية خائبة ، ولكنهم كان يسابقون الريح الى خارج منطقة الخطر ، ثم اختفوا تحت قنطرة ريثما مر المطاردون ، فخرجوا وسلكوا طريقا مضادا .

اعدام الملك شارل

وفي الطريق الى لندن زادا تصميم الفرسان الأربعة على تكرار المحاولة لانقاذ الملك البائس من مصيره المشئوم ، وأن يبذلوا الجهد كذلك لتصفية الحساب مع موردانت فلما دخلوا المدينة الكبيرة اتجهوا الى الفندق الذى كان دارتانيان وبورتوس قد نزلا به عند حضورهما من فرنسا مع موردانت . وهناك بدلوا ملابسهم وارتدوا ثياب التجار الانجليز . ثم قصوا شعورهم الطويلة ليبدوا في صورة المتطهرين الانجليز (البيوريتان) . ثم اسرعوا ليشاهدوا موكب دخول الملك الى العاصمة . فوجدوا انه قد سبقهم الى دخولها بساعات ثم طاف المنادون في اليوم التالي يعلنون على الملأ أن البرلمان قد حاكم شارل ستيوارت بتهمة سوء استغلال النفوذ والعبث بالسلطة . وحكم عليه بالاعدام .

وكان الملك محبوسا في الهوايت هول ، معتمدا على ذراعه ، يتفرس في صورتين لامرأته وابنته . في انتظار وصول الأسقف جاكسون . وقد وقف بالقرب من الملك وصيفه الخاص بارى الذى لم يكف عن البكاء منذ صدور ذلك الحكم الجائر . وكان الليل قد خيم ولايبدد ظلام الحجرة الا شمعتين . ثم سمعت في الدهليز الخارجي خطوات ، وفتح الباب على ضوء مشاعل يتصاعد منها الدخان ليدخل كاهن مهيب عليه شارات الأسقفية ، يتبعه حارسان . فاشار بيده الى الحارسين فتركا الحجرة بمشعليهما فعادت الى عتمتها الأولى ثم صاح الملك « جاكسون ! شكرا لك ياصديقي الأخير ، فقد وصلت في الوقت المناسب » فالقى الكاهن نظرة ارتياب على ذلك الرجل الذى وقف يبكي في الركن » فقال الملك .

– لاتبك يابارى . فقد جاءتنا نعمة الرب وتعزية السماء .

فقال الأسقف :

– اذا كان هذا هو بارى ، فلاخوف من جهته ويحق لي الآن أن أصرح لجلالتكم بحقيقة شخصي والغرض من حضورى .

فتنبه الملك ، وأوشك أن يصيح من فرط الدهشة ، لولا أن وضع اراميس سبابته على شفتيه وانحنى طويلا لتحية الملك الذى قال

– اهذا انت ياشيفالييه ديربلاى ؟

– أجل يامولاى انا هو الأسقف جاكسون فارس الكنيسة المخلص وقد حضرت لخدمة جلالتكم روحيا

– ولكن هل تعلم ياصديقي أنه ليس امامكم دقيقة واحدة تضيعونها اذا كنتم

مصممين على النجاح . فموعد التنفيذ هو الساعة العاشرة من صباح الغد ؟
- اعلم هذا يامولاى . ولكن سيحدث فى هذه الأثناء مايجعل التنفيذ مستحيلا وفى هذه اللحظة حدثت ضجة شديدة تحت نافذة الملك . فقال . « اتسمع ؟ » .
- مولاى . فى وسعهم ان يشيدوا منصة الاعدام . ولكنهم لن يستطيعوا تنفيذه ففى هذه الساعة يامولاى . قد تم اختطاف جلاد لندن بالاتفاق معه نظير رشوة كبيرة . ولن يجدوا له اثرا هو او مساعده ساعة التنفيذ . فيضطروا الى التأجيل الى بعد غد . وغدا مساء سنقوم باختطاف جلالتكم .
- مرحى ! ولكن خبرنى كيف سيكون ذلك حتى أساعدكم بقدر طاقتى ؟
- لا علم لى بالتفاصيل يامولاى . ولكن كل ماأعلمه ان اذكانا فؤادا وأثبتنا جنانا واشجعنا روحا قال لى « ابلغ جلالة الملك ياشيفالييه اننا سنختطف جلالته غدا فى الساعة السادسة » واذا قال دارتانيان فعل .



واسرع اراميس فى عربة الأسقفية الى دار الأسقف جاكسون فطمأنه بنجاح الحيلة . ثم اتفق معه على ان يرتدى ثياب الكاهن المساعد عندما يزور الاسقف الحقيقى لتلقى اعترافه الأخير غدا صباحا

وكان اتوس من جهته قد اتفق مع ربان سفينة شراعية صغيرة يسيرها اربعة بحارة على ان تظل يومين وليلتين فى انتظارهم عند جرينتش للابحار بهم وبالملك الى فرنسا خلسة واسم هذه السفينة « البرق » والعلامة المتفق عليها منديل معقود من أطرافه الأربعة . اما دارتانيان فتمكن من اغواء الجلاد ومساعده ، وحبسهما تحت كهف المنزل تحت حراسة موسكيتن المسلحة واستخرج منه ورقة بتوكيل حاملها بدل مساعد الجلاد فى تنسيق منصة الاعدام . لان المساعد الأصلى أصيب بشرخ فى عظمة الساق .

وعلى هذا صحت النية على ان يقوم أتوس بدور مساعد الجلاد . وان يقوم الزملاء الثلاثة بدور العمال . وبذلك يتسنى لهم اعداد الخطة اللازمة لتهريب الملك وتنفيذها .



وقرب منتصف الليل سمع شارل ضجة عظيمة تحت نافذته ودقات متوالية بالمطارق وأصوات مناشير . الامر الذى ازعجه كثيرا . فارسل وصيفه الخاص بارى الى الديدبان كى يتوجه بالرجاء الى العمال ان يقللوا من ضجتهم اثناء العمل رافة بالرجل الذى كان ملكهم ربع قرن ويمضى الآن تحت رحمتهم ليلته الاخيرة .

ولم يقبل الديدبان ان يغادر مكان حراسته ، بيد أنه سمح لبارى بالمرور للتفاهم مع العمال من الشرفة ذات القضبان الحديدية . فقال لهم :

ـ أيها الرفاق ، هل لكم فى التزام بعض الهدوء أثناء العمل ؟ فان الملك فى حاجة الى نصيب من النعاس فى هذه الليلة الأخيرة .

فرفع رئيس العمال ، معاون الجلاد المزعوم أتوس راسه وقال

ـ قل للملك إنه اذا لم يستطع النوم هذه الليلة ، فسينام نوما عميقا فى الليلة الآتية ! فضج جميع العمال بالضحك لهذا التهكم . أما بارى فانسحب وهو يحسب نفسه فى حلم ، لأنه عرف فى العمال الأربعة الفرسان الأربعة . وكان فرح الملك عظيما بهذا النبأ ، ولاسيما بعد ان أنبأه بارى بأنه لاحظ ان أتوس يثقب الجدار من أسفل الحجرة ، بعد ان أقام المنصة من طابقين ، وقد غطيت واجهتها بستارة كبيرة تخفى مايحدث فى الطابق الأوسط من المنصة ، حيث يعمل اتوس وزملاؤه بمهارة عظيمة ونشاط .

وكان الثقب فى الواقع يوصل الى طابق مسحور غير مستعمل تحت الغرفة ، وكان على بورتوس العملاق ان يجتهد فى رفع جزء من ارض الغرفة ، لكى يتمكن الملك من المرور منه ، حيث يلبسونه بدلة أحد العمال ، ثم ينزل كأنه واحد منهم من الطابق الأوسط لمنصة الاعدام دون أن تلتفت اليه الأنظار ، ومن هناك يسرعون الى السفينة التى تنتظرهم فى جرينتش وعند انبثاق اولى اشعة الصباح كان الثقب قد تم العمل فيه ، فدخل من خلاله أتوس ومعه ملابس الملك التنكرية ، ثم قام بورتوس بتغطية الثقب بستارة تخفيه عن الانظار . وبقى امام آتوس ساعتان من العمل المتواصل لرفع جزء من ارضية غرفة الملك الخشبية . وكان مطمئنا لاتساع الوقت اعتمادا على أن التنفيذ سيؤجل يوما لاختطاف الجلاد .

اما أراميس فتوجه منذ الصباح الى دار الأسقف جاكسون واستعد للذهاب معه بصفته مساعدا كهنوتيا لتلقى اعتراف الملك الأخير فى هوايت هول .

ووجدا الملك عند وصولهما فى حالة معنوية عالية ، وتعمد الأسقف الحقيقى جاكسون ان يتكلم بصوت مرتفع عن مقابلته للملك بالأمس ، نفيا للشبهة عن اراميس ، وراح الملك يجيب بأن حديث سيادة الأسقف فى اليوم السابق ملأ روحه اطمئنانا وبدد أحزانه ، ثم طلب من الحراس الانصراف لأنه يريد الادلاء باعترافه ، فلما خرجوا واقفل الباب شرح اراميس للملك بسرعة الخطة المرسومة ، وكيف أنه لايوجد جلاد فى اقرب مدينة من لندن إلا فى بريستول ، وان إحضاره من هناك يستغرق يوما كاملا على الأقل ، ثم طلب الى الملك أن ينقر أرض الغرفة بحديدة المدفأة ثلاث مرات ، ففعل الملك ، واذا به يتلقى رد أتوس من أسفل ثم ناول اراميس الملك خنجرا ، فأعطاه لبارى كى يساعد اتوس عند

اللزوم فى رفع جزء من أرض الغرفة بازاحة الأتربة المتراكمة بين الألواح الخشبية وفيما هم اخذون فى ذلك الحديث مطمئنين ، سمعت أصوات أقدام ثقيلة منتظمة تصعد السلم وتقترب من باب الغرفة فتطرقه بشدة . وفتح الباب فظهر صفان من الجنود فى الدهليز ثم دخل مندوب البرلمان فبسط أمامه ورقة وتلا على الملك حكم الاعدام ، كما هو متبع فى ساعة التنفيذ . وتبادل الأسقف واراميس نظرات الاستغراب ، وقال الملك فى دهشة :

- اليوم إذن هو الموعد ؟

- الم تكن تعلم ذلك يامولاى ؟

- وهل ينفذ الحكم فى كما ينفذ فى المجرمين العاديين ، بيد جلاد لندن ؟

- لقد اختفى جلاد لندن يامولاى ولم نعثر له على اثر ، ولكن تقدم ليقوم مقامه رجل خبير بالموضوع ، وعلى هذا لن يتأخر التنفيذ الا ريثما تتمون واجباتكم الدينية ، وتنالون أخر طلباتكم الدنيوية .

وكانت بضع قطرات من العرق على جبين الملك هى كل ماظهر عليه من علامات التأثر أما اراميس فاكفهر وجهه وكاد يكف قلبه عن الخفقان . ولاحظ الملك اضطرابه فجعل يسرى عنه ، ثم التفت الى مندوب البرلمان وقال :

- انى على أتم استعداد ، ولا أطلب الا شيئين لايستغرقان كثيرا من الوقت فيما اعتقد : أولا أن اعترف وأتناول الأسرار المقدسة ، وثانيا ان اقبل ابنى وابنتى واودعهما الوداع الأخير .

- حبا وكرامة يامولاى .

وكان منظر الوداع اليما ، حتى لقد اضطر الأسقف جاكسون الى انتزاع الطفلين من أحضان والدهما انتزاعا فأسلمهما الى القائمين على شئونهما ، ثم فتح الباب على مصراعيه ليدخله جمع كبير من الحراس .

وتذكر الملك ان الكونت دى لافير (أتوس) يربض تحت قدميه فى انتظار الاشارة وخشى أن تحدث من الكونت اى حركة تدل على وجوده هناك . لهذا سكن سكونا تاما .

والواقع ان اتوس كان يرصد الحركات ، فلما سمع فوق رأسه صوت كل هذه الأقدام ، انتفض رعبا ، وأطل من ستارة المنصة فرأى الميدان مزدحما بجنود وفرسان من ورائهم جمع غفير من الشعب ، ولمح دارتانيان فى الصفوف الأولى ، وقد تعلقت جميع الانظار بالمنصة فخطر بباله أن الجلاد افلت من حراسة دارتانيان ، وتأكد لديه هذا الخاطر حين سمع دقات الطبول فى الميدان تعزف عزفا جنائزيا ، ثم سمع فوق رأسه ، فى الطابق العلوى من المنصة وقع أقدام كثيرة جدا تسير ببطء حتى لقد تقعرت الألواح الخشبية تحت هذا الثقل الهائل

وساد الصمت في الميدان ، وتعلقت جميع الأنظار بنافذة البناء ، ثم سمع صوتا يعرفه جيدا ، هو صوت الملك يخاطب قائد الحراس

- اريد أيها الكولونيل أن أتحدث الى الشعب !

فنضح العرق على جبين أتوس . ثم رأى رجلا ربعة القوام على وجهه قناع أسود تبدو منه شعرات لحية مدببة وخطها الشيب يتقدم في صمت وفي يده بلطة الاعدام ، حتى اذا بلغ النطع المنصوب فوق المنصة القى بالبلطة الى جواره . ثم تقدم نحو النطع ذلك الملك المنكود يسير بين رجلين من رجال الدين ومن خلفهم الضباط المكلفون بالاشراف على التنفيذ .

وسرت بين الناس همهمة عالية عندما رأوا الرجل المقنع ، فقد اشتاق كل منهم أن يعرف من هو ذلك الشخص الغريب الذي تقدم فجأة ليقوم بدور الجلاد . ولكن الانتباه لم يلبث ان تحول من الرجل المقنع الى الملك نفسه ، لما تميز به من هدوء في مواجهة الموت ، وقد أتاح ذلك الصمت والانتباه ان يسمع الجميع في الميدان صوته الثابت النبرات وهو يطلب ان يتحدث الى الشعب الذي ظل ملكا عليه ربع قرن من الزمان .

واجاب الكولونيل رغبة الملك بايماءة من راسه ، فراح الملك يتحدث الى الشعب في هدوء مفسرا له مسلكه ، ومبينا له مصالح بريطانيا العليا مطالبا بالحرص على تلك المصالح مهما كانت الاحوال . ثم سميت حركة خفيفة تصدر عن احتكاك البلطة بالنطع ، وقد راح الجلاد يديرها بين اصابعه ، فقطع الملك خطبته الهادئة ونظر الى الرجل المقنع وقال : « دع البلطة ولاتلمسها بيدك » .

ثم استأنف الحديث من حيث قطعة بكل هدوء كأن شيئا لم يحدث ، حتى أتمه وعندئذ أجال في الجمهور المحتشد نظرة ثابتة وادعة ، ثم نزع الوشاح الذى كان يزين به صدره فأعطاه الى مساعد الاسقف (اراميس) ، ثم اخرج من صدره صليبا من الماس كان هدية من زوجته شأنه شأن الوشاح المرصع ثم قال لذلك الكاهن ايضا :

- سأبقى هذا الصليب في يدى حتى اللحظة الأخيرة ، وعليك ان تأخذه منها بعد ان أموت .

وبعد ذلك نزع قبعته فالقاها جانبا ، ثم راح باصابع ثابتة يفك ازرار صداره واحدا واحدا ، ثم خلعه والقاه الى جانب القبعة وبقى بالقميص وحده . ولما كان الجو باردا وهو لايريد ان يرتعد في لحظاته الاخيرة رعدة قد تؤول على انها رعدة الخوف ، فقد طلب رداء الحجرة (الروب دى شامبر) فارتداه فوق القميص . ثم جمع شعره بين يديه ورفعه الى أعلى وقال للجلاد

- اتعتقد أن في وسعك ان تفصل راسي بضربة واحدة ؟

- ارجو هذا

- هذا حسن والآن اسمع أيها الجلاد !

فتقدم الجلاد منه خطوة واعتمد على بلطته ، واستطرد الملك

- لا اريد أن تفاجئني ، فانى سأركع واصلى . فلاتضرب وانا اصلى .

- ومتى اضرب إذن ؟

- عندما أضع عنقى فوق النطع وامد ذراعى قائلا " تذكر " ، حينئذ اضرب بعزم وقوة .

فأومأ الرجل المقنع برأسه موافقا ، ونظر الملك الى اراميس نظرة خاصة ، ثم قال

- والآن ابتعدوا جميعا ودعونى اتلو صلاتى وابتعد انت ايضا أيها الجلاد ، فلن أستمهلك الا لحظة قصيرة ، فانى أعلم اننى لك ، ولكن إياك أن تضرب الا عندما اقول . " تذكر "

وركع الملك شارل فرسم علامة الصليب وقرب فمه من فرجة بين الواح ارض المنصة وقد وضع إحدى راحتيه على الأرض والأخرى فوق النطع وقال :

- كونت دى لافير . هل انت هناك ؟ هل استطيع انت اتكلم ؟

- أجل ياصاحب الجلالة .

- ايها الصديق المخلص الكريم . لقد أراد الله الا انجو . وقد أضعت عرش أبائى وميراث أولادى فى الدفاع عن قضية أمنت بقدسيتها . وهناك مليون من الجنيهات الذهبية مدفون فى كهوف قلعة نيوكاسل ، ولايعرف موضعه احد غيرك ، فأقم نفسك على التصرف فى هذا المال فى الوقت الذى تراه مناسبا لمصلحة ابنى الاكبر والآن وداعا ياكونت دى لافير .

- وداعا أيها الملك القديس الشهيد .

وساد الصمت لحظة . خيل لأتوس فيها أن الملك غير وضعه ، ثم سمع بعد ذلك صوتا رنانا واضحا طرق جميع الأسماع فى الميدان ، صوت الملك يصيح .

- تذكر .. !

وهكذا ظل شارل ملكا حتى النهاية ، وكان هو الذى القى أمر اعدامه .

الرجل المقنع

اجتمع الرفاق الأربعة بعد المنظر المشهود . وأخرج أراميس من جيبه الوشاح المرصع والصليب الماسى الذى أوصى الملك ان يوصلهما الى زوجته الملكة فى فرنسا ، واخرج أتوس حينئذ منديلا كان قد مسح به دم الملك الذى تساقط فوق جبينه وهو كامن اسفل مكان التنفيذ وقال :

ـ وهاك منديلا تضعهما فيه . وانى لأتساءل ماذا سيصنعون بجثته .

فقال له أراميس :

ـ لقد أمر كرومويل ان يؤدى لجثمان الملك كل انواع التكريم الواجبة فى مراسم دفن الملوك . ومالى أراك ساكتا يادارتانيان ؟ لقد حم القضاء ونفذ السهم ، ولكن كيف بالله استطاع هذا الجلاد ان يفلت من بين يديك ؟

ـ انه لم يفلت .

وقام فصاح بموسكيتن فى كهف المنزل وهو يلقى اليه بالمفتاح .

ـ أطلق سراح السجين . فقد فات الوقت . لم يكن ذلك الجلاد جلاد السجين

فضحك اراميس وقال :

ـ أعرف هذا ، وانما أردت دفعك الى الكلام فهذا الجلاد ياصديقى أتوس ليس جلاد لندن ، بل رجل تطوع للقيام بمهمة الجلاد . رجل مقنع لانعرف من هو .

فصاح دارتانيان :

ـ واجبنا إذن مادمنا فى انجلترا هو البحث عن ذلك الرجل المقنع والاقتصاص منه .

ـ لقد كان ربعة القوام ذا لحية وخطها الشيب .

ـ ان من يتنكر فى زى جلاد يستطيع ان يتخذ لحية مستعارة

ـ كم انا نادم لانى لم اتعقب خطواته .

فقال دارتانيان :

ـ أما انا فقد تنبهت لذلك وأنا فى الميدان ، وكلفت جريمو بتعقب خطواته معى ، فلما وصل الرجل المقنع الى بيت منعزل ، أقمت جريمو عند الباب ليراقبه ، وعثرنا ونحن نتعقب الرجل المقنع بالاسكتلندى الجريح شقيق بارى وصيف الملك فتركته للمراقبة أيضا ، وجعلت موقفه عند باب الدار الخلفى

وعندئذ قام الجميع فعانقوا دارتانيان ، لأنهم ادركوا أن عدم مهاجمته للرجل المقنع كان لانه لم يرد ان يستأثر بذلك الشرف وحده . ثم صاح أراميس

- سيوفكم ايها الاخوان . سيوفكم ! ولا نضيعن دقيقة واحدة .
ولما وصلوا إلى البيت المعهود سألوا جريمو فقال
- لم يخرج من البيت أحد ، وان كان قد دخله منذ قليل رجل متوسط القامة ممتلىء الجسم فقال أراميس :
- ربما كان في المنزل رجال اخرون من قبل .
فما كان من جريمو إلا ان تسلق الجدار ونظر من خلال مصراع النافذة الخشبى ، ثم نزل وقال
- رايت رجلين ، احدهما هو الجنرال كرومويل . اما الآخر فكان شابا حليقا ، هو الجلاد ولاشك ، الذى كان مقنعا ساعة التنفيذ ، وهو الشخص نفسه الذى تعقبناه بملابسه نفسها ، ولكنه الآن بغير لحية ، وقد عرفناه من قبل باسم السيد موردانت .



وليس من شأننا ما جرى بين الرجلين من حديث ، ولكن من شأننا ان نعرف انهما حين انتهى الحديث قرر كرومويل ان يخرج من سرداب خفى يمر تحت الشارع إلى بيته ، لذلك السرداب باب في الحائط مسحور لا ينفتح إلا بضغط خاص ، وترك موردانت كي يخرج من الباب العمومى ، كي يتوجه في مهمة كلفه بها كرومويل سيتضح لنا خبرها بعد حين
وفى هذه الأثناء كان الفرسان الأربعة قد قرروا مهاجمة الرجلين ، وكلفوا جريمو بالتسلق مرة اخرى ليرى وضعهما الحقيقى ، فإذا به لايرى إلا موردانت وحده ، ووراه يرتدى معطفه وقفازيه استعدادا للخروج .
فلما انبأ سادته بهذا قرر دارتانيان ان يقف أتوس واراميس على جانبى الباب ، حتى إذا فتح الباب صفقا فيهجم الجميع عليه ويقبضون عليه حيا لتصفية الحساب ، وبعد قليل سمعوه يهبط السلم ، ثم يفتح الباب بالمفتاح ، ثم يمر في الدهليز واذا به يجد نفسه امام دارتانيان بينما صفق بورتوس بيديه فخرج أتوس وأراميس من مكمنهما
وكانت المفاجأة تامة لموردانت . فلم يصرخ ، وخضع للاوامر فصعد السلم بظهره ومن ورائه الفرسان الأربعة . ولم يفكر في إطلاق الرصاص ، لأن قتل احدهم لن ينجيه من القتل بيد الثلاثة الآخرين فلما دخلوا قاعة الجلوس أمروه أن يجلس وسطهم ، لأن الحساب بينهم وبينه سيستغرق بعض الوقت .
وافتتح دارتانيان الحديث بسخريته قائلا :
- اراك ايها السيد تبدل الثياب والمظاهر كما يبدلها الممثلون في المهارج الايطالية . فمنذ قليل شهدناك في ثياب القاتل ، وها نحن نراك الآن .. .

- في زى الرجل الذى يوشك أن ينفذ فيه القتل . أليس ذلك ما تريد أن تقوله
- على رسلك ياسيدى . كيف طاوعك قلبك أن تخطر لك مثل هذه الخواطر وانت في صحبة مختارة من اهل الشرف . وفى جانبك سيف مثل سيوف الرجال
- وهل هناك سيف ياسيدى كفء لأربعة خناجر ؟
- لا تحسبنا ياسيدى قتلة . وإذا كنت تشير إلى حادثة قديمة . فاعلم انه لم يكن في وسعنا أن نعطى السيدة الوالدة سيفا وندعوها للمبارزة فردا فردا . أما أنت ياسيدى فالحال معك مختلف كل الاختلاف . قد شهدناك تدير السيف والخنجر والمسدس في يدك بمهارة تحسد عليها . ثم رأيناك صدر هذا النهار تجيد أيضا استعمال بلطة الاعدام . فكل منها لايستنكف عن ملاقاتك ملاقاة ند لند . فماذا تقول ؟
- هى المبارزة إذن ما تريدون ؟
ثم نهض وقد لمعت عيناه كمن يريد ان يجيب التحدى فورا . فنهض بورتوس أيضا وعندئذ تقدم منه دارتانيان لينازع بورتوس شرف المبارزة . واستل سيفه وهو ينحنى أمامه حسب الأصول : « إنى في انتظارك ياسيدى »
- وأنا أعجب لكم أيها السادة . فإنى أراكم تتنافسون في أيكم يبارزنى اولا . ولا تفكرون في أخذ رأيى شخصيا في ذلك . وإنى اطالب بأن يكون لى حق اختيار من ينازلنى ابتداء . فإذا ابيتم على ذلك الحق فاقتلونى لأنى لن أبارز
فوافق بورتوس وأراميس بقوة . على رجاء ان يقع الاختيار على أحدهما . اما اتوس ودارتانيان فلم ينطقا . وان كان صمتهما يحمل معنى الاذعان . فوقف موردانت في وسطهم وقال إنه يختار لمبارزته الكونت دى لافير . فقفز أتوس من مكانه كالملدوغ ثم جمد في وقفته لحظة وهز رأسه قائلا
- إن أى مبارزة فيما بيننا مستحيلة . فأنا أترك لسواى هذا الشرف
- هذا أول واحد قعد به الخوف .
فهاج دارتانيان لهذه الكلمة وهم أن يبطش بالشاب غضبا لكرامة أتوس . لولا أن اتوس نفسه هدا ثائرته في ازدراء هادىء لكل ما يقوله موردانت . فقال دارتانيان
- إن الكونت دى لافير لايريد أن يضفى عليك شرف مبارزتك . فتخير من بيننا من يحل محله .
- يستوى عندى من يبارزنى منكم مادام ليس هو . فاقترعوا .
واقترعوا فخرجت القرعة تحمل اسم دارتانيان .
ونشبت المبارزة ودارتانيان يحسب انه سيقتل الفتى في جولة أو جولتين . لكن المبارزة طالت . وكلما استعمل دارتانيان فنا من الفنون التى يحسبها خافية على

ذلك الشاب ، وجده يعرفها ويحتاط له . ونمت صلابته على قوة وجلد رغم نحافته . فاتجهت اليه انظار الفرسان الثلاثة بالاهتمام والاعجاب وبعد عدة جولات وجد الشاب نفسه وقد صار ظهره إلى الحائط . فاعتمد على الحائط بيده اليسرى وراح يدافع عن نفسه بيده اليمنى ، فتعلقت الأنفاس لانهم توقعوا أن تكون تلك بداية الهزيمة لصعوبة التراجع والتخلص من المأزق إلا بهجوم مضاد يكاد يكون مستحيلا امام دارتانيان .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان . فقد انشق الحائط عند الموضع الذى وضع عليه الشاب يده فاختفى الشاب بداخل الحائط ثم عاد الحائط سيرته الاولى . وقد انكسر سن سيف دارتانيان في داخله . فصاح أراميس كالمذهول :

« لقد هرب منا الملعون ! »

اما أتوس فهز راسه ولم يتكلم ولكن بدت عليه علائم الارتياح . وتنبه بورتوس إلى جانب الخطورة في الموضوع . لأن الشاب ولاشك سيسرع بالاستنجاد بفرقة كاملة من جيش كرومويل لمحاصرة البيت . وهكذا أسرعوا جميعا بالخروج من البيت وركبوا جيادهم واطلقوا لها الاعنة طالبين النجاة .

السفينة « البرق »

لقد اصابوا حين أعتقدوا أن موردانت لن يضيع وقته في الاحاطة بهم والقبض عليهم ، ولكنهم لم يصيبوا حين ظنوه سيعود اليهم في البيت بخيله ورجله . كلا بل هو قد ذهب إلى اقرب ثكنة فامتطى اقوى جواد واسرع ينهب الأرض فبلغ جرينتش فيما لايزيد على ربع الساعة . ثم راح يحدق في عتمة المساء باحثا بين أسماء السفن الراسية عن كلمة (البرق) وكان هناك رجل بين حراس الميناء يجثم منتبها لكل حركة ، فلما راى صاحبنا يبحث بين السفن وقف ، ولكنه لم يتحرك من مكانه . فاتجه نحوه موردانت وأخرج له من جيبه منديلا معقودا من أطرافه الأربعة . وهى كما يذكر القارىء العلامة المتفق عليها بين أتوس وربان السفينة البرق ليهرب فيها الفرسيان إلى فرنسا ويهربوا معهم الملك اذا قدرت له النجاة

واخرج البحار من جيبه منديلا معقودا على نفس الطريقة وقدمه إلى موردانت وبهذا تم التعاون ، فنزل موردانت عن حصانه وأمر بارساله إلى أقرب خان ، ثم قال للبحار :

- والآن اذهب إلى السفينة .

فضحك البحار ورفع طاقيته عن راسه وقال لموردانت

- الم تعرفني ياكابتن موردانت ؟

- الكابتن جروسلو !

- بلحمه ودمه . فقد تذكر الجنرال كروموبل انني كنت في أول حياتي ضابطا في البحرية فكلفني بهذه المهمة السرية . لأن ربان الباخرة الأصلي الذي اتفق معه الخونة اتصل بالقائد العام . وهكذا تم الاتفاق على أن احل محله ويحل اربعة من الجنود محل البحارة ، ونشحن المركب ببراميل من البارود بدلا من براميل نبيذ البرتغال .

- ولكن ألا تخشى أن يتعرفوا عليك وهم من خلطائك القدماء ؟

- لاخطر من ذلك في هذا الليل البهيم . وأنا في هذا الزى .بدليل انك انت لم تعرفني لاول وهلة . ولولا ان كشفت لك عن حقيقتي لما عرفتني .

- وهل أوسقتم حمولة المركب ؟

- أجل . خمسة براميل ملآنة بالبضاعة ، وخمسون فارغا ، ووجهة الشحنة أنفرس .

ـ هذا جميل ، هيا بنا لتضعني في مخبئي بالسفينة ، ثم تعود ثانية لتستقبلهم

وفي السفينة اختبأ موردانت تحت سرير الربان في قمرته الخاصة بعيدا عن قمرة الركاب . واوصى جروسلو ان يربط في مؤخرة السفينة قاربا للنجاة يصله بها حبل طويل . وأن يضع في هذا القارب مقدارا كافياً من الروم والبسكويت .

وما ان رجع جروسلو إلى البر حتى سمع وقع حوافر الجياد ، ثم تم التعارف عن طريق المنديل المعقود الاطراف ، ولكن اتوس اكتشف ان هذا الشخص ليس هو الربان الذى اتفق معه ، فقال له

ـ انه ابن عمي ، وقد سقط هذا الصباح من اعلى صارى الشراع الكبير فكسرت ساقه ، وقد روى لي المسألة كلها وكلفني ان أقوم بدلا عنه بالمطلوب .

وتشاور الفرسان الاربعة في هذا الكلام ، وقر قرارهم علي تصديقه ، ولاسيما انه إذا اتضح كذبه او خيانته ففي الوسع قتله بسهولة . وفي هذه اللحظة يتولى أتوس قيادة السفينة لأنه قضى صدر خدمته في البحرية

واقلعت السفينة وجلسوا جميعا يحتسون النبيذ ويتناولون العشاء ، ثم استسلموا للنعاس ، وتركوا الخدم في الدهليز الخارجي الملاصق للمخزن الذى فيه البراميل ، كي يتناولوا عشاءهم وينظفوا الاحذية ، ويلمعوا السيوف ، ثم يناموا بعد ذلك .



استغرق السادة في النوم ، اما الخدم فلم يستطيعوا ان يناموا ، لانهم لم يصيبوا شيئا من النبيذ ، ولا سيما السيد موسكيتن الذى تعود الترف في خدمة مولاه الثرى بورتوس . وكان جريمو قد طاف مع دارتانيان باجزاء السفينة واخبره انها محملة بالنبيذ البرتغالي الفاخر

وكانت مع جريمو دائما أدوات لا غنى عنها ، من بينها المنشار والكماشة والمفك ، وهي الادوات التي استعملها الفرسان حين تنكروا في ثياب العمال لاقامة منصة إعدام الملك شارل وراح جريمو ينتزع المسامير في هدوء ، ثم تسلل في الظلام إلى القبو ، وغاب بضع دقائق لم يلبث ان عاد بعدها ، وقد اكفهر وجهه ، وفي يده الاناء مملوءا بشيء لايمت إلى النبيذ بصلة ، سواء اكان هذا النبيذ برتغاليا او غير برتغالي . لقد كان الابريق مملوءا بالبارود ، الأمر الذى ذعر له فايقظ دارتانيان ، ثم مال فوق اذنه وهمس اليه بما حدث بغاية السرعة

وما هذا الذى حدث ؟

لقد تسلل جريمو إلى داخل القبو الذى به البراميل وظل يبحث حتى وجد برميلا ملآنا ، وله صنبور ، فحمد الله واثنى عليه ذلك الصنبور إذ وفر عليه فتح البرميل من اعلى او ثقبه ببريمة . وبعد ان ملأ الأبريق من الصنبور اقفلة باحكام

. وهم ان يرفع الاناء إلى شفتيه ليتذوقه . حين سمع وقع اقدام تقترب . فاختفى وراء إحدى الدعامات . ورأى الباب يفتح ويدخل منه رجلان يحمل احدهما فانوسا محكما من فوانيس الامان . وهذا الرجل هو جروسلو اما الآخر فكان يحمل كرة من الفتيل وقد اخفى وجهه بقبعة . وقد سأل هذا الرجل الربان كم من الوقت يستغرق هذا الفتيل حتى يصل إلى البراميل . فاجابه الربان انه يستغرق خمس دقائق . وقد خفق قلب جريمو عند سماع صوت الرجل الغريب . لأنه عرف فيه صوت موردانت ثم استأنف موردانت كلامه فقال

- نبه على رجالك ان يكونوا على استعداد دون ان تذكر لهم الغرض من ذلك الاستعداد وحين تعلن الساعة بدقاتها الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل عليك أن تجمع رجالك وتنزل معهم فى قارب النجاة .

- بعد ان أشعل النار فى الفتيل ؟

- اترك هذه المهمة لى أنا . فانى اريد أن استيقن من انتقامى . هل المجاذيف فى القارب أيضا ؟

- اجل .

فركع موردانت وركب طرف حبل الفتيل داخل الصنبور الذى اتخذمنه جريمو ماظنه نبيذا برتغاليا . بحيث لايكون امامه فى الموعد المحدد إلا ان يشعل الطرف الآخر للفتيل وينزل إلى قارب النجاة . فلما اتم تركيب الفتيل اخرج ساعته وقال

- وفى الثانية عشرة والربع تماما . اى بعد عشرين دقيقة بالضبط . وحاذروا من إحداث اى صوت قد يوقظ الركاب . عشرون دقيقة فقط

★ ★ ★

اصغى دارتانيان لهذه التفاصيل باهتمام زائد . ولم يترك لجريمو فرصة بقية الحديث . فاسرع يوقظ اصدقاءه ويحذرهم من إحداث اى صوت . ثم اخبرهم بسرعة ان ربان السفينة الجديد ليس إلا الكابتن جروسلو . وان مساعده هو موردانت . فقرروا جميعا ان يستولوا على قارب النجاة مادامت السفينة ملغمة . وبالفعل قفزوا واحد واحدا إلى البحر . فكلهم يحسنون السباحة ماعدا موسكيتن السمين . فاجبره سيده بورتوس العملاق على النزول إلى البحر . ثم عاد وهو يجذبه معه حتى وصلوا جميعا إلى قارب النجاة سالمين ولكنهم للاسف وجدوا انهم قد افسدوا بارود مسدساتهم . بيد انهم لم يحفلوا بهذا . تولى اتوس قطع الحبل الذى يربطهم بالسفينة « البرق » بخنجرة ذى المقبض الذهبى . ثم راحوا يجدفون بهمة ونشاط مبتعدين عن السفينة الملغومة .

وفى هذه اللحظة شق صمت الليل فوق السفينة « البرق » صفير رفيع . ثم تجمع البحارة على ظهره . وجذب جروسلو الحبل الذى يربط قارب النجاة فوجده

سهلا لينا . فجذبه فاذا به فارغ . واستولى الذعر عليه فصرخ صرخة عظيمة . واذا بموردانت يقفز في هذه اللحظة الى سطح السفينة وفي يده شعلة . يريد ان يلحق بقارب النجاة مع الباقين قبل فوات الوقت لانه كان قد اشعل الفتيل . فصاح به جروسلو .

- لقد هرب اصحابنا في قارب النجاة وقطعوا الحبل .

فقفز موردانت إلى القمرة وفتح بابها بركلة من قدمه فالفاها فارغة . فلم يعد الى ظهر السفينة . بل اختصر الطريق وقفز إلى اليم . وفي هذه اللحظة حدث الانفجار فتلاشى كل من كان على السفينة من البحارة بقيادة جروسلو .

ورأى الأصدقاء الأربعة من قاربهم هذا المنظر . ولكنهم حسبوا ان موردانت كان بين الهالكين . فتنفسوا الصعداء لانهم تخلصوا منه في النهاية خلاصا ابديا

ولم تلبث ان شقت الصمت حولهم نبرات صوت منتحب يقطع نياط القلوب

- ادركوني . اغيثوني . الرحمة ايها السادة

وارتجف اتوس لرقة قلبه . اما الآخرون فوجموا لانهم عرفوا أن الصوت صوت موردانت . وبعد لحظات راوه يقترب منهم وهو يقاوم الموج مستيئسا . فمد أتوس يده مشيرا إليه . بيد ان رفاقه لم يتحركوا . فقال « يالمسكين »

فصاح به دارتانيان

- اظنك تشفق عليه بعد الذي فعله معنا ؟ جدف يابورتوس لنبتعد عنه

فصرخ بورتوس مخاطبا موردانت وهو يجدف بكل قوة :

- احسبك الآن قد وقعت ياصديقي ولا منجاة لك وليس امامك باب قريب للخروج من هذا المازق إلا ابواب الجحيم .

فصاح اتوس مؤنبا « بورتوس ! »

- دعني يااتوس ! فانك والله لتبدو سخيفا خرعا بهذا الكرم المضحك ! واني انذرك انه إذا اقترب منا إلى اقل من عشر اقدام . لأفتحن راسه بالمجداف !

- الرحمة . لاتتركوني . ارحموني لقد تبت على ايديكم . ارحموا شبابي فانا لم اتجاوز الثالثة والعشرين . اعذروني فالأم غالية والانتقام لها شعور طبيعي .

وفي هذه اللحظة غطت راسه موجة كبيرة . وانطلق صوته وهو يصرخ متحشرجا فصاح أتوس : « والله ان قلبي ليتمزق ! »

وصاح دارتانيان

- ياقاتل عمه . ياجلاد الملك شارل . ياناسف السفن . خير لك ان تغرق ويبتلعك اليم والا فانك اذا اقتربت حطمت راسك بمجدافي

وفي هذه اللحظة بذل موردانت محاولة يائسه حتى اقترب من القارب فرفع دارتانيان مجدافه بين يديه وهم ان يهوى به فوق راسه . لولا أن نهض اتوس وصرخ وهو يمنعه بيديه :

ـ دارتانيان ياولدى العزيز . أرجوك . فهذا المسكين سيموت لو تركناه . ومن المخجل أن ندع انسانا يموت وفي وسعنا ان نمد له أيدينا .

فاستل اراميس سيفه وقال « اذا وضع النجس يده على القارب قطعتها بلا رحمة » اما بورتوس العملاق فنهض قائما وقال « انتظروا »

ـ ماذا ستفعل ؟

ـ سألقى بنفسى في اليم فاخنقه ثم أعود .

فقال اتوس والدمع يكاد يطفو من عينيه :

ـ انظروا ياإخوانى كيف يرتسم الموت على وجهه . ان قواه بدات تخونه . ولو تركناه دقيقة اخرى لهلك . فلا تنزلوا شيبتى إلى القبر بهذه الحسرة الباقية إلى آخر ايام العمر . فانه والله لندم الحياة وخزى الأبد . فامنحونى حياة هذا المسكين أكن مدينا لكم مدى العمر .

وفي هذه اللحظة صاح الغريق بصوت متحشرج :

ـ سيدى الكونت دى لافير .. انى اخاطب ضميرك أن ترحمنى . اين انت ياسيدى الكونت دى لافير .. انى لا اراك . الموت يغشى بصرى .

ـ هذا انا ياسيدى . خذ هذه يدى تعلق بها

فاشاح دارتانيان بوجهه وهو يقول « ان هذا الضعف يقززنى ولا احب ان أراه » وبذل موردانت مجهودا جبارا كي يرفع نفسه ويتعلق بتلك اليد ويتشبث بها تشبثه بالأمل الأخير . وقال أتوس وهو يمنحه كتفه كي يتعلق به بيده الاخرى . بحيث كادت راسه تمس راس موردانت : « ضع يدك هنا واصعد على جانب القارب »

فمد موردانت يده وتعلق باصابعه بعنق اتوس . ثم صاح والشرر يتطاير من عينيه في لهجة تنم عن حقد لا يوصف

ـ أماه ! لااستطيع أن اقدم لك إلا ضحية واحدة ولكنها على الاقل هى تلك الضحية التى كنت تفضلينها لو كان لك الخيار !

وبينما وقف دارتانيان يصرخ رفع بورتوس المجداف وبحث اراميس عن موضع يضرب فيه اهتز القارب هزة عنيفة وسقط أتوس في اليم . وأطلق موردانت صيحة فرح وحشي . وهو يشدد الضغط على قبضة فريسته كي يشل حركات يديه ورجليه وكل جسمه .

وساد الصمت لحظة من جهة اتوس . لم يصرخ ولم يستنجد . بل حاول أن يحتفظ بتوازنه فوق سطح الماء . بيد انه غاص بعد لحظة فلم يظهر له اثر إلا شعره الطويل الذى لم يلبث أن اختفى ايضا . وحلت محله على وجه الماء دوامة كبيرة .

والجم الرعب الفرسان الثلاثة فظلوا فاغرى الفم . مفتوحى الذراعين محدقين فى البحر . وكان بورتوس اول من ثاب منهم إلى رشده فراح يشد شعر راسه كالمجنون وهو يصرخ بصوت تخنقه العبرات . وهو العملاق الذى لاتهزه النوازل

ـ أتوس . اتوس ليتنا متنا قبل ان نتركك تموت يا انبل الرجال .

وفى هذه اللحظة ظهرت على بعد خمسة أذرع دوامة أخرى كبيرة وقد طفا فى وسطها شعر ثم وجه شاحب مفتوح العينين . ثم جسم رخو وقد غرس فى صدره إلى المقبض الذهبى اللامع خنجر . فصاح الثلاثة « موردانت » ..

فصاح دارتانيان « وأتوس »

وفى هذه اللحظة مال القارب من الناحية الأخرى تحت ثقل جديد غير منتظر . واطلق جريمو صرخة فرح . فالتفتوا كلهم ورآوا أتوس مرتعد الأوصال يريح رأسه على جانب القارب وقد علا وجهه شحوب . فأسرعت ثمانية اذرع مضطربة فرفعته من اليم إلى القارب حيث عادت اليه حرارة الدفء بقبلات اصدقائه الذين اسكرهم السرور العظيم بنجاته بعد ان ينسوا منه

وصاح دارتانيان « هل جرحت ؟ »

ـ كلا لكن هو ؟

ـ اما هذه المرة فانه انتهى ولله الحمد .

وارغمه دارتانيان على النظر إلى حيث اشار له إلى الجثة الطافية . والأمواج تنتقل بها . فكأن هذا الشيطان لايزال مصرا على تعقبهم حتى بعد موته .

وبعد لحظة اخرى غاصت الجثة وابتلعها اليم . فتمتم أتوس قائلا .

ـ لست أنا الذى قتلته . وإنما هو حكم القدر . فانني كنت راغبا كل الرغبة عن تلويث يدى بدمه . ولكنه حكم القدر

العودة

مرت بهم في عرض البحر ليلة هائلة . بيد ان انوار الفجر طلعت عليهم بالآمن والطمانينة فقد تراءت لهم على الافق سفينة كبيرة لوحوا لها فانقذتهم ، وكانت سفينة فرنسية متجهة من دنكرك إلى بولوني . وهكذا قدر للاربعة ان ينجوا من المهالك ويصلوا الى ارض الوطن سالمين وعلى ارض الوطن وقفوا يتدبرون امر المستقبل ، فراوا ان اجتماعهم معا سيعرضهم لغضب الكردينال مازاران لانه بعث اثنين منهم ليحاربا الملك فانتصرا له وحاولا انقاذه اما الاثنان الآخران فقد كانا حربا عليه مع عدوه منذ البداية . فمن الخير ان يتجه إلى الكردينال صاحباه الأصليان ليحاولا التملص مما ينسب اليهما متظاهرين بالبراءة ، محتالين عليه بالسذاجة حينا وبالتلفيق والاختلاق حينا اخر .

وهكذا اتجه بورتوس ودارتانيان إلى باريس . بعد ان تعهدا بالبحث عن راؤول واتجه اتوس وراميس إلى نورمانديا معقل الامراء المعارضين لمازاران وتعهد دارتانيان بان يكتب على حائط كل فندق يمر به مايدل على ذلك المرور وتاريخه حتى إذا خطر للصاحبين الآخرين ان يفتشا عنهما إذا كانا قد فرا من باريس بعد يأس من عفو الكردينال ، فسيجدان الطريق للعثور عليهما ممهدا .

وكانت قد مرت بفرنسا في هذه الاسابيع الستة أحداث على جانب كبير من الخطورة . فقد انسحب البلاط الى سان جيرمان واستعد لمهاجمة باريس المتمردة ، وكان على رأس جيش الثوار في باريس الامير كونتي والدوق دي بوفور . أما جيش الملكة فكان بقيادة الامير كونديه . وبدأت المناوشات بين الجيشين . وهكذا كانت الحال حين وصل الفرسان الأربعة الي فرنسا ، وعلم اراميس واتوس بالامر وهما في طريقهما إلى نورمانديا ، فذهبا الى باريس للانضمام لجيش الأمراء الثوار .

وعند ضواحي باريس وجد أتوس واراميس صعوبة في الدخول . فان الحراس كانوا يتشددون خوفا من الخيانة فقادهما الديدبان الى مركز الطليعة . وهناك ابصر ثلاثة اشخاص يطلبون المرور لمقابلة ملكة انجلترا التي كانت منضمة بطبيعة الحال للامراء الثوار واستطاع آراميس ان يلمح وجه احد هؤلاء الثلاثة مع انه كان يخفيه بقبعته العريضة فقد كان هذا الشخص هو الكردينال مازاران متنكرا ، اما الضابط المكلف بفحص جوازات المرور في ذلك المركز فقد اتضح

انه بلانشيه . ودخل الفارسان بفضل معرفة الملازم بلانتشيه لهما . فقد حصل بلانتشيه في جيش الثورة على رتبة الملازم فاضحى مثل سيده القديم دارتانيان ، بل أنه وعد بترقية قريبة الى رتبة اليوزباشي

وظل اراميس يلح على اتوس في تعقب السادة الثلاثة . لاعتقاده ان مازاران بينهم ، بيد ان اتوس ثناه عن ذلك لوجوب الاهتمام اولا بمقابلة الملكة هنرييت وتقديم التقرير المحزن اليها عن مهمتها وعن ساعات زوجها الاخيرة .

ووجدا عندها رسولين من قبل ملكة فرنسا هما الدوق شاتيون والدوق دى فلامارنس ومن عجب انهما كانا يبلغانها ان الشعب الانجليزى غضب واستطاع في اللحظة الأخيرة ان ينقذ الملك من فوق منصة الاعدام

وقد دهش الفارسان بطبيعة الحال لهذه الأنباء المكذوبة ، ولاحظت الملكة ذلك فسألتهما عما وراءهما من انباء راياها راى العيان . فقال اتوس :

ـ لا اريد أن اقول ما عندى قبل أن يعترف السيدان بانهما آخطا .

فصرخت الملكة مذعورة . وقال دوق فلامارنس :

ـ إذا كان هناك خطأ . فهو من جانب جلالة ملكة فرنسا . ولا اعتقد انك تجسر على تكذيب جلالتها

ولما كان هذان السيدان اللذان كان ثالثهما مازاران ، فقد قال اتوس

ـ هل مصدر هذا الخطأ الملكة حقا ام الشخص الذى كان معكما منذ قليل حين دخلتما باريس ؟ لقد رايتكم انا والشيفالييه ديربلاى هذا الذى بجانبى تدخلون مركز الطليعة الأمامي ثلاثة لا اثنين .

فانتفض السيدان . وصاحت ملكة انجلترا وقد استبد بها الذعر :

ـ وضح ياسيدى إني اقرا على وجهك اخبارا توقع في اليأس حتى ان لسانك يتردد في الانطلاق بها . قل لى بالله ماذا حدث ؟

وصاح الدوق دى شاتيون

ـ إذا كنت تحمل ياسيدى إلى الملكة نبأ فاجعا ، فما اقساك إذ تبلغه لها .

فنهض اراميس من مكانه واتجه حتى كاد يلامس الدوق دى شاتيون وقال

ـ سيدى ، لا اظنك تتجاسر علي إلقاء درس في الرحمة او البر علي الكونت دى لافير او علي . فنحن ادرى بما ينبغي ان يقال .

وفي هذه الأثناء تقدم اتوس من الملكة ويده علي صدره ، غضيض الطرف ، خفيض الصوت ، وقال

ـ سيدتى ان الله الذى رفع الامراء فوق السوقة جعل لهم قلوبا تحتمل من المصائب مالا يتحملون . وقد رفعك الله ياسيدتى فوقنا ، فادخر لك عبئا اثقل مما نستطيع احتماله لقد ادخر لك الله ياسيدتى الملكة ما ادخره للصفوة المختارة من

رجاله في هذه الأرض . الا وهي الشهادة ، وتلك ياسيدتي هي خلاصة البعثة التي شرفتنا بتوجيهنا اليها .

ثم ركع اتوس امام الملكة التي جمدت جمود تمثال من الثلج ، واخرج من فوق قلبه الوشاح المرصع وخاتم الزواج والصليب الماسي وقدمها إلى الملكة . فتناولت الملكة هذه الاشياء واحدا واحدا . أما خاتم الزواج فرفعته إلى شفتيها وقبلته ، وهنا لم تستطع كتمان زفرة حرى . اعقبتها انتفاضة انتظمت كيانها كله من قمة الراس الى اخمص القدم ، ثم تهالكت بين ذراعي وصيفاتها وابنتها ، فانحنى اتوس وقبل هدب ثوبها ثم انتصب واقفا في مهابة ووقار وقال :

ـ أشهد أنا الكونت دي لافير ، الرجل الشريف الحر ، الذي لم يكذب في حياته قط ، واقسم أمام هذه الملكة المسكينة ثانيا ، اننا فعلنا كل ما كان في الوسع عمله لانقاذ الملك فوق ارض بريطانيا . والآن ياشيفالييه ديربلاى قد انتهت مهمتنا ، فهيا بنا نمضي في سلام .

ـ بل بقي شيء ياكونت فاني ارجو ان يتفضل هذان السيدان بالخروج معنا لحظة واحدة ، كي اسمعهما تلك الكلمة التي لايليق ان اقولها امام الملكة .

فانحنى شاتيون دون ان يجيب اشارة بالموافقة ، وهكذا خرج الأربعة حتى اذا ابتعدوا في الدهليز وقفوا بجوار نافذة كبيرة ، وهناك قال لهما اراميس انهما قد اقدما على نقل رواية من ملكة إلى ملكة ومصدرها رجل كذاب وهكذا انطلق التحدى الذى انتهى بدعوة أراميس لشاتيون الى المبارزة . فتدخل دى فلامارنس واعتذر بضيق الوقت على وعد بتلبية الدعوة للمبارزة في فرصة اخرى ، لأن امامهما مهمة تتعلق بمصالح الدولة العليا يجب اداؤها غدا صباحا وقال شاتيون

ـ ان هذه المهمة تقع على ابواب مدينة شارنيتون ، حيث يمكن ان تدور رحى الحرب بين الجيشين فاذا جئت الى هناك فسيكون لي مزيد الشرف بلقائك غدا .

واتجه الفارسان بعد ذلك إلى الفندق للبحث عن راؤول . فوجدا انه قد ذهب ومعه خادمه أوليفان لمقابلة الأمير كونديه بدعوة منه على وجه الاستعجال في مقر قيادته بسان كلو

وأمضيا الليلة في باريس على عزم التوجه منذ الصباح الى ابواب شارنيتون لمبارزة دى شاتيون وفلا مارنس . وايضا على امل مقابلة راؤول في حاشية الامير كونديه ، والعثور على دارتانيان وبورتوس في الفريق الذى يحارب مع الملكة والكردينال مازاران .

وفى الصباح اعلن ان المفاوضة قد فشلت . فبدأ الاشتباك بين الفريقين ، واشترك اراميس وأتوس مع الثوار في الهجوم . وتصدى لهما من المعسكر المقابل فارسان عليهما دروع مذهبة احدهما شاتيون . فقد عرفه أراميس وهاجمه بمسدسه ، فصرعه من فوق جواده . فانحنى فوقه أراميس يسأله ان كانت له رغبة اخيرة . وإذا به يتلقى ضربة فى جانبه من سيف ، ولكن الدرع ردت هذه الضربة القوية ، فالتفت ليرى راؤول وقد هجم عليه . فلما عرف راؤول اراميس ثم عرف صوت والده وهو يناديه سقط السيف من يده ، فهجم عليه عدة فرسان من جيش باريس ، بيد ان اراميس بسط فوقه حمايته وقال انه أسيره أما أتوس فامسك بزمام جواد راؤول وقاده بعيدا عن المعمعة

وسأله اتوس ماذا اتى به الى خط القتال فقال :

لقد كنت مكلفا بحمل رسالة إلى الكردينال فى « ريال » ولكنى رأيت فى طريقى الدوق دى شاتيون يهجم هذه الهجمة فهاجمت معه .

فقال اراميس « انت أسيرى ، فهات الرسالة » .

وإذا بالرسالة موجهة من الأمير ، يبشر فيها الكردينال بانه سيبعث إليه بعشرة فرسان شجعان يستطيعون الصمود للفارسين اللذين يخشاهما الكردينال كثيرا .

ولهذا قرر اراميس وأتوس البحث عن صديقيهما لنجدتهما من كيد الكردينال وقد بدأ طوافهما بالبحث فى أركان باريس ، مستعينين ببلانشيه الذى يخوله مركزه الجديد أن يساعدهما مساعدة جدية بيد ان هذا البحث لم يسفر عن شيء فخرجا يبحثان فى انحاء الريف ، ويتتبعان الآثار التى وعد دارتانيان ان يتركها على جدران كل خان يمر به

وبعد طواف مجهد فى القرى وجدا فى مدينة « ريال » مادلهما على ان كتيبة من الجند قد قبضت عليهما وساقتهما إلى سجن الكردينال . فقرر أراميس العودة الى باريس . اما اتوس فتوجه لمقابلة الملكة فى قصرها « بريال » ليطلب منها حرية صديقيه وخادميها .



لم يجد أتوس صعوبة كبيرة فى مقابلة الملكة أن . فان نسبه الشريف يرخص له فى تلك المقابلة الصباحية ، لهذا اعلن اسمه امام الملكة ، ودخل وهو يعلم انها لا يمكن الا تذكره ، وهو بطل الرحلة التى تمت منذ عشرين سنة لاسترداد عقدها الثمين من دوق باكنجهام استنقاذا لشرفها . بيد انها اكتفت بأن وجهت اليه نظرة ثابتة لاتنطق بشيء فلما طال صمته قالت له « هل جئت تعرض علينا خدمة يا كونت ؟ » .

- اجل ياسيدتي ، خدمة اخرى
فعقدت حاجبيها لانها ادركت انه يذكرها بالخدمة الأولى ، وقالت :«» تكلم
- سيدتي ، لى صديقان من اخلص خدام جلالتك هما السيدان دارتانيان ودى فالون أرسلهما الكردينال إلى انجلترا ، وقد اختفى اثرهما منذ عادا إلى فرنسا
- وبعد ؟
- وبعد ، فاني اتوجه إلى مكارم جلالتك لمعرفة ما حدث لهذين السيدين ، محتفظا لنفسي عند اللزوم ، بالاتجاء إلى القضاء .
- وهل هذه هي الخدمة التي جئت تؤديها لنا ؟ افي هده الظروف المضطربة تشغل وقتنا بمسألة بوليس ؟
- لا اظن جلالتك بحاجة إلى سؤال البوليس عنهما . ويكفي سؤال نيافة الكردينال الواقف هنا إلى جوارك ، فهو يستطيع الجواب من الذاكرة .
- اراك ياسيدى تكاد تستجوبنا .
- وان لى الحق فى ذلك ، لان الأمر يتعلق بدارتانيان .
وهنا راى الكردينال انه أن له ان يتدخل فى الحديث فقال
- أظنك اتيا من انجلترا ؟
- اجل ، وقد حضرت اللحظات الاخيرة للملك شارل الأول ، ذلك الملك المسكين الذى كان اقصى ذنبه انه كان ضعيفا فعاقبه رعاياه عقاب القساة . فالعروش فى ايامنا هذه كثيرة الاهتزاز ، ولا يجمل بالقلوب الصادقة ان تتفانى فى خدمة الأمراء ، فقد كانت هذه هى المرة الثانية التي يذهب دارتانيان إلى إنجلترا . فقد ذهب فى المرة الأولى من اجل شرف ملكة عظيمة وسمعتها ، واما فى المرة الثانية فذهب من اجل حياة ملك عظيم .
وهنا قالت الملكة وهى تضغط على الكلمات
- اصنع شيئا ياكردينال للسيدين ، ودع الكونت يراهما ، وافعل له كل ما يريد . فشكر اتوس وانصرف إلى غرفة الانتظار ، حتى يأتيه الكردينال بصديقيه وينطلق بهما ، ولكنه لم يكد يغادر الحجرة حتى قالت الملكة للكردينال
- اقبض على هذا الوقح قبل أن يخرج من البلاط
وفى هذه الأثناء كان اتوس يتسلى بالنظر من النافذة المطلة على الفناء ، فرأى وفد الباريسيين يدخل لاتمام مفاوضات الصلح ، وكان يضم مستشارين فى البرلمان ومحامين وبعض رجال السيف ، وخيل اليه انه عرف بعض الناس . وفى هذه اللحظة تقدم منه قائد الحرس وطلب منه سيفه
وفتح اتوس النافذة وصاح بأعلى صوته : « اراميس ، انهم يقبضون على »

★ ★ ★

غادر مازاران القصر فى عربته متجها إلى قصره فى « ريال » وكان يتبعه على

بعد اتوس مجردا من سيفه وحوله حرس شديد . اما جريمو فقد التقى به اراميس واخبره باعتقال سيده وأما أعضاء وفد باريس فعادوا إلى مدينتهم بعد انتهاء المقابلة . فكان ركبهم يسبق ركب الكردينال بمسافة بسيطة لاتتجاوز الخمسمائة خطوة .

فلما وصل مازاران إلى قصره ، سأله قائد الحرس اين يضع أتوس ، فقال

ـ في الجناح المطل على حدائق البرتقال ، تجاه الجناح الذي يشغله المخفر واريد ان تشملوا الكونت بكل رعاية لأنه سجين الملكة !

ـ ولكنه يطلب ان يوضع مع صديقيه دارتانيان ودى فالون .

ـ ان وجود هؤلاء الثلاثة معا خطر على الأمن ولو كان الحراس من السويسريين الالمان . ولكن عاملوه برفق فيما عدا ذلك . وسأزوره في غرفته الليلة بنفسي

وافضى قائد الحرس إلى الكونت بهذه النتيجة ، فاكتفى برجائه ان يبلغ صديقيه تحياته وانه موجودفي البناء المقابل لمحبسهما وان يبلغهما ايضا الرغبة التي ابداها الكردينال في زيارته في سجنه هذه الليلة ، فقام الضابط بهذه الخدمة التي لم يجد فيها خروجا عن حدود المجاملة

ولما وصل اتوس إلى غرفته وجد أمامه في النافذة نوافذ البناء الآخر مزودة بقضبان من الحديد وبينهما حديقة واسعة الارجاء مزروعة باشجار البرتقال فسأل عن ذلك البناء المقابل فعرف انه البناء الذي يقيم فيه صديقاه .



ولننتقل الآن عبر حديقة البرتقال الى جناح المخفر الذي فيه دارتانيان وبورتوس ، فاننا نجدهما محبوسين في الطابق الارضي . وفي الحجرة نافذة كبيرة ذات قضبان تطل على الفناء الداخلي ، وكان الغيظ يأكل قلب دارتانيان على الخصوص . وأخذ يقدح زناد فكره بحثا عن طريقة للنجاة . وفي هذه اللحظة دخل قائد الحرس وابلغهما رسالة اتوس ، فكان فرحهما بها عظيما ، لاسيما ان اتوس كان مشهورا بسعة الحيلة فهو لن يتقاعد عن تخليصهما وتخليص نفسه . بيد أن دارتانيان استغرب خبر زيارة الكردينال للكونت فأكده له الضابط لان الكردينال من عادته أن يتنزه كل ليلة في حديقة البرتقال ، فمن السهل أن يدخل لزيارة الكونت في الطابق الارض بضع دقائق .

ـ أرجو ان يأخذ الكردينال حذره فلا يدخل بمفرده حجرة الكونت .

ـ ان الكونت رجل مهذب جدا ثم هو مجرد من كل سلاح ، يضاف الى هذا انه عند سماع أول صرخة تصدر من الكردينال فإن الجنديين السويسريين اللذين

يرافقانه باستمرار فى مثل هذه النزهة يسرعان لنجدته .
عندئذ تذكر دارتانيان انه في موعد معين من كل ليلة يسمع نداء على الحارسين المنوبين ، ثم يراهمايتنزهان فى الحديقة جيئة وذهابا مدة نصف ساعة ، فى انتظار الكردينال .
- ارجوك إذن ياسيدى الضابط ان تحمل تحياتي إلى الكونت حين تزوره غدا صباحا ، وان تطلب اليه ان يحرص على التماس حريتنا حرصه على التماس حريته
وخرج قائد الحرس واغلق الباب فراح دارتانيان يعانق بورتوس ، وبورتوس لايفهم السبب ، واخيرا تولى دارتانيان الشرح ، فقال
- اقترب من هذه النافذه واستعمل قوتك البدنية في ثنى قضيبين من القضبان بعيدا احدهما عن الآخر ، ولكن بعد ان اطفىء انا المصباح . والآن هيا .
- هاك ياعزيزى ماطلبت . وهو امر عسير على رجل كالكردينال مع عبقريته ! ان هذه المسافة تسمح بمرور رجل .

- والان أخرج ذراعك من النافذة . واطعنى بغير سؤال . سترى بعد قليل باب المخفر المقابل يفتح ، وسيخرج منه الحارسان اللذان سيصبحان الكردينال عندما ينزل للنزهة فى حديقة البرتقال .
وتقدم الحارسان السويسريان فى الظلام ومرا من أمام النافذة وهما يفر كان ايديهما لأن الجو كان بارداً . وفى هذه اللحظة فتح المخفر ونودى على احدهما فلبى النداء وترك الآخر وحده فقال دارتانيان هامسا
- سأنادى هذا الجندى كما ناديت زميله بالامس لاتسامر معه واعطيه قليلا من النبيذ . وسأجعل نفسى على يسارك ، بحيث يكون من خلال النافذة فى متناول يمينك ، ثم ادعوه للصعود فوق المقعد الموجود أسفل النافذة فى الفناء ليتناول من يدى زجاجة النبيذ ، فبمجرد صعوده عليك ان تقبض على رقبته بيدك لتمنعه من الصراخ ، ثم تدخله من الفتحة وتضعه على الفراش حيث أتولى تكميمه وتقييده ، هكذا يتيسر لنا سلاح وبدلة عسكرية
واختبأ بورتوس تحت مستوى النافذة فى انتظار الاشارة ، ثم تمت العملية الأولى بنجاح . وبعد دقيقة تكررت العملية . وخرج الصديقان فوقفا فى الفناء فى انتظار الاوامر . وإذا بباب يفتح ويخرج منه حاجب الكردينال ويأمرهما ان يتبعاه . إلى أن فتح باباً يفضى الى دهليز . ثم بابا اخر وجدا وراءه مقعدين . اشار اليهما وقال
- التعليمات الا تدعا اى إنسان يدخل ماعدا السيد الذى سيأتى الآن .

وعليكما بطاعته فى كل شىء . اما العودة . فانى سأدبرها بأن آتى لآخذكما بنفسى .

وانصرف الحاجب . ثم بعد لحظات أقبل رجل فى ملابس عليه معطف بنى اللون وقبعة عريضة وفي يده فانوس . فقدم إلى بورتوس الفانوس وقال له :

- اشتعل مصباح السقف .

ثم تقدم إلى المواجه لباب الدخول فخرج منه ثم اغلقه وراءه .

فقال بورتوس « ماذا نصنع الآن ؟ » .

- إذا كان هذا الباب مغلقا فعلى كتفيك الهائلين مؤونة فتحه . ولكن لنحصن اولا باب الدخول ، ثم بعد نتبع فريستنا ونطاردها .

وشرع الاثنان يحصنان الباب بكل ماوجداه تحت أيديهما من الأثاث ، ثم اتجها بعد ذلك إلى الباب الذى اختفى وراءه مازاران . فحاول دارتانيان فتحه عبثا . اما بورتوس فاستطاع أن يباعد مابين المصراعين بكتفه الضخم . ثم أدخل دارتانيان طرف خنجره بينهما ودفع اللسان فانفتح الباب بهدوء تام .

ودخل صفوف أشجار البرتقال ولا أثر للكردينال . فذهبا يتسللان بين الاشجار . إلى ان وقع نظرهما على صندوق خارج على الصف المنتظم . وفى مكان هذا الصندوق من الصف فتحة كبيرة من داخلها سلم حلزونى . وكان الصندوق ثقيلا جدا لايتحرك إلا بلولب آلى .

ووقف الرجلان مبهوتين . فهنا إذن يرقد كنز مازاران المشهور . وقال دارتانيان متحسرا .

- لو كنا لانطمع إلا فى الذهب . لكان فى وسعنا الآن ان ننزل فنفرغ خزانة أو خزانتين فى جيوبنا . ثم نقفل الكنز على الكردينال المحترم ونخلص منه البشرية

- معك حق ياصديقى . ولكن الذهب ليس هو كل ماننشد .

وفى هذه اللحظة سمع صليل معدنى آتيا من الحفرة . ثم ظهر الكردينال وهو يداعب بيده صرة من النقود . وفى يده الاخرى مضاءة . وهو يخاطب نفسه .

- هذا مبلغ يكفى لشراء خمسة مستشارين فى البرلمان . أو جنرالين فى جيش باريس وانا ايضا جنرال عظيم . ولكنى احارب على طريقتى الخاصة

واختبأ دارتانيان وبورتوس محتى ابصراه يتجه إلى السور فيضغط على موضع معين . فينتقل الصندوق الضخم الذى فيه شجرة البرتقال فيغطى مدخل

الحفرة . ثم يطفيء الشمعة ويضعها في جيبه وهو يقول « هيا الآن لزيارة الكونت دى لافير » .

وتبعه دارتانيان وبورتوس . إلى ان وقف امام باب زجاجى فتحه ودخل . ثم انحرفف في الدهليز إلي اليسار . ووقف عند باب معين واوشك ان يفتحه . لكنه قال لنفسه :

ـ يا للشيطان . لقد نسيت ان اتى بالحارسين لاضعهما على الباب منى لا اكون تحت رحمة هذا العفريت .

ودار على عقبيه ليعود من حيث اتى ليحضر الحارسين . وهنا تقدم دارتانيان وقال في ابتسامة ساخرة

ـ لاتتعب نفسك ياصاحب النيافة . فقد تبعناك من تلقاء انفسنا

ثم خلع الاثنان قبعتيهما وانحنيا باحترام عظيم . فوقع المصباح من يد الكردينال . فالتقطه دارتانيان واعطاه إياه وهويقول

ـ لاتدعه يقع من يدك . وإلا تعرضت للسقوط في حفر الحديقة . ولما كنت ياسيدى تريد مثلنا زيارة الكونت . فأرجو ان ترشدنا إلى الطريق .

ـ هل ... هل ... هلى لكما مدة طويلة في حديقة البرتقال ؟

ـ اى حديقة ؟ لقد وصلنا الآن فقط .

فتنفس مازاران الصعداء اطمئنانا على سلامة الكنز وقال :

ـ لقد كسبتما هذه الجولة . وإذا كنتما تريدان حريتكما فهى لكما .

ـ ياصاحب النيافة . انك لكريم ! ولكن حريتنا في يدنا فعلا . وإنما نحن نطلب من ننيافتكم شيئاً اخر .

ـ حريتكما في يدكما ؟

ـ اجل . ان حريتك انت ياصاحب النيافة هي التي ليست في يدك الأن . ونريد منك أن تفتديها .

ـ وما مبلغ هذه الفدية ياسيد دارتانيان ؟

ـ لا ادرى في الوقت الحاضر . ولكننا في الطريق إلى الكونت دى لافير . وسنسأله رايه الثاقب دائماً في مثل هذه الامور فلتتفضل ياصاحب النيافة بفتح الباب واعلم انك إذا أحدثت اى صوت فسنضطر إلى عمل مانكره .

ـ اطمئنا . فلن يصدر عني مايريبكما .

وفتح مازاران الباب . ودخل الثلاثة حجرة آتوس .

وما وقعت عينا آتوس على الكردينال وم ورائه الحارسان . حتى انحنى بأدبه الجم الذى عهد فيه وقال

- كان في وسع نيافتكم أن تتحروا من قيود الحراسة ، فان الشرف العظيم الذى اتلقاه الآن اكبر من أن اتناساه لأى سبب من الأسباب .

فتكلم دارتانيان من خلف الكردينال قائلا بلهجته الغسقونية

- واها لك ياعزيزى الكونت : صدقني النيافة لم يكن راغبا في صحبتنا اى رغبة ، ولكن صاحبك دى فالون وانا الححنا عليه في صحبته ، وربما نكون قد تجاوزنا في الالحاح حدود اللياقة ، ولكن عذرنا الان أن الدافع لنا هو شوقنا الشديد إلى اجتلاء محياك

" .. اعلم أنك إذا احدثت أى صوت فسنضطر إلى عمل ما نكره " .

فحملق اتوس لحظة ، ثم قفز من مكانه مرحبا بصديقيه العزيزين مستفهما ، فعض مازاران على شفته محاولا الابتسام ، ثم قال

- المسألة أننا تبادلنا الأدوار ، فاصبح السجين سجانا والسجان سجينا ، فانت تراني الآن يا كونت اسيرا يتقبل الشروش بدلا من ان يمليها بيد أنى احذركما أيها السيدان ، بأن انتصاركم لن يطول .

فصاح دارتانيان

- اياك يا صاحب النيافة أن تعمد إلى التهديد ، فتلك قذوة سيئة لنا ، وانت ترانا في غاية اللياقة والوداعة مع نيافتك فلندع الحقد جانبا ولنتحدث بهدوء .

- ليس احب إلى من هذا . ولكنى اريد أن أقول لكما إننى إذا كنت في الفخ ، فانتما في الفخ معى انظرا إلى القضبان وخبراني كيف ستخرجان . ولكنى مع هذا اعرض عليكما الحرية

- ولكن في استطاعة صاحب النيافة أن يرجع في وعده ، وفي هذه الحالة نكون قد خسرنا كل شيء .

- اقسم لكم انني سأطلق سراح ثلاثتكم ، اقسم على ذلك بشرف مازاران ، بشرف الوزير . هذا وعد رسمى .

- انك لم تعد وزيرا ياصاحب النيافة ، لانك اسير .

- سأعطيكم المفتاح كي تخرجوا إلى الحديقة ، وهناك تقفزون من فوق السور ، وحينما تصيرون في الخلاء فانا واثق من قدرتكم على الهرب وعلى مقاومة اى عقبة مسلحة تعترض طريقكم .

- واين هذا المفتاح يا صاحب النيافة ؟

- هذا هو

- افضل أن تتولى ارشادنا إلى الطريق على سبيل الاحتياط .

- بكل سرور

ومشى الكردينال معهم إلى الحديقة ، ثم في طرقاتها لغاية السور . وهنا هم مازاران ان يعود ادراجه ، لولا أن دارتانيان استوقفه :

ـ ياله من حظ سعيد أن يتولى توصيلنا إلى الطريق نحن الرجال الفقراء المتواضعون امير جليل المقام من أمراء الكنيسة . ولكن ـ على فكرة ـ الكونت ليس معه سلاح . وقد تقابلنا داورية مسلحة . فهل لنيافتكم ان تعيروه سيفكم الذي لا فائدة لكم منه وانتم رجل دين لا رجل حرب

ـ بكل سرور ، بل إني ارجو الكونت في التفضل بقبوله تذكارا مني

ـ واني أعد صاحب النيافة الا افرط في هذا التذكار .

فقال دارتانيان حينئذ :

ـ ليس في الوقت متسع للمجاملات المؤثرة اكثر من هذا . والآن يا أتوس عليك ان تقفز إلى الخارج وبسرعة .

فتولى بورتوس رفع اتوس فوق السور ، ومن هناك قفز إلى الشارع . وقال دارتانيان بعد ذلك لبورتوس :

ـ عليك الآن ان تراقب الكردينال جيداً ريثما اصعدانا ايضاً ولكن بدون مساعدتك فلا تدع الكردينال يتحرك .

فقبض بورتوس على ذراع الكردينال ، ثم حنى ظهره فارتفع فوقه دارتانيان حتى ركب السور ، وامر بورتوس بعد ذلك قائلا .

ـ والآن يا عزيزي ناولني من فضلك نيافة الكردينال ، واذا قاوم او صرخ فأنت حر في ان تكتم انفاسه وتخنقه !

فرفع بورتوس الكردينال المسكين . فتلقفه دارتانيان وهو ينتفض ، وقال

ـ والآن فلتقفز النيافة إلى الشارع بجوار الكونت . والا فاني قاتلك

ـ سيدي لقد حنثت بالعهد .

ـ اي عهد ؟ لقد كان عهدا من جانب واحد . جانبك انت .

ـ لقد دفعت حريتكم ثمنا لحريتي وفدية لها

ـ هذا صحيح . ولكن ما رأيك في الفدية الضخمة المستحقة عن الكنز المدفون في الحديقة ؟ الا تحتاج هذه المسألة لشيء من التفاهم والتمحيص ؟

فلطم الكردينال خديه وصاح

ـ يا يسوع ! لقد هلكت وضاع مالي ..

فتناوله دارتانيان من خناقه ودلاه من السور حيث تلقفه الكونت دي لافير ، ثم تناول يد العملاق بورتوس ورفعه إلى أعلى السور رفعة اهتز لها الجدار هزة هائلة ، ثم قفز الاثنان إلى عرض الطريق ، وتقدم دارتانيان ليكون بصفة كشاف ، وسيفه في يده ، ملتزما حذاء الجدار ، فاذا بهم يعثرون على جياد ، ولكن حارس الجياد زعق فيهم

ـ ارفع يدك !

فاذا هذا الحارس هو جريمو . وقد جاء يخرس هذه الخيل بأمر من اراميس الذى قضى الوقت في التجسس وتسقط الأخبار على راس ستين من رجال جيش باريس ، على أمل تخليص أصدقائه من الاعتقال .

وبعد عشر دقائق كان جريمو قد عاد بأراميس مبتهجاً ، فتعلق برقاب أصدقائه ، وراح يقول :

ـ لقد كنت بسبيل اجراء اللازم ، بهؤلاء الرجال الذين اعطانى اياهم نائب المطران . وقد افادت هذه الخطة فى اقتناص رسالتين سريتين من مازاران إلى الملكة ، ففتحتهما لأجده يقول في إحداهما إن خزائن الدولة قد فرغ ما فيها من المال ، وفي الأخرى يقول إنه سينقل المساجين إلي مكان اخر اوفى بالأمن . وقد علقت الأمال على هذه الرسالة الاخيرة ، مستخيراً الله فى اختطافكم اثناء نقلكم من القصر ، وأعددت هذه الجياد لتركبوها حين يتم الاختطاف . ولكن أخبرونى كيف افلتم من هذا الوغد الزنيم مازاران ؟ لابد انه سامكم العذاب .

ـ بالعكس . لقد هربنا بواسطته ، فهو الذى تولى الأمر ، مكلفاً حاجبه الخاص أن يرشدنا إلى الطريق حتى باب الحديقة ، ثم زاد فى تفضله فأوصلنا بنفسه إلى السور .

ـ هذا والله صنيع جميل يغير رايي فيه ، ولو قابلته لقلت له إننى لم أكن اظنه اهلا لمثل هذه الأريحية .

وعندئذ لم يطلق دارتانيان كتمان الضحك فالتفت إلى مازاران قائلا :

ـ يسرنى أن أقدم إليك الشيفالييه ديربلاى ، صديقنا الرابع .

وصاح أراميس :

ـ هل هذا هو الكردينال ؟ صيد سمين وقنيصة طيبة ، فالى الخيل إلى الخيل . ولكن واأسفاه ، لابد لي من الانتظار دقائق ، حتى يلحق بنا ربيب أتوس ، الشاب راؤول دى براجيلون .

وبعد لحظات اقبل الفيكونت فعلا ، وكان لقاء حاراً بينه وبين اتوس ، ثم تشاور الأصدقاء الأربعة فى الخطة ، وقر قرارهم على أن يتوجهوا بالكردينال إلى قصر من قصور بورتوس ، فى ضيعة بييرفون ، لأن هذا القصر ليس بعيداً عن باريس ، وليس قريبا منها قرباً خطيراً .

ويل للمغلوب

اضطر مازاران إلى الاستسلام ، فاستمر الركوب طول الليل بتلك السرعة الخارقة التى تعودها هؤلاء الذين ولدوا فوق صهوات الجياد ، حتى إذا بزغ الفجر كانت جياد الخدم قد كلت ، بيد ان جريمو استطاع الحصول من اسطبل قريب على جياد جديدة ، واستأنفوا السير حتى وصلوا قرب الظهر إلى قصر بورتوس ، هنا اسرع موسكيتن يتقدم الموكب ليعلن إلى الخدم والأتباع وصول دى فالون واصدقائه ، وايضا كى يبدا الاستعداد فى المطبخ لما اشتاق اليه من الأطعمة الدسمة . اما دارتانيان ، فراح يرسم خطة الاقامة . قال :

- نحن اربعة ، فلنتبادل السهر على حراسة صاحب النيافة ، فيسهر كل واحد منا ثلاث ساعات . وعلى صديقنا أتوس أن يتفقد منافذ القصر كى يقوم بتحصينه بحيث يصمد لكل مقاومة فى حالة الحصار . وعلى اراميس ان يدبر تسليح الأتباع وتخزين المؤونة .

ووضعوا مازاران فى احسن حجرة بالقصر. وحينئذ أخذ يراوغهم محاولا إيهامهم ان افتضاح امر وجوده بين ايديهم ، كفيل ان يجعل الملكة تجرد عليهم جيشا جرارا يحاصر القصر ، وربما حضر الأمير كونديه بنفسه ليتقدم الهجوم . فأجابه دارتانيان بأن جيش باريس سيسره فى هذه الحالة أن يتعقب جيش الأمير كونديه ويحصره بين نارين . ثم إن فى الوسع عند اقتراب الجيوش تهريب الكردينال إلى قصر آخر من قصور بورتوس ، ولدى بورتوس ثلاثة قصور من هذا النوع . فاضطر مازاران إلى ترك المراوغة ، وطلب شروط الصلح . فقال أتوس :

- اما انا ياصاحب النيافة ، فلا اريد شيئا لنفسى ، وإذا طلبت شيئا لفرنسا فسيكون باهظا ، ولذلك اكتفى بالسكوت واترك الكلمة للشيفالييه ديربلاى .

- تكلم ياشيفالييه ، وقل ماذا تريد بوضوح وإيجاز .

- فى جيبى ياصاحب النيافة ملخص شروط اهالى باريس التى حضر الوفد أول امس لتقديمها اليكم . ولهذا أطلب الموافقة على هذه الشروط .

- هذه شروط عامة كدنا نتفق عليها ، فلننتقل إلى الشروط الخاصة .

- اريد ياصاحب النيافة ان تمنح حكومة نورماندیا إلى الدوق دى لنجفيل ، مع هدية مقدارها نصف مليون جنيه للدوقة . وأتعشم ان يتنازل جلالة الملك بأن يكون شبين ابنها ، كما ارجو من نيافتكم بعد حضور حفلة العماد ان تتفضلوا

بالسفر إلى روما لالتماس بركات الحبر الأعظم .
- وبعبارة اخرى تريدنى على الاستعفاء من منصبى وان انفى نفسى حدود فرنسا ؟ وانت ياسيد دارتانيان ؟
- اما انا ياصاحب النيافة فطلباتي هي الشيفالييه ديربلاى ، ماعدا الفقرة الاخيرة ، فاني اريد ان تظلوا فى دست الوزارة ، لأن عبقريتكم السياسية يجب الا تحرم منها فرنسا . ولكن بشرط ان تعلق بذاكرة نيافتكم خدمات رجال الملك المخلصين ، وان يرقى إلى قيادة الفرسان العامة شخص موجود فى هذه القاعة لا يغيب عن فطنتكم
- وانت ياسيد دى فالون ؟
فقال بورتوس وهو يهز جسمه الضخم
- اما انا ياسيدى الكردينال فاتمنى مادام نيافتكم قد شرفت هذا المنزل الذى اواكم واكرم مثواكم ، ان تأمروا برفع هذه الضيعة إلى طبقة البارونية . وان يصدر جلالة الملك فى اول فرصة امراً بتولية صديق لى قيادة هامة .
- ولكنك تعلم ان هذا تلزم له خدمة سابقة بشروط معينة .
- هذا الصديق حائز لهذه الشروط .
- لا ادرى كيف اوفق بين شروطكم المختلفة أيها السادة . فانى لا املك وحدى ترقية دارتانيان إلى رتبة الكابتن . ولا الانعام على دى فالون بلقب بارون . ثم انى لا ارى وجها لاشتغالكم بمصالح فرنسا العمومية . بل الاولى ان تهتموا بمصالحكم الشخصية .
فصاح اراميس ثائراً
- لابد من امضاء المعاهدة اولا . وفى هذه اللحظة . مع التعهد بالحصول على موافقة الملكة عليها .
- ولكنى لا املك إلا رأيى الشخصى ، فلا اضمن إرادة الملكة .
- على رسلك ، فانت تعلم جيداً ان الملكة لا ترفض لك طلباً . هذه هى الشروط وهذا هو القلم . فتفضل بالقراءة ثم تنازل بالتوقيع .
- الا تعلمون ان التوقيع فى هذه الحالة يعتبر باطلا لانه تم تحت تأثير وبضغط ؟
- ولكن نيافتكم سوف لاتعترفون انكم اكرهتم على التوقيع . ثم نرجو الا يطول الخلاف بيننا . حتى لايعرف العالم كله ان الكردينال قد اختطف من قصره . وتصور ياصاحب النيافة الفضيحة الكبيرة التى ستدوى فى الآفاق . وقلق الملكة . وسخرية الناس . وشماتة الباريسيين الملاعين . وكراهتهم لنيافتكم معروفة .
- هذا فظيع . ولكني اخشى إذا وقعت ان ترفض الملكة إقرار المعاهدة

فقال دارتانيان :

ـ انا اتعهد بمقابلة الملكة والحصول على توقيعها إذا أنت وقعت .

ـ ولكنى حاذر ، فقد يكون استقبالك في بلاط سان جيرمان على خلاف ماتنتظر .

ـ خل عنك ! فاني سأدبر الأمر بحيث استقبل أحسن استقبال .

ـ كيف ؟

ـ سأحمل إلى الملكة رسالة الكردينال التي يخبرها فيها ان الخزانة خاوية ، حتى إذا رايت الملكة وقد استولى عليها اليأس والارتباك . ذهبت معها الى حديقة البرتقال وضغطت على زر معين ، فيتحرك لولب معين ، إلى القصيدة المعروفة .

ـ كفى ياسيدى كفى . اين هذه المعاهدة ؟

وتناول القلم فوقع مشروع المعاهدة ، وحمله دارتانيان إلى بلاط سان جيرمان .

لدى الملكة

سافر دارتانيان في مهمته الخطيرة حاملا مشروع المعاهدة ، وخطاباً خاصاً من مازاران إلى الملكة ، وكان في سفره هذا وحيداً لايؤنسه إلا سيفه وتصريح بالمرور من النقط الأمامية بامضاء الكردينال . ولم تستغرق الرحلة إلا ست ساعات من السير الحثيث .

وكان اختفاء الكردينال لايزال مجهولا من عامة الناس . ولكن الملكة علمت به واستطاعت ان تخفي قلقها عن أقرب المقربين اليها . وقد أدى الكشف عن الحارسين المكممين في غرفة دارتانيان وبورتوس الى تخيل ماحدث بصورة مشوشة ، فلم يكن يخطر ببال احد كيفية دخول الجنود إلى الزنزانة . ولم يعرف احد أين ذهب السجناء الثلاثة بالكردينال بعد خروجهم . وكان حاجب الكردينال اول من اكتشف غيابه ، فراح يتعقب آثار الأقدام في أرض الحديقة حتى وصل إلى السور . وقد أوصته الملكة بالتزام الصمت التام ، ثم بعثت إلى الأمير كونديه فأخبرته بتفاصيل الموضوع ، فكلف خمسمائة فارس بالبحث والتنقيب والقبض على العصابات المشتبه في أمرها .

ولما كان دارتانيان فرداً وليس عصابة ، فانه لم ينله شيء من جانب هذه الاجراءات . واستطاع المرور من جميع الكردونات ، إلى أن دخل القصر . وعرفه حاجب مازاران بطبيعة الحال بحكم عمله في حوش الفرسان ووجوده كثيرا من الأحيان في حجرة الانتظار امام مكتب الوزير الكردينال . وكان الحاجب يعلم ايضاً أن دارتانيان احد الثلاثة الذين اختطفوا صاحب النيافة ، لهذا ظن الرجل نفسه في حلم ، وراح يفرك عينيه ، ثم صرخ كمن يفيق من كابوس مزعج :

- السيد دارتانيان . السيد دارتانيان .
- بلحمه ودمه ايها الصديق .
- وماذا اتيت تصنع هنا ؟
- جئت احمل انباء من الكردينال مازاران ، انباء اخيرة وخطيرة .
- ماذا حدث له ؟
- كل خير . فهو في خير حال ، مثلي ومثلك .
- إذن لماذا ترك القصر ؟
- لقد نبتت في راسه رغبة مفاجئة لتبديل الهواء في الارياف ، ولهذا رجاني ورجا الكونت دي لافير والسيد دي فالون أن نصحبه . ولما كنا من أهل الكرم والأدب فاننا لم نتردد في إجابته إلى طلبه ، فخرجنا معه أمس مساء . وهذا كل الأمر ، ولكن لما كانت هناك أشياء عاجلة يريد نيافته ان يفضي بها إلى مسامع

صاحبة الجلالة . فقد اقتضت ارادته ان يكلف بهذه المهمة شخصاً موثوقاً به ، ووقع اختياره على شخصى الضعيف لحمل هذه الرسالة . فأرجو ان تتفضل إذا كنت حريصاً على خدمة مولاك بإبلاغ صاحبة الجلالة نبأ وصولى والغرض منه .

وأسرع الحاجب فاخبر الملكة بهذه السفارة الغريبة . فأمرته الملكة ان يدخل دارتانيان عليها فوراً . ودخل دارتانيان على ملكته بكل احترام وخضوع واجبين لمقامها السامى . حتى إذا صار على بعد ثلاث خطوات منها ، ركع على إحدى ركبتيه وقدم اليها الخطاب . وكان خطاباً عاديا لتقديم دارتانيان والتوصية به ، فقرأته الملكة وعرفت خط الكردينال على الفور . وان كان مضطرب بعض الاضطراب . ولما كان الخطاب لايفيدها علم شىء تجهله ، فقد التفتت إلى دارتانيان وطالبته بتفاصيل ماحدث . فقص عليها كل شىء بطريقته البسيطة التى يعرف كيف يستعملها فى بعض الأحيان لترخص له فى الاجتراء والسخرية .

وكانت الملكة تنظر اليه وهو يتكلم نظرة دهشة اخذت تزداد شيئاً فشيئاً . لانها لم تتصور كيف يجرؤ رجل على رسم مثل هذه الخطة اولا ، ثم على تنفيذها بعد ذلك ، واكثر من هذا وذاك كيف يجترىء بعد ذلك على روايتها بكل صراحة على مسامع تلك التى من مصلحتها ، بل يكاد يكون من واجبها أن تعاقبه عليها ، فصاحت عندما انتهى :

- كيف تجرؤ ياسيدى على الاعتراف امامى بجريمتك وخيانتك !؟

- عفوك ياسيدتى . إذ يظهر اننى اسأت التعبير ، او ان جلالتك اسأت الفهم فليس فيما قلت الآن جريمة او خيانة . فكل ماهناك ان السيد مازاران كان قد حبسنا ، أنا ودى فالون ، لاننا لم نصدق انه ارسلنا إلى انجلترا كي نتفرج ببرود على قطع راس الملك شارل الأول ، زوج اخت المرحوم زوجك ، وزوج الملكة هنرييت ضيفتك ، فراينا من واجبنا أن نعمل كل ما فى وسعنا لنجاة الملك المسكين ، واثقين اننا نؤدى خدمة طبيعية للكردينال ولجلالتك ولما كان لابد من تصفية سوء التفاهم بيننا وبين الكردينال بالحسنى ، وفى جو هادىء لهذا قررنا استضافة صاحب النيافة فى قصر صديقى ، وهناك تم التفاهم بمنتهى السهولة ، واتضح لنا صدق حدسنا من ان هناك خطأ فى فهم موقفنا ، إذ حسب نيافته اننا خدمنا الجنرال كرومويل معاقبنا ، ولما اتضح له العكس اظهر رضاه عنا لاننا كنا ممثلين جلالتكم ، واى تصرف خلاف تصرفنا كان حرياً بلطخ تاج فرنسا بعار لا يمحى أمام التاريخ . ولهذا راى الكردينال لزاماً عليه ان يصلح خطأه فى حقنا ،

فارسلني إلى جلالتكم لاتحدث اليكم في الترضيات الطبيعية المناسبة لرد اعتبار فارسين شريفين اسيء إلى شرفهما بغير قصد حيث كانا يستحقان المكافأة .
- انى أصغي اليك ايها السيد بكل إعجاب . فأنا لم أر في الواقع طول حياتى مثالا للجرأة الوقحة كهذا المثال .
- أرى ان جلالتك اخطات فهمي كما سبق أن اخطأ صاحب النيافة .
- لم اخطيء ، وسترى انك بعد دقائق سيكون مقبوضاً عليك وانني ساتحرك بعد ساعة على راس جيش لتخليص وزيرى
- أنا واثق ان حصانة جلالتك لن تسمح لها بهذا . لأن الكردينال سيعرض للقتل بمجرد وصول الجيش
- سأكتفى إذن بالقبض عليك .
- وهذا ايضا قد حسبت حسابه . فاذا لم أصل إلى اصدقائي غداً ، سيتم تسليم صاحب النيافة إلى أصدقائه الألداء أهل باريس .
- أرى ياسيدى انك تتجاسر على تهديد والدة مولاك الملك .
- مولاتي . انى اهدد مضطرا ولكن ثقي ان القلب الذى في صدرى لايكن لك إلا التقديس . وانت اول من يعلم هذا جيداً ياصاحبة الجلالة . بل إننا احتفظنا بالاسرار التي نعرفها وتحملنا مرارة الاهمال عشرين سنة كاملة . فانظرى إلى يامولاتي واسالي نفسك من انا ، انا لست إلا ضابطاً فقيراً بغير مال ولا ماوى ولا مستقبل ، ومع هذا لا ارى نظر ملكتي يتجه إلى بعد أن كانت طوال السنين قبلة انظاري ثم سلي نفسك عن زملائي الثلاثة ، وهل لقوا مايستحقون من جزاء الأريحية والبطولة اننا خير مثال لشعبك الذى يحبك ، ولكنك تقابلين حبه بتجويعه ، فمتى يامولاتي ينصرف تقديرك إلى من هم اهل له لا إلى الجبناء أصدقاء الرخاء وإخوان الصفاء الذين يقبلون في السراء ويذوبون عند الضراء ؟ فقوليها يامولاتي كلمة واحدة ، يحل الوئام محل الخصام ، وتنتهى حالة الحرب التى زلزلت كيان الامة

ونظرت الملكة اليه بدهشة ، ثم قالت

- لماذا لم تقل هذا الكلام قبل ان تقدم على العمل ؟
- لأنه كان ينبغي يامولاتي ان نثبت لجلالتك امراً كان المظنون انك لاتؤمنين به . وهو اننا قوم يقام لهم وزن ، ويجب أن نكون محل التقدير .
- قوم لايتراجعون امام شيء فيما يبدو .
- اننا لم نتراجع امام شيء فيما مضى ، فلماذا نتراجع الآن ؟
- ويصل بكم الأمر إلى خطف وزيرى ، وربما خطفي انا ايضاً وتسليمي لاعدائي ؟

- هذا لم يخطر لنا حتى الآن ببال .
- يالكم من رجال من فولاذ . اين هذه المعاهدة ؟
فقدم اليها دارتانيان المعاهدة فجالت فيها بصرها . ثم سألت .
- هذه شروط عامة . فأين شروطكم الشخصية ؟
- لقد تركنا هذا لمكارم جلالتك . ولا أظن ان جلالتك تضنين على الرجل الذى يرد اليك وزيرك الكردينال بترقيته إلى قيادة حرس الفرسان العامة .
فتناولت براءة وملأتها ثم قدمتها اليه . فأخذها باسماً وقال :
- هذه وظيفة تمنحينني إياها . ومن يملك المنح يملك المنع . وأخشى ان أفصل من الخدمة بعد عودة الكردينال .
- فماذا تريد إذن ؟
- نصا بسيطاً على دفع مائة الف جنيه لقائد الحرس المسكين فى حالة الاستغناء عن خدماته .
- مائة الف ؟ هذا كثير .
- وما رايك فى إعلان الباريسيين عن استعدادهم لدفع ستمائة الف لمن يأتيهم بصاحب النيافة حيا أو ميتاً ؟ الا ترينهم لصوصا ؟
- انت إذن سدس لص فقط . وهذه مزية . هاك النص كما طلبت . بعد ؟
- لى صديق غنى جداً وقد راى صاحب النيافة بعد ان نزل ضيفا مكرما معززا فى قصره أن يرفع ضيعته الى طبقة البارونية فارجو ان تقر جلالتك وعد صاحب النيافة وتنعم على دى فالون بلقب بارون .
- وهاك البارونية . وبعد ؟
- بقى صاحبى الشيفالييه ديربلاى . وهو راهب .
- أيريد رتبة الأسقفية الجليلة ؟
- بل أقل من هذا . وهو ان يتطوع جلالة الملك بأن يكون شبيناً لابن الدوقة دى لنجفيل . وأن يمنح جلالة الملك الدوق دى لنجفيل ولاية نورمانديا . وأن يهدى الدوقة نصف مليون بمناسبة عماد ابنها .
- كله مقبول إلا النصف مليون . فالكردينال لايفتأ يكرر ان خزانة الدولة خاوية .
- اعتقد انه سيراجع نفسه فى هذا القرار ويستعمل كراماته فى إيجاد المال .
- أليس لك زميل رابع ؟
- اجل يامولاتى . الكونت دى لافير .
- وماذا يطلب ؟
- لا شىء
- أليس له ولد . او قريب او ربيب ؟ رأيته ذات مرة موفدا من قبل الأمير كونديه

حاملا إلى الوية النصر في موقعة ليتزعم الدوق دى شاتيون .

ـ له فعلا ربيب شاب يدعى الفيكونت دى فالون .
ـ ما رأى الكونت في أن نمنح ربيبه قيادة فرقة في جيشنا ؟
ـ ربما قبل إذا فاتحته جلالتك في الأمر .
ـ ياله من رجل غريب . سنرى على كل حال . فهل أنت مسرور الآن ياسيدى ؟
ـ تقريبا . ولكن بقى شىء واحد لم توقعيه جلالتك ، هو معاهدة الصلح بالشروط التى اقترحها أهل باريس .

فوقعت الملكة وهى تغالب غيظها . وما وضعت القلم حتى افجر غضبها كالبركان وراحت تنشج بالبكاء ، فركع دارتانيان وقال لها بصوت مضطرب :

ـ مولاتى ، انظرى إلى هذا المسكين الراكع عند قدميك . إنه يؤمن بنفسه وبأصدقائه ويريد ايضاً ان يؤمن بك . وإليك الدليل : فغداً سيرد اليك السيد مازاران بلا قيد ولا شرط ، وهذه توقيعاتك يامولاتى على جميع البراءات الاخرى والمعاهدة . خذيها ، وإذا شئت بعد ذلك أن تمنحيها بمحض اختيارك فالأمر لك

ثم قدم إلى الملكة تلك الأوراق التى انتزعها منها بكل مشقة واحدة واحدة ، فتأثرت الملكة كثيراً وشعرت ان كرامتها قد رد اليها اعتبارها ، فكفت عن البكاء وقالت له :

ـ صدقت ياسيدى ، فانى قد أسأت فهمك وتقديرك ، هذه هى الوثائق أعطيها اليك بملء حريتى فاذهب وعد إلى بالكردينال .

ـ بقى لى مطلب واحد يامولاتى : فمنذ عشرين سنة قبلت يد ملكة عظيمة خلف ستارة فى بلدية باريس واشتهى الآن ان اقبل اليد الأخرى من هاتين اليدين الجميلتين .

ـ هاك الأخرى حتى لاتكون اليد اليسرى أقل سخاء من أختها اليمنى . واحتفظ بهذا الخاتم الذى فيها تذكاراً منى .

★ ★ ★

وبعد خمس عشرة ساعة كان بورتوس يرقص فى حجرات القصر وفى يده براءة البارونية . وكان دارتانيان مشغولا بوضع علامات القيادة فوق سترته العسكرية . وكانت باريس كلها تقيم الأفراح باعلان المعاهدة .

تمت

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٤٨٣٧ / ٨٥
الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ ـ ١١٨ ـ ١٨٧ ـ ٤

٧٥ قرشا

هذه الرواية

هذه الرواية هي "الثانية" في سلسلة روايات اسكندر دوماس الكبير ، فهي امتداد لذلك العهد الفاسد بعد مضى عشرين سنة ، من الحكم فى فرنسا ، وقد توفى لويس الثالث عشر وخلفه ابنه الصبى لويس الرابع عشر ، واستبد بشئون الملك الكردينال مازاران وزير فرنسا الأكبر وخليفة الكردينال ريشيليو ، وزوج الملكة الوالدة آن النمسوية بعقد سرى .

وقد أطلق دوماس على هذه الرواية اسم « بعد عشرين سنة » واخترنا لترجمتها « شعب وطاغية » لأنها تتضمن الثورة على الطاغية مازاران الذى اتخذ من ضعف الملكة وفساد الحكم فى فرنسا وسيلة لتحقيق أغراضه وشهواته .

وقد تضمنت هذه الرواية ثورة الشعب الانجليزى على الملك شارل الأول وخلعه واعدامه وإلغاء الملكية فى ذلك الحين .